روح القيادة الاجتماعية

النهـج النبـوي فـي قيـادة المجتمـع

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م

حسن موسى الصفار

روح القيادة الاجتماعية

النهج النبوي في قيادة المجتمع

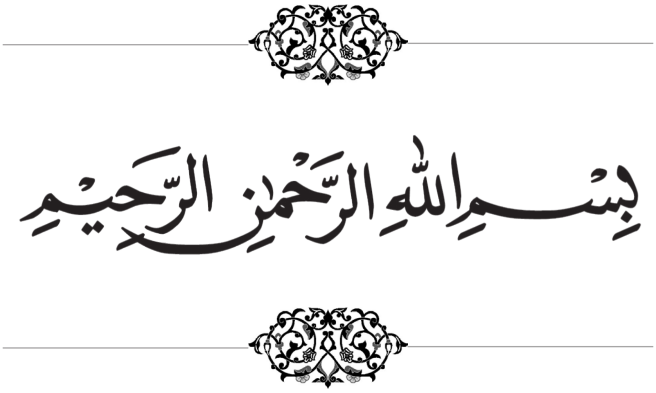
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

المحتويات

المحتويات..... ٧

مقدمة..... ١١

الفصل الأول: أروع سيرة

السيرة النبوية مصدر هداية وإلهام..... ١٧

تحدّيات في قراءة السيرة النبوية..... ٢٣

نهج المحبّة في القيادة النبوية..... ٣١

الفصل الثاني: المثل الأخلاقي الأعلى

النبي وطبيعته البشرية..... ٤١

الصادق الأمين..... ٤٩

النبي المبتسم..... ٥٥

الحياء شيمة نبوية..... ٦٣

اهتمام النبي بالأناقة الشخصية..... ٦٩

الاهتمام بالجمال في التربية النبوية..... ٧٧

من أخلاق النبي في حياته الزوجية ٨٥
رعاية الأحفاد في النهج النبوي..... ٩٣
العمالة المنزلية وأخلاق النبوة ٩٩

الفصل الثالث: الإدارة بالحبّ

معاناة الرسول ﷺ في تبليغ الرسالة ١٠٧
الحوار والإقناع.. مشاهد من السيرة النبوية..... ١١٧
حقوق الإنسان في التربية النبوية..... ١٢٩
الرعاية النبوية للفقراء..... ١٣٩
التأليف بين القلوب نهج نبوي..... ١٤٧
مصادرة شخصيّات الآخرين والموقف النبوي..... ١٥٣
الشورى وصناعة القرار النبوي..... ١٥٩
التشاور في العمل الجمعي..... ١٦٧

الفصل الرابع: الارتقاء بالمجتمع

مرجعية الضمير في التوجيه النبوي..... ١٧٥
يُسر الدين في المنهج النبوي..... ١٨١
الارتقاء بوعي الناس ١٨٧
النَّبي ومواجهة الخرافات ١٩٣
اهتمام النبي ﷺ بالتعليم ١٩٩
تعليم الحكمة من وظائف النبوة..... ٢٠٣
الانفتاح في العلاقات نهج نبوي ٢١١
القيم الإنسانية في حروب النبي..... ٢١٧

الفصل الخامس: السياسة النبوية ودولة اللاعنف

دولة اللاعنف..... ٢٢٧
المنافقون والدور الخطير ٢٣١

سياسة الاستيعاب ٢٣٧
احتواء المواقف السيئة..... ٢٤٧
من أجل السلم والاستقرار ٢٥٣
بناء الوحدة والشراكة الاجتماعية..... ٢٥٩
المصادر..... ٢٦٩

مقدمة

لا يوجد قائد في تاريخ العالم، لسيرته حضور في نفوس وثقافة وسلوك أتباعه، بمستوى الحضور الذي حقّقته سيرة النبي محمد ﷺ في حياة المسلمين.

فرغم مرور أكثر من أربعة عشر قرنًا على وفاته، إلّا أنّ سيرته لا تزال حيّة حاضرة في قلوب وحياة المؤمنين برسالته، والمنتمين إلى دينه.

هناك انشداد نفسي عاطفي يعيشه كل مسلم تجاه شخصية رسول الله ﷺ، انطلاقًا من الاعتقاد بنبوته، وأنه أفضل الخلق عند الله، وأقربهم وأحبّهم إليه.

إنّ المسلم يلهج بذكر النبي محمد ﷺ يوميًّا في ساعات يومه المختلفة، كذكره له ضمن أدائه لفريضة الصلاة خمس مرات في اليوم، حيث يكرّر الشهادة له بالرسالة، في بداية كل صلاة عبر الأذان والإقامة، وفي وسط الصلاة ونهايتها ضمن صيغة التشهد

الواجبة، التي تنتهي بطلب الصلاة من الله على النبي محمد وآله.

ويعيش المسلم حالة شوق وفضول دائم، لمعرفة كل ما يرتبط بحياة رسول الله، والاطلاع على أوسع مساحة من سيرته العطرة، ليستوحي منها مقوّمات فكره وثقافته.

إنها ليست مجرد سيرة تاريخية يقرؤها المسلم للاطلاع عليها والتسلي بها، بل إنّها مصدر إلهام نفسي، ومنهج تربوي، ومرجعية فكرية ثقافية.

ويمتد تأثير السيرة النبوية على الفرد المسلم، والمجتمع الإسلامي، إلى دائرة السلوك، وطريقة الحياة، وبرامجها الخاصّة والعامة، باعتبار النبي محمد ﷺ قدوة وأسوة، ومثلًا أعلى للكمال الإنساني، والالتزام الديني والأخلاقي.

من هنا تأتي أهمية المنهجية الموضوعية في معرفة وقائع وأحداث السيرة النبوية، وضرورة مراعاة ضوابط الفهم الصحيح، والقراءة الواعية، لتلك الوقائع والأحداث.

فقد تسلّلت للسيرة النبوية كثير من الأخبار الزائفة، والروايات الملفّقة، كما أن من طبيعة النقولات التاريخية، أن تشوبها الأخطاء، والزيادة والنقيصة، بقصد من الراوي، أو بسبب الاشتباه والتوهّم والنسيان.

كما أنّ فهم النقولات، وقراءة الأحداث في السيرة النبوية، يتأثر باختلاف المستويات والخلفيات والمناهج، لذلك تعدّدت المدارس الفكرية، والاتجاهات العقدية، والمذاهب الفقهية بين المسلمين.

ورأينا في هذا العصر بعض الاتجاهات الإسلامية المتشددة، التي أرادت استنساخ تجربة العهد النبوي بحرفيتها، كما وردت في كتب الحديث والتاريخ، دون مراجعة وتحقيق، ودون دراسة لسياقها التاريخي، وظروفها الاجتماعية.

ومن الطبيعي أن ينتج عن ذلك أنموذج بالغ التشويه، مثّل صدمة للوعي الإنساني، وسبّب نفورًا من الإسلام، وأعطى الفرصة لحملات واسعة من الإساءة والتشويه لشخصية النبي محمد ﷺ وللشريعة الإسلامية.

وذلك ما يوجب على العلماء والمفكرين المسلمين، أن يبذلوا المزيد من

الجهد، في إبراز الصورة المشرقة النقيّة لسيرة النبي ﷺ، وأن يجتهدوا في دراستها وتحليلها، للفرز بين ما تحمله من قيم عظيمة، ومبادئ خالدة، تضيء للبشرية طريق الإيمان والكمال، والسمو الأخلاقي في كل عصر، وبين النموذج التطبيقي في العهد النبوي، الذي يحكمه في مجال إدارة الحياة الخاصّة والعامة، سياق تاريخي، وظرف اجتماعي، لا يمكن تجاوزه وإغفاله.

وبين يدي القارئ الكريم صفحات متواضعة، تسلّط الضوء على مشاهد تربوية واجتماعية، من أروع سيرة في تاريخ الإنسانية، تحكي شيئًا من الخلق النبوي العظيم، والنهج الرسالي الحضاري في إدارة المجتمع، والتعامل مع شرائحه المختلفة، ومعالجة القضايا والأزمات.

إنّ قيادة المجتمع في مدرسة النبوة، ليست فرصة لممارسة الهيمنة والتسلّط، ولا وسيلة لنيل الامتيازات والمكاسب، وليست غاية تبرّر استغفال الناس ومصادرة عقولهم. بل هي استجابة لتكليف إلهي، ليقوم الناس بالقسط، ولتعزيز قيم الخير والصلاح في المجتمع.

وأدوات القيادة المجتمعية في النهج النبوي، هي التزام الصدق والأمانة، وإثارة العقول، واستنهاض الهمم، ونشر المحبة والألفة، وتعزيز التعاون والمشاركة بين الناس. وتلك هي سمات روح القيادة المجتمعية الرشيدة.

أرجو أن يكون في هذه القبسات من نور السيرة النبوية، ما يضيء الطريق أمام رواد الإصلاح الاجتماعي، والساعين للارتقاء بمجتمعاتهم إلى آفاق التنمية والتقدم، وأن تكون حافزًا لي وللقرّاء الكرام للتأسي والاقتداء بنبي الخلق العظيم، الذي بعثه الله رحمة للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين وأصحابه المنتجبين.

حسن الصفار

١٤ ذو الحجة ١٤٤٤هـ

٢ يونيو ٢٠٢٣م

الفصل الأول

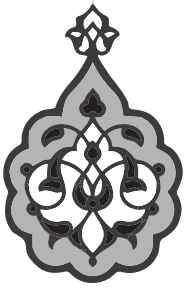

أروع سيرة

السيرة النبوية مصدر هداية وإلهام

يؤدي الأنبياء وظيفتهم في هداية الناس إلى عبادة الله تعالى وإلى الالتزام بمكارم الأخلاق عبر طريقين:

الأول: البلاغ المبين

مخاطبة الناس وتوجيه الدعوة والإرشاد إليهم بأفضل لغة وأوضح بيان، لاستثارة عقولهم، وإيقاظ وجدانهم، وإحياء نزعة الخير والصلاح في نفوسهم.

وقد منح الله تعالى أنبياءه أفضل قدرات التخاطب والتأثير والإقناع، فكلّ نبي كان يخاطب قومه باللغة التي يستخدمونها، والأسلوب الذي يفهمونه.

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّـهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٤].

وكان خطاب الأنبياء لأقوامهم في غاية الجلاء والوضوح، وهو ما يطلق عليه القرآن الكريم ﴿الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، حيث تكرر وصف خطاب الأنبياء بهذه الصفة:

يقول تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [سورة النحل، الآية: ٣٥].

ويقول تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ١٨].

ويقول تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [سورة التغابن، الآية: ١٢].

كما أنّ الأنبياء يراعون مستوى الفهم العام عند الناس الذين يخاطبونهم، حيث ورد عنه ﷺ: «إِنَّا مَعَاشِرَ اَلْأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ اَلنَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ»[١].

الثاني: النموذج والقدوة

تقديم النموذج العملي والتطبيقي للالتزام بالمبادئ والقيم، عبر سيرة الأنبياء وسلوكهم، حيث يكون النبي حياة متحركة لرسالته بين الناس، فهو يدعوهم إلى ما يلتزم به ويطبقه، وذلك ما يثبت مصداقيته، فإنّ الناس لا يثقون فيمن يخالف فعله قوله.

كما أنّ معايشة الناس لمن يلتزم بالمبادئ والقيم، تجعلهم أقرب للاقتناع بإمكانية التطبيق والالتزام بتلك القيم، فهي ليست دعوة مثالية غير قابلة للتطبيق.

لذلك أراد الله تعالى أن يكون أنبياؤه قدوات يتطلع الناس إلى الاقتداء والتأسي بهم، في ممارسة الحياة وإدارتها، وفقًا للمبادئ ومكارم الأخلاق.

وكما أمر الله تعالى بإطاعة الرسول في أوامره ونواهيه فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّـهِ﴾ [سورة النساء، الآية: ٦٤]، كذلك فإنه تعالى وجّه الناس للتأسي والاقتداء برسول الله ﷺ، يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّـهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٢١].

---

(١) محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، طبعة ١٤٠٥، بيروت: دار الأضواء، ج ١، ص٢٣، حديث١٥.

لذلك اعتبر الفقهاء أنّ سيرة النبي ﷺ وأفعاله حجة في معرفة معالم الدين وأحكامه كأقواله، فكما نستنبط الحكم الشرعي من قول رسول الله ﷺ كذلك نستنبطه من فعله وعمله، ضمن ضوابط الاستنباط المقررة.

وإلى جانب قوله وفعله، فإنّ تقريره أيضًا حجة، فالأعمال التي يقوم بها الآخرون بمحضر رسول الله ﷺ، فيمضيها ولا يعترض عليها، يمكننا استنباط الحكم الشرعي من إمضائه وإقراره لها.

من هنا تبدو أهمية السيرة النبوية الشريفة، فهي مصدر هداية لمعرفة معالم الدين وأحكامه، وهي منبع إلهام للالتزام بمكارم الأخلاق، وتجسيد القيم الإنسانية الفاضلة.

وحين يدعونا الله للتأسي بالنبي ﷺ والاقتداء به، فهذا يعني ضمنًا الدعوة للاطّلاع على حياة رسول الله ﷺ وقراءة سيرته.

قراءة السيرة النبوية

إنّ قراءة السيرة النبوية تزيدنا معرفة برسول الله ﷺ وبعظمة شخصيته، وترسّخ محبته وعشقه في قلوبنا ونفوسنا، كما أنّها تحفّزنا للاقتداء به، والتأسي بمكارم أخلاقه.

لقد أسَرَت أخلاق رسول الله ﷺ حتى المناوئين له، فقادتهم إلى الإيمان به، والانضواء تحت رايته.

جاء في رواية: عن جابِر قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بذاتِ الرِّقاعِ، فإذَا أَتَيْنَا عَلَى شَجرةٍ ظَلِيلَةٍ تركْنَاهَا لرسول اللَّه ﷺ، فَجاء رجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِين، وَسَيفُ رَسُول اللَّه ﷺ مُعَلَّقٌ بالشَّجرةِ، فاخْترطهُ فَقَالَ: تَخَافُنِي؟ قَالَ ﷺ: لا! قَالَ: فمَنْ يمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ ﷺ: اللَّه. قَالَ: فسقَطَ السَّيْفُ مِنْ يدِهِ، فَأَخَذَ رسَول اللَّه السَّيْفَ فَقال ﷺ: منْ يمنعُكَ مِنِّي؟ فَقال: كُن خَيْرَ آخِذٍ، فَقَالَ ﷺ: تَشهدُ أنْ لا إلَه إلَّا اللَّهُ، وأنِّي رسولُ

اللَّه؟ قَالَ: لَا، ولكِنِّي أعاهِدُك أنْ لا أقَاتِلَكَ، وَلاَ أكُونَ مَعَ قَومٍ يُقَاتِلُونَكَ، فَخلَّى سبِيلهُ، فَأتى أصحابَه فقَالَ: جِئتكُمْ مِنْ عِندِ خيرِ النَّاسِ[١].

وعلى مرّ العصور، كانت سيرته تستقطب الباحثين المنصفين، حيث يعتنقون الإسلام من خلال الاطّلاع على السيرة النبوية.

وقد اهتم أهل البيت وصحابة النبي ﷺ بحفظ سيرة رسول الله ﷺ ونقلها لأجيال الأمة.

الفرادة والتميّز في السيرة النبوية

يمكن القول: إنه لم تحظَ شخصية في التاريخ الإنساني بمثل ما حظيت به شخصية النبي محمد ﷺ، من اهتمام بتاريخ حياته وتوثيق سيرته.

يقول الدكتور إسماعيل الشطي: (فمحمد شخصية لا يكتنفها ـ لدى المؤرخين ـ الغموض الذي يكتنف شخصية موسى ويسوع وزرادشت وبوذا، فهو ولد من أبوين طبيعيين، ولم تشهد حياته أية ظواهر خارقة، سواء على المستوى الشخصي أو الطبيعي، ومات كبقية البشر، وهو ما دفع المفكر الفرنسي إرنست رينان (Ernest Renan) (١٨٢٣-١٨٩٢) إلى أن يصف الوضوح في سيرته بقوله إنه: «ولد في مشهد تاريخي كامل»)[٢].

ومما انفردت به السيرة النبوية الشريفة عن تاريخ كلّ الشخصيات الأخرى، احتواؤها على أدقّ التفاصيل في حياة رسول الله ﷺ، الشخصية والاجتماعية، وكأنموذج لهذا الاستيعاب المدهش، نشير إلى أحد كتب السيرة النبوية، وهو كتاب (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد) لمصنفه الإمام محمد بن يوسف الصالحي

---

(١) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٢، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص٢٤٩.

(٢) إسماعيل الشطي، جذور الثقافة في المنطقة العربية، الجزء الثالث (الإسلام وثقافات مسلمي الأقطار المفتوحة)، الطبعة الأولى ٢٠٢٠م، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ص٥٨٥.

الشامي المتوفى سنة ٩٤٢هـ، الذي استخلصه من أكثر من ثلاثمئة كتاب، حسبما ذكر في مقدمته، وقسّمه إلى نحو ألف باب، وقد طبع مؤخرًا في اثني عشر مجلدًا، يزيد مجموع صفحاتها على ٦٠٠٠ صفحة.

وحين نقرأ عناوين أبواب هذا الكتاب نجد مثلًا: ثلاثة وعشرين بابًا، استغرقت ١٢٠ صفحةً تقريبًا مخصصة لصفات جسم النبي ﷺ عضوًا عضوًا، كرأسه وشعره، وجبينه، وحاجبيه، وعينيه، وسمعه، وأنفه، وخديه، وفمه، وأسنانه، ولحيته، وعنقه، وظهره، وصدره، وبطنه، ويديه، وإبطيه، وساقيه، وفخذيه...

كما أفرد لصفاته المعنوية ٢٤ بابًا زادت صفحاتها على ١٢٠ صفحة، كالحديث عن حلمه وعفوه، وحيائه، ومداراته وصبره، وبرّه وشفقته ورحمته، وتواضعه، وشجاعته، وكرمه وجوده، وزهده وورعه، وهيبته ووقاره، ومزاحه ومداعبته، وضحكه وتبسمه...

وخصص خمسة أبوابٍ لطريقة النبي ﷺ في كلامه، وتحريك يده حين يتكلم، أو يتعجب، ونكته في الأرض بعود، وتشبيكه أصابعه وتسبيحه، وتحريكه رأسه، وعضّه لشفته، وضربه يده على فخذه عند التعجب.

كما خصص أبوابًا لطريقة جلوسه واتكائه ومشيه، وأبوابًا في ذكر مأكولاته ومشروباته، وطريقته في الأكل والشرب، وأبوابًا حول نومه ويقظته، وأبوابًا في سيرته ﷺ في لباسه وذكر ملبوساته، وأبوابًا حول بيته، وما فيه من أثاث وتجهيزات، وأبوابًا حول دوابه التي يمتطيها، والأنعام التي كان يقتنيها، إلى أبواب أخرى متعددة فيما يتصل بحياته الشخصية.

أما عن حياته الاجتماعية، ففي الكتاب عشرات الأبواب عن شؤونه العائلية، في ذكر زوجاته وأبنائه وبناته، وعن نسبه وأسرته وأقربائه، وعشرات الأبواب حول أصحابه.

والمساحة الأوسع في الكتاب، تشغلها مئات الأبواب عن سيرته في الدعوة، وتبليغ الرسالة، ومواجهة مكائد الأعداء والمناوئين، وإدارة المعارك والغزوات، ورسائله إلى الملوك، واستقباله الوفود، وقيادة الأمة، وإدارة المجتمع، في مختلف الجوانب السياسية والاقتصادية والقضائية.

هذا كتاب واحد من مئات - إن لم يكن آلاف - الكتب التي صنفت في السيرة النبوية، منذ بدأ التدوين في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، على يد محمد بن إسحاق المطّلبي (مدني توفي ١٥٠هـ-٧٦٨م) ثم استمرت مسيرة الكتابة والتدوين في السيرة النبوية دون انقطاع، بحيث لا يكاد يخلو عصر أو جيل في تاريخ الأمة من ظهور مدونات في السيرة النبوية، إلى عصرنا الحاضر، حيث يذكر الباحثون: أنّ ما صنّف في هذا العصر في سيرة النبي محمد ﷺ يفوق عددًا ما وضعه القدامى خلال قرون.

وما يلفت النظر أكثر، هو الإقبال الشديد في هذا العصر على ما يكتب عن النبي محمد ﷺ، فبعض هذه الكتب تنفد نسخ طبعتها خلال شهور من نشرها، وبعضها تكررت طباعتها أكثر من عشر مرات في سنوات معدودة.

إنّ على كلّ مسلم أن يهتم بالاطّلاع على سيرة رسول الله ﷺ، وأن يربّي أبناءه على محبة رسول الله ﷺ، والعشق لشخصيته العظيمة.

وإنّ أفضل ردٍّ على الإساءات لشخصية رسول الله ﷺ، من قبل بعض المتطرفين في الغرب، هو نشر سيرة رسول الله ﷺ ومكارم أخلاقه بلغة إنسانية عصرية، لمختلف شعوب العالم، عبر الوسائل المؤثرة، كالأفلام السينمائية، والأفلام الكارتونية الموجهة للأطفال، وعبر الروايات الأدبية، والكتابات الجذابة.

تواجهنا تحدّيات ومشاكل في قراءة السيرة النبوية لفرز الصحيح مما ورد فيها عن غير الصحيح، ولفهم أحداثها، وموارد تنزيلها على الواقع المعاصر، وهو ما نواجهه في قراءة مختلف جوانب الدين والتراث.

تحدّيات في قراءة السيرة النبوية

ظاهرة ثقافية بارزة لفتت نظر الباحثين والمتابعين في الاجتماع العربي والإسلامي الحديث، هي الإقبال الكثيف على كتب السيرة النبوية تأليفًا وانتشارًا.

فرغم أنّ الكتابة عن سيرة رسول الله ﷺ منذ بدأت في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، لم تتوقف في أيّ عصر وجيل من تاريخ الأمة، بل استمرّ العلماء والمؤرخون في كتابة السيرة النبوية، عصرًا بعد عصر وجيلًا بعد جيل، لتتشكل مكتبة واسعة حول السيرة النبوية في مجالاتها المختلفة.

إلّا أنّ هذا العصر الحديث شهد إقبالًا لافتًا على هذا الصعيد، يقول أحد الباحثين: طما سيل التآليف الحديثة في سيرة النبي، ولم يُقبل المؤلفون والقرّاء العرب على موضوع كما أقبلوا على سيرة الرسول الكريم، وخاصة منذ العقد الثالث من هذا القرن (القرن العشرين)، وقد بيّن الدارسون أنّ المؤلفات الحديثة عن

الرسول محمّد ﷺ فاقت ما أُلّف عنه خلال كلّ القرون الخالية، الثلاثة عشر قرنًا الهجرية السابقة[١].

ولم تقتصر الكتابة في السيرة النبوية في هذا العصر على المسلمين، فهناك كتّاب مسيحيون أصدروا عنها كتبًا وأبحاثًا.

ولم يَعدِ التأليف في السيرة النبوية منحصرًا بعلماء الدين والمؤرخين، كما في القرون الخالية، بل استجلب أقلامًا شتّى لأدباء كتوفيق الحكيم[٢]، وطه حسين[٣]، ولرجال سياسة كعبد العزيز الثعالبي[٤]، ومحمد حسين هيكل[٥]، وعسكريين كالضابط محمد فرج[٦]، واللواء العراقي محمود شيت خطاب[٧].

ومن دلائل الإقبال الشديد على كتب السيرة من قبل الناس، أن أعيد طبع بعضها مرات عديدة، إذ طبع كتاب (حياة محمد) لهيكل من أول طبعة عام ١٩٣٥م أكثر من خمس عشرة طبعة. وقد ذكر هيكل في مقدمة الطبعة الثانية: (نفدت طبعة هذا الكتاب الأولى بأسرع من كلّ ما قدّر لها، فقد صدر منها عشرة آلاف نسخة، نفد ثلثها بالاشتراك في الكتاب أثناء طبعه. ونفد سائرها خلال ثلاثة أشهر من صدوره، ... وموضوع الكتاب هو السبب الأول في الإقبال عليه لا ريب)[٨].

كما أكد الدكتور أحمد السعيد رئيس بيت الحكمة في الصين، أنّ كتاب حياة

---

(١) حسن بزاينيّة. كتابة السيرة النبوية لدى العرب المحدثين، الطبعة الأولى ٢٠١٤م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص٥١.

(٢) كاتب وأديب مصري (١٨٩٨م – ١٩٨٧)، له كتاب: محمد ﷺ: سيرة حوارية.

(٣) أديب وناقد مصري (١٨٨٩ – ١٩٧٣م) لُقّب بعميد الأدب العربي، له كتاب: على هامش السيرة.

(٤) زعيم تونسي سياسي وديني (١٨٧٤ م – ١٩٤٤م)، له كتاب: معجزات محمد رسول الله ﷺ.

(٥) أديبٌ وسياسي مصري (١٨٨٨ ـ ١٩٥٦)، له كتاب: حياة محمد ﷺ.

(٦) عقيد مصري له كتاب (الرسول المحارب ـ القاهرة، ١٩٥١م)، وكتاب (العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ـ القاهرة، ١٩٥٨م).

(٧) له عدة كتب، منها: الرسول القائد، تاريخ جيش النبي، دروس عسكرية في السيرة النبوية.

(٨) محمد حسين هيكل، حياة محمد، مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة، ١٣٥٨هـ، ط٣، ص ٢٥.

محمد، للدكتور محمد حسين هيكل الذي ترجم إلى الصينية طبع ٣٨ مرة بطبعات مختلفة[١].

وكذلك كتب الدكتور الشيخ محمد سعيد البوطي في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه (فقه السيرة) ما يلي: (وما كنت أتوقع يوم ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب، أن تنفد نسخها في هذه المدة اليسيرة، وأن تجد ما وجدته من الإقبال في مختلف البلاد العربية والإسلامية)[٢].

وقد توالت طبعات كتاب الشيخ البوطي حتى صدرت الطبعة الثالثة والأربعون من الكتاب عام ٢٠١٩م عن دار الفكر العربي ـ دمشق.

وقد طبعت سيرتا عباس محمود العقاد (عبقرية محمد ـ ١٩٤٣م) ومحمد أحمد جاد المولى (محمد المثل الكامل ـ ١٩٣١م) أكثر من عشر مرات.

وصنف الأديب اللبناني المسيحي لبيب الرياشي (ت: ١٩٦٦م) كتابه (نفسية الرسول العربي ـ ١٩٣٤م) فذكر في مقدمته أنّ نسخه نفدت بعد صدوره بأربعة أشهر. كما نفدت الطبعة الأولى من كتاب محمد عطية الإبراشي (عظمة الرسول ﷺ ـ ١٩٦٦م) بعد ثمانية أشهر مع ضخامة العدد في تلك الطبعة كما ذكر المؤلف[٣].

ظاهرة الإقبال على السيرة

ولا تفسير لهذا الإقبال الشديد من قبل أبناء الأمة على السيرة النبوية، إلّا نفوذ محبّة رسول الله ﷺ في نفوسهم، فالإيمان والحب العميق لرسول الله ﷺ، هو ما يبعث في نفس المسلم الشوق واللهفة للاطّلاع على أخبار حياة رسول الله ﷺ، والتعرف على ملامح شخصيته، وما يرتبط بآثاره وسيرته.

---

(١) جريدة الوفد، الأحد، ١٠ نوفمبر ٢٠١٩م.

(٢) محمد سعيد البوطي، فقه السيرة، الطبعة الثامنة ١٩٩٠م، دار المعارف المصرية، القاهرة، ص٨.

(٣) كتابة السيرة النبوية لدى العرب المحدثين، ص٥٣.

وهو أمر وجداني فطري، حيث ينجذب الإنسان إلى ذكر من يحبّه ويُعظّمه، ويحرص على الاحتفاظ بذكرياته وصوره وآثاره.

وإضافة إلى هذا البعد الوجداني العاطفي، هناك البعد التشريعي، فسيرة الرسول ﷺ وسنته مصدر من مصادر التشريع الإسلامي، وهناك البعد التربوي والأخلاقي؛ لأنّ قراءة سيرته تحفّز لاتباعه والاقتداء به، حيث أمر الله بذلك، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّـهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٢١].

لكنّ هناك أمرًا أساسًا قد يكون العنصر الأهم في تفسير هذه الظاهرة المعاصرة، وهو تحدّي الهوية والانتماء، حيث تواجه الأمة في هذا العصر، محاولات مسخ هويتها الدينية، وإضعاف انتمائها الحضاري، بتأكيد ثقتها بدينها، وتمسّكها بالولاء للنبي محمد ﷺ، وذلك مصداق لما امتنّ الله به على نبيّه ﷺ بقوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

التشكيك في السيرة النبوية

وتقوم بعض الجهات المناوئة للإسلام بالتشويش على هذه الظاهرة، بإثارة التشكيكات والتساؤلات حول مدى صحة ما ينقل من السيرة النبوية، ومستوى الثقة بمصادرها التاريخية، لكي تصرف أبناء الأمة عن الاهتمام بالسيرة النبوية؛ لأنّها - حسب قولهم - تحتوي على أساطير واختلاقات، وتتضارب رواياتها وأقوال مؤرخيها في كثير من أحداثها ووقائعها. وكان للأهواء السياسية والمذهبية دور في صناعة وتحريف أخبارها.

وقد طرح بعض المستشرقين هذه التشكيكات، وتفاعل معها وتبنّاها بعض من فقد الثقة بدينه وحضارته من المسلمين.

إنّ معالم شخصية رسول الله ﷺ والخطوط الرئيسة في سيرته قد حفظها القرآن الكريم ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ

حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت، الآيات: ٤١-٤٢].

لكنّ ما تناوله القرآن الكريم من السيرة النبوية، جاء في سياق منهجيته المميزة في عرض القضايا والوقائع التاريخية، بالتركيز على موقع العبرة والدرس، وتبيين الحكم والموقف، بما يحقق الهدف القرآني الأساس، وهو الهداية والتنوير.

أما ما نقله الرواة والمؤرخون من السيرة النبوية، فكأيّ حدث تاريخي يتعرض نقله للآفات المختلفة، كما قال الشريف الرضي:

وَهُمْ نَقَلُوا عَنِّي الَّذِي لَمْ أَفُهْ بِهِ وَمَا آفَةُ الأَخْبَارِ إِلّا رُوَاتُهَا

ونحن نجد كيف أنّ الأحداث المعاصرة، مع توفر وسائل التوثيق والإثبات، من تغطية إعلامية، وبث مباشر، وتقنيات دقيقة، إلّا أنّها أيضًا تتعرض للاختلاف والاختلاق والتحوير والتزوير.

لكنّ عقلاء البشر في كلّ المجتمعات، لا يصرفون النظر عن الأخبار والروايات التاريخية، ولا يسقطونها من الاعتبار، لوجود هذه الآفات والاحتمالات، بل يضعون معايير ومقاييس لفحص المرويات، ويقبلون منها ما يتمتع بدرجة من الثقة والاعتبار.

ولأنّ هذا التراث النبوي تم ضبطه وتناقله ونشره بجهد بشري، فمن الطبيعي أن تلحقه بعض الآفات، وأن تظهر فيه بعض الثغرات، ونقاط الضعف والخلل.

خاصة وأنّ مرحلة التدوين للحديث والسيرة النبوية، جاءت متأخرة زمانًا عن عهد رسول الله ﷺ، مما يعرّض النقل الشفهي والسماعي لآفة النسيان، واحتمالات الخطأ والاشتباه. إضافة إلى وجود دواعٍ سياسية ومصلحية للوضع والتزوير والتحريف، فيما ينقل من حديث رسول الله ﷺ ووقائع سيرته وحياته.

جهود تنقيح السيرة

لكنّ علماء الأمة بذلوا جهودًا مضنية لوضع معايير ومقاييس، وتنظيم قواعد وضوابط، لفحص هذا التراث الضخم، الذي يضمّ مئات الآلاف من الأحاديث

والروايات، والنصوص التاريخية المنقولة. وفرز ما يتمتع بمستوى الاعتبار والصحة، عمّا يتضح زيفه، أو يشك في اعتباره وصحته.

وما تزال هذه الجهود العلمية متواصلة مستمرة، في بحث وتحقيق التراث النبوي، ضمن مدارس المذاهب الإسلامية المختلفة في اجتهاداتها وتوجهاتها، التي تتفق على مرجعية السنة النبوية إلى جانب القرآن الكريم.

نقد التراث بين الموضوعية والمذهبية

بقي أن نشير إلى أنّ بعض الباحثين من المسلمين في السنة والسيرة النبوية، يحصر مجال نقده للمرويات في تراث المذاهب الإسلامية الأخرى غير مذهبه، ويغضّ الطرف عمّا يستحق النقد في تراثه المذهبي، وهنا يكون النقد والتمحيص في سياق الإدانة والاتهامات المتبادلة في الصراع المذهبي، أكثر من كونه لغرض إجلاء الحقائق، وخدمة المعرفة الدينية، فتراث كلّ المذاهب الإسلامية يعاني من حالات التحريف والوضع والاختلاق، وحريٌّ بكلّ باحث محقق أن يبدأ بتنقية تراث مذهبه، لكنّ عواطف الجمهور المذهبي تشكل عائقًا ضاغطًا على الباحثين، لا يتجاوزه إلّا القلة من المخلصين الشّجعان.

إذ حينما ينقد الباحث تراث المذهب الآخر يصبح بطلًا في نظر جمهور مذهبه، فهو ينافح عن العقيدة، ويفضح الباطل، أما إذا انتقد تراث مذهبه، فقد يرونه ضالًّا منحرفًا وقع تحت تأثير الآخرين وإغراءاتهم.

السيرة في موقع الاطمئنان والثقة

ويمكن القول بثقة: إنّ بين أيدينا معلومات وافرة عن حياة رسول الله ﷺ، يمكن الاطمئنان إليها، لوجود قرائن وشواهد على اعتبارها وصدقها، ولأنّها تتوافق مع الملامح والخطوط العامة التي ذكرها القرآن الكريم حول النبي ﷺ.

يقول أحد العلماء الباحثين، ممن صرف وقتًا وجهدًا كبيرًا في تنقيح السيرة

النبوية، حسب مبانيه ومرئياته، وهو العلامة السيد جعفر مرتضى العاملي[١]، حيث ألف موسوعة تتكون من (٣٥) مجلدًا بعنوان (الصحيح من سيرة النبي الأعظم) وخصص المجلد الأول منها لبحث توجهات وأغراض التحريف والاختلاق في مرويات السيرة النبوية، إلّا أنه توّج ذلك البحث بقوله: نقول ما تقدم بالرغم من أننا قد قلنا آنفًا: إننا على قناعة من أنّ تاريخ الإسلام المدوّن - على ما فيه من هنات ونقص- أغنى تاريخ مكتوب لأية أمة من الأمم، وهو يمتاز عن كلّ ما عداه بدقته وشموله، حتى إنك لتجده كثيرًا ما يسجل لك الحركات، واللفتات، واللمحات، فضلًا عن الكلمات والمواقف والحوادث، بدقة متناهية واستيعاب لا نظير له.

أضف إلى ذلك: أنه يملك من الآيات القرآنية، ثم من النصوص الصحيحة والصريحة الشيء الكثير، مما لا تجده في أيّ تاريخ آخر على الإطلاق.

هذا إن لم نقل إنّ هذا الأمر من مختصات تاريخ الإسلام، إذا تأكدنا أنه ليس بإمكان أيّ تاريخ أن يثبت من مقولاته إلّا النزر اليسير، ولا سيّما في جزئيات الأمور، وفي التفاصيل والخصوصيات.

وميزة أخرى يمتاز بها تاريخ الإسلام، وهي أنه يمتلك قواعد ومنطلقات تستطيع أن توفر للباحث السبل المأمونة، التي يستطيع من خلال سلوكها أن يصل إلى الحقائق التي يريدها، دقت، أو جلّت[٢].

والمطلوب من المسلم إن كان يمتلك أدوات البحث والتحقيق، وأراد أن يتأكد من مرويات السيرة النبوية، أن يبذل جهده للوصول إلى الحدّ الممكن مما يطمئنّ إليه ويثق به، على ضوء ما أثبته القرآن الكريم من ملامح شخصية رسول الله ﷺ، ومعالم سيرته، وعلى ضوء معايير النقل التاريخي التي يعتمدها العقلاء.

---

(١) عالم دين لبناني (١٩٤٥ ـ ٢٠١٩م).

(٢) السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، الطبعة الخامسة ١٤٢٧هـ، المركز الإسلامي للدراسات، بيروت، المقدمة، ج١، ص١٢-١٣.

أما المسلم العادي فبإمكانه الاطمئنان إلى ما كتبه العلماء الذين يثق بخبرتهم وكفاءتهم، حيث قاموا بالبحث والتحقيق، واستفادوا من تراكم التجارب في كتابة السيرة النبوية.

نماذج عصرية

ويمكننا الإشارة هنا إلى بعض النماذج المعاصرة في كتابة السيرة النبوية، فمن كتابات علماء الشيعة نذكر كتاب (سيرة المصطفى نظرة جديدة) للسيد هاشم معروف الحسني[١]، وكتاب (لأول مرة في تاريخ العالم) للمرجع الراحل السيد محمد الشيرازي[٢]، وكتاب (السيرة المحمدية) للمرجع الشيخ جعفر السبحاني[٣].

ومن كتابات علماء السنة نذكر كتاب (فقه السيرة) للشيخ محمد الغزالي[٤]، وكتاب (فقه السيرة) للشيخ محمد سعيد البوطي[٥]، وكتاب (السيرة النبوية) للشيخ أبي الحسن الندوي[٦].

هذه نماذج ـ لا على سبيل الحصر ـ لكتابات تقدّم صورة إجمالية عن السيرة النبوية بلغة معاصرة، أما تفاصيل السيرة النبوية، فهناك مصادر وموسوعات كثيرة.

ونؤكد أخيرًا على ضرورة اهتمام كلّ مسلم بقراءة السيرة النبوية، وعلى استحضار سيرة رسول الله ﷺ في نفوسنا وأجواء ثقافتنا العامة.

---

(١) عالم وباحث لبناني (١٩١٩ـ ١٩٨٤م).
(٢) مرجع ديني (١٩٢٨ - ٢٠٠١م).
(٣) مرجع ديني معاصر، ولد ١٣٤٧هـ. وله كتاب آخر بعنوان: سيرة سيّد المرسلين، صدر في مجلدين.
(٤) عالم دين مصري (١٩١٧م - ١٩٩٦م).
(٥) عالم دين سوري (١٩٢٩ - ٢٠١٣م).
(٦) عالم دين هندي (١٩١٤م ـ ١٩٩٩م).

نهج المحبّة في القيادة النبوية

الإدارة والقيادة الاجتماعية هي من أهم وأرقى الأنشطة الإنسانية في أيّ مجتمع.

وللقيادة دوائر ومساحات متفاوتة، بدءًا من قيادة العائلة والمؤسسة والجماعة، إلى قيادة المجتمع والدولة والأمة.

وهذا ما يشير إليه الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ: «كُلُّكُمْ راعٍ فَمَسْؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ، فالأمِيرُ الذي علَى النَّاسِ راعٍ وهو مَسْؤولٌ عنْهمْ، والرَّجُلُ راعٍ علَى أهْلِ بَيْتِهِ وهو مَسْؤولٌ عنْهمْ، والمَرْأَةُ راعِيَةٌ علَى بَيْتِ بَعْلِها ووَلَدِهِ وهي مَسْؤولَةٌ عنْهمْ، والعَبْدُ راعٍ علَى مالِ سَيِّدِهِ وهو مَسْؤولٌ عنْه، ألا فَكُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ»[1].

وهناك مدارس ونظريات مختلفة في مناهج وأساليب

(١) صحيح البخاري، حديث ٢٥٥٤.

القيادة، ومنها: نظرية التمكين، أي تفويض الصلاحيات الواسعة للمدير، ليضبط سير المؤسسة التي يقودها بقوة موقعه ومنصبه.

وقد يبالغ بعض القادة والإداريين في استخدام صلاحيات وقوة منصبه، ليصل إلى حدّ ممارسة التسلّط والقهر في دائرة نفوذه.

وبعضهم يحصر علاقته بالعاملين والمتعاملين معه في حدود نظام وقانون إدارة العمل، دون أيّ اهتمام بأبعاد أخرى في العلاقات الإنسانية.

القيادة بالحب

ومن النظريات المثيرة في الفكر الإداري المعاصر، منهج أطلق عليه (القيادة والإدارة بالحب) وقد ظهر هذا المنهج واتسعت ممارسته في كثير من منظمات الأعمال العالمية منذ عام ١٩٩٨م.

الإدارة بالحب ليست مجرّد كلمة نرجسية، وإنما هو أسلوب معترف به أكاديميًّا في الإدارة الحديثة، يرتكز على إشاعة المحبّة بين القائد والعاملين معه، للارتقاء بمستوى الأداء وتنفيذ المهام، وتحقيق الأهداف.

إنها تركز على أهمية تعزيز الأبعاد الاجتماعية، والقيم الثقافية للمؤسسات، من أجل صيانة رأس المال الاجتماعي، وتنمية الموارد البشرية، بالاهتمام بالعواطف والأحاسيس والمشاعر، والارتقاء بالذكاء العاطفي للعاملين.

والقيادة بالحبّ تعني وجود لغة تخاطب وتفاعل بين القلوب، تصنع محبّة متبادلة بين القائد والأتباع، حيث يبذل القائد حبّه واهتمامه بمشاعرهم ومصالحهم، ولا يتعامل معهم كأدوات آلية تنفيذية، وفي المقابل يستجيب الأتباع لقائدهم برغبة واندفاع، وطواعية وانقياد، لثقتهم فيه ولانجذاب نفوسهم إليه، وتأثير محبّتهم له.

وتتحدّث هذه النظرية عن خمسة أركان للحبّ يجب أن يستوعبها من يتحمّل القيادة الإدارية:

- حبّ العاملين، باحترامهم وتقديرهم ومساعدتهم ورعايتهم وتنمية قدراتهم.
- حبّ المؤسسة، بالإخلاص لأهدافها، والاهتمام بنجاحها، وبذل أقصى جهد للارتقاء بها.
- حبّ المستفيدين من المؤسسة، بتقديم أفضل مستوى من الخدمة لهم، وأخذ آرائهم وشكاواهم بعين الاهتمام والاعتبار.
- حبّ المجتمع المحيط بالمؤسسة، ليكون حاضنًا لها، وبيئة لامتدادها، حيث ينعكس تقدّم المجتمع وقوته على واقع المؤسسة.
- حبّ القائد لنفسه. بأن يهتم برفع مستوى كفاءته، ويتطلّع للمزيد من التقدّم في أدائه وعطائه، ويحرص على تعزيز ثقة الآخرين به.

ومهندسة هذه النظرية كاتبة أمريكية سلوكية مبدعة، هي الدكتورة كاثلين سانفورد، مديرة محترفة واستشارية وأستاذة جامعية، انصبّت أبحاثها على مهارات القيادة، واختيرت كأفضل مديرة أمريكية مرتين، عام ١٩٩٤، و١٩٩٦م، كما شغلت رئاسة المنظّمة الأمريكية للممرضين الأمريكيين عام ٢٠٠٦م.

عرضت هذه النظرية في كتاب صدر لها عام ١٩٩٨م بعنوان (الإدارة بالحبّ كيف تفوز المنظّمات بالحنان والقيادة بالفطرة؟)، حيث تؤكد الكاتبة أنّ فشل النظريات الإدارية الحديثة وتطبيقاتها، لا يعود إلى فشل مناهجها وعدم مصداقيتها، بل يعود إلى افتقارها للقيادة بالحبّ، وافتقارها للفطرة والحنان.

وترى أنّ القيادة الحقيقية تشبه الأمومة؛ لأنها لا تخلو من المرارة والألم، لكنّ نبل الرسالة، وعظمة النتائج، يدفعان الأم إلى مزيد من التضحية وإنكار الذات، فمن غير الأم يكرّر الحمل مرات ومرات رغم فشله أحيانًا، ورغم مخاض الولادة وعنائها.

كما أنّ عطاء الأمومة لا ينتظر مقابلًا، فكلّ ما تريده الأم هو إعداد أبنائها للنجاح، وإن فاتهم تقدير دورها، فحبّ الأم غير مشروط، وعطاؤها غير محدود.

القيادة النبوية

حين نقرأ سيرة نبينا محمد ﷺ، ونتأمل طريقة تعامله مع أصحابه ومجتمعه، ومن حوله من الناس، نجدها أروع أنموذج إنساني، وأصدق تجربة قيادية ناجحة في التاريخ، اعتمدت نهج المحبّة والصدق والإخلاص.

يقول أحد الباحثين: تضاءل مفهوم الحبّ قبل النبي ﷺ حتى كاد ينحصر في الغراميات، وشعر الغزل، وجاء النبي ﷺ ليحوّل مفهوم الحبّ إلى فنٍّ من فنون القيادة، أعطاه لكلّ من حوله حتى يظنّ الواحد منهم أنه أحبّ الناس إليه.

أعطى الحبّ للفقير حتى اغتنى به، وأعطاه للغني حتى زهد في ماله، وأعطاه للطفل وللشاب الكبير، فكان للصغار أبًا رحيمًا، وللكبار أخًا كريمًا، وللمرأة خصوصًا قريبًا حميمًا رؤوفًا[1].

إنّ القرآن الكريم يسجل لنا صورًا ومشاهد من حبّ النبي ﷺ العميق الصادق لمجتمعه.

حيث كان يحبّ الهداية والخير والمصلحة لقومه بدرجة عالية، ويكاد أن يهلك نفسه خوفًا وشفقة عليهم من الضّلال والضّياع، حتى تعرّض للعتاب الإلهي، يقول تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية٣]، وبخع نفسه في اللغة: قتلها غيظًا وغمًا.

وتكرّر هذا العتاب من الله له أكثر من مرة، يقول تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [سورة الكهف، الآية ٦].

ويقول تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [سورة فاطر، الآية ٨].

---

(١) نبيل عبدالمجيد النشمي، (فنّ القيادة بالحبّ)، مجلة البيان، عدد ٣٠٣، ذو القعدة ١٤٣٣هـ سبتمبر - أكتوبر ٢٠١٢م.

ويصفه تعالى بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة، الآية ١٢٨].

إنه رسول من جنسكم البشري، ومن عمق مجتمعكم الإنساني، عزيز عليه: أي صعب وثقيل وشديد عليه، ما عنتم: أي ما يصيبكم من أذًى وتعب ومكروه، إنه يتألم لأيّ تعبٍ أو أذًى يصيبكم، حريص عليكم كحرص الأم على أولادها، حيث تسعى لإبعادهم عن كلّ مكروه، والحرص في اللغة بمعنى: القوة وشدّة العلاقة بالشيء، فهو شديد الاهتمام بكم وبمصلحتكم وسعادتكم. وهو بأتباعه المؤمنين رؤوف رحيم.

وهناك بحث بين المفسّرين في الفرق بين «الرؤوف» و «الرحيم»، إلّا أنّ الذي يبدو أنّ أفضل تفسير لهما هو أنّ الرؤوف إشارة إلى محبّة خاصّة في حقّ المطيعين، في حين أنّ الرحيم إشارة إلى الرحمة تجاه العاصين، إلّا أنّه يجب ألّا يُغفل عن أنّ هاتين الكلمتين عند ما تفصلان يمكن أن تستعملا في معنًى واحد، أمّا إذا اجتمعتا فتعطيان معنى مختلفًا أحيانًا[1].

ويلاحظ أنهما صفتان وصف الله تعالى بهما نفسه تجاه عباده فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ولم يأتِ مثل هذا الوصف في القرآن لأحد إلّا النبي ﷺ.

وكان التوجيه الإلهي يحفّز النبي ﷺ لالتزام هذا النهج المتميّز في القيادة بصدق ومحبّة، يقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩].

ويقول تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الحجر، الآية: ٨٨].

إنّ هذا التعبير كناية جميلة عن التواضع والمحبّة واللطف، فالطيور حينما تريد

(١) تفسير الأمثل، ج٦، ص٢٦٣.

إظهار حنانها لفراخها تجعلها تحت أجنحتها بعد خفضها، لتشعرهم بالحماية والأمن.

شهادات ومشاهد

ورد عن الامام علي عليه السلام: «كان حبيبي محمد صلى الله عليه وآله أرحم الناس بالناس، كان لليتيم كالأب الرحيم، وللأرملة كالزوج الكريم»[١].

وعنه عليه السلام: «كَانَ أَشْفَقَ النَّاسِ عَلَى النَّاسِ وَأَرْأَفَ النَّاسِ بِالنَّاسِ»[٢].

وعن أنس: «كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله من أشدِّ النَّاسِ لُطفًا بالنَّاسِ»[٣].

في واقعة أحد لما كسرت رباعيته أو شج وجهه، شقّ ذلك على أصحابه، وقالوا: لو دعوت عليهم. فقال: «إنّي لم أبعث لعّانًا، ولكنّي بعثت داعيًا ورحمة، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». وفي رواية (أهدِ قومي)[٤].

وجاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله كَانَ لَا يَسْأَلُهُ أَحَدٌ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ ابْنًا لَهَا فَقَالَتِ: انْطَلِقْ إِلَيْهِ فَاسْأَلْهُ، فَإِنْ قَالَ لَكَ لَيْسَ عِنْدَنَا شَيْءٌ فَقُلْ: أَعْطِنِي قَمِيصَكَ، قَالَ فَأَخَذَ قَمِيصَهُ فَرَمَى بِهِ إِلَيْهِ، وَفِي نُسْخَةٍ أُخْرَى فَأَعْطَاهُ»[٥].

وعن أنس: «كان النبي قلّما يواجه رجلًا في وجهه بشيءٍ يكرهه»[٦].

وعن ابن مسعود: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «لَا يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ مِنْ

---

(١) كنز العمال، حديث ٣٥٤٦٤.
(٢) الخصال، ص٥٥٩.
(٣) حلية الأولياء: ج٣، ص٢٦.
(٤) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، طبعة ١٤٢٣هـ، دار الحديث ، القاهرة ج٢، ص٥٥٣.
(٥) الكافي، ج٤، ص٥٥، حديث٧.
(٦) أبو داوود، حديث ٤١٨٢.

أَصْحَابِي شَيْئًا؛ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ»[١].

وعن أنس: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة، حتى نظرت إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قد أثّرت به حاشية الرداء من شدّة جذبته، ثم قال: مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ[٢].

وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ، قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: «هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ»[٣].

وعن أبي هريرة قال: قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا معسرين»[٤].

هكذا كان رسول الله ﷺ يمارس قيادته بروح أبوية، تفيض حبًّا وحنانًا على من حوله، لذلك انغرست محبّته في قلوبهم.

فقد ورد عن أنس: لَمْ يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ[٥].

ويقول صفوان بن أميّة، وكان من أشدّ المناوئين لرسول الله ﷺ: «وَاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى أَنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ»[٦].

---

(١) سنن الترمذي حديث ٣٨٩٦.
(٢) صحيح البخاري، حديث ٢٩٨٠.
(٣) سنن ابن ماجة، حديث ٣٣١٢.
(٤) صحيح البخاري، حديث ٢١٧.
(٥) سنن الترمذي حديث ٢٧٥٤.
(٦) صحيح مسلم، حديث ٢٣١٣.

التأسّي بنهج النبي

حين نستحضر هذه الصور والمشاهد من نهج رسول الله ﷺ في قيادة المجتمع بالمحبّة، علينا أن نتأسّى بهذا النهج في إدارتنا لعوائلنا وأسرنا، وقيادتنا للمؤسسات والمنظّمات والجمعيات، وفي تعامل العلماء والدّعاة مع أبناء المجتمع، وفي قيادة أجهزة الدولة. وذلك استجابة لقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٢١].

وإنه لمن المؤسف أن تقدّم بعض الجهات المتطرّفة التي تدّعي الانتساب للإسلام صورة مباينة مناقضة لهذه السيرة النبوية المشرقة، فترسم للدين صورة مشوهة، تفسح المجال أمام المغرضين والحاقدين لتعبئة الرأي العام ضدّ الإسلام، والإساءة لشخصية النبي العظيم محمد ﷺ.

وقد أصدرت إحدى الجهات الإرهابية نظرية نسبتها للإسلام بعنوان (إدارة التوحش) والإسلام منها براء.

إنها على الضدّ والنقيض من نهج رسول الله ﷺ، وسيرته وهديه.

الفصل الثاني

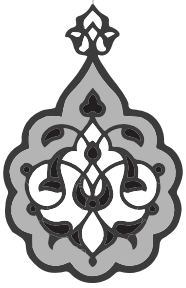

المثل الأخلاقي الأعلى

النبي وطبيعته البشرية

تؤكد عدة آيات في القرآن الكريم على الطبيعة البشرية للأنبياء والرسل، فهم من جنس البشر، لا من جنس آخر، والرسول مثل أيّ فرد من البشر من حيث طبيعة خلقته، وتركيبة جسمه، وقوى إدراكاته، ووجود الغرائز والمشاعر في نفسه، ومحدودية قدراته البشرية، وطروء الأعراض والأمراض عليه، ومآله إلى الموت والرحيل عن هذه الدنيا، كما يخاطب الله نبيّه محمدًا ﷺ بقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾.

والفارق الأساس والميزة الجوهر للرسول ﷺ هو تلقّيه الوحي من الله تعالى، وتأهيله لاستقبال هذا الوحي، وتبليغه للناس.

وهذا التأهيل للنبي من قبل الله تعالى، لا يخرجه من طبيعته البشرية.

ومن الآيات التي تقرّر هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ

رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّـهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ١١].

فالله تعالى يختار من بين خلقه من يَمُنُّ عليه بمؤهلات النبوة والرسالة.

ويقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [سورة الكهف: ١١، سورة فصلت: ٦].

ويهدف هذا التأكيد على الطبيعة البشرية للرسول إلى معالجة القضايا التالية:

القضية الأولى: الردّ على التصورات التبريرية للمكذبين، حيث برروا رفضهم التصديق بالرسالة، بالادّعاء أنّ الرسول من قبل الله يفترض أن يكون من جنسٍ فوق البشر كالملائكة، أما من يكون بشرًا مثلنا، يعيش محدوديتنا البشرية، ويخضع لاحتياجاتنا الطبيعية، فكيف يكون رسولًا من الله إلينا؟!

وما ميزته علينا حتى يختاره الله، ويريد منّا الخضوع له؟!

يقول تعالى عن قوم نبي الله نوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَـٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّـهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٢٤].

ويقول تعالى عن قوم نبي الله هود عليه السلام: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَـٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٣٣- ٣٤].

ويقول تعالى عن مشركي مكة: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٧].

ويرد القرآن على هذه التصورات والتبريرات، مؤكدًا على بشرية الأنبياء والرسل:

أولًا: لأنّ المسألة هي باختيار الله تعالى، فهو يختار من يشاء لرسالته.

يقول تعالى: ﴿اللَّـهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٢٤].

ويقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّـهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة القصص، الآية: ٦٨].

ويتمادى المشركون في طرح تصوراتهم التبريرية، بأنهم لو قبلوا بكون الرسول من البشر، فإنهم هم الذين يختارون شخصه ضمن مقاييسهم، بأن يكون من زعماء إحدى القبيلتين المهمتين في مكة والطائف، فيردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [سورة الزخرف، الآية: ٣١- ٣٢].

ثانيًا: إنّ مهمة الرسول إلى جانب تبليغ الرسالة هي تقديم النموذج التطبيقي للرسالة بسلوكه وسيرته، فيكون قدوة للناس، يقتدون ويتأسون به، وهذا يقتضي أن يكون من جنسهم، أما إذا كان من جنس آخر كالملائكة، فإنّ الناس لا يرون أنفسهم قادرين على التأسّي به؛ لأنه من عالم آخر، وطبيعة مختلفة، ولو كان في الأرض مجتمع ملائكي لبعث الله لهم رسولًا مَلكًا من جنسهم.

يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّـهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٩٤-٩٥].

ونشير هنا إلى أنّ إبراز البعد البشري في شخصية النبي والإمام أمر مطلوب، لتحفيز الناس على الاقتداء والتأسّي به؛ لأنّ تغييب هذا البعد، وتضخيم صورة فوق البشري للنبي والإمام، وكأنّ حياته وشخصيته كتلة من المعاجز والقضايا الغيبية، ففي حمل أمه به معجزة، وفي ولادته، ورضاعه، ونشأته، وفي كلّ عضو من أعضاء جسمه، وفي تعامله مع الآخرين، ومواجهته لأعدائه، وحتى في وفاته وتجهيزه، تتواصل مسيرة المعاجز، فكيف يتفق هذا مع مقولة ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؟ بالإضافة إلى ذلك فإنّ هذا التصوير الإعجازي فوق البشري للنبي والإمام، يصنع حاجزًا يضعف الحافز

للاقتداء به. فهو ليس مثلنا، بل مختلف عنّا.

لذلك نجد نهج القرآن الكريم في الحديث عن الأنبياء والرسل، يوازن بين تبيين فضلهم ومكانتهم عند الله، وبين تسليط الأضواء على حالاتهم البشرية، وهذا ما ينبغي أن ننتبه إليه في خطابنا الديني الدعوي، فصدور المعجزات والكرامات من الأنبياء والأئمة أمر لا ينكر، ولكن لا يمكن القبول بكلّ ما روي وورد في التراث دون تحقيق وتدقيق، خصوصًا مع ثبوت الوضع والتزوير في بعض المرويات، من قبل الغلاة وسائر الوضّاعين المغرضين.

القضية الثانية: الوقوف أمام حالات الغلو في الأنبياء والرسل:

فقد يندفع بعض الناس انبهارًا منهم بعظمة الرسول، وسموّ شأنه، وعلوّ فضله، وظهور المعجزات على يده، فيعتقدون ألوهيته، أو يمنحونه بعض صفات الربّ سبحانه وتعالى، أو يدّعون أنه جزء من الذات الإلهية، كالقول إنه ابن الله.

وهذا ما وقع فيه بعض النصارى الذين ألّهوا المسيح عيسى بن مريم، فردّ الله تعالى عليهم، بأنّ المسيح بشر محدود القدرة، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الضرر والخطر، يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّـهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّـهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [سورة المائدة، الآية: ١٧].

وبعض اليهود زعموا أنّ عزيرًا ابن الله، كما زعم بعض النصارى أنّ عيسى بن مريم ابن الله، يقول تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّـهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّـهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣٠].

وهنا يأتي القرآن ليؤكد على بشرية النبي، وعبوديته لله، وأنه لا يملك لنفسه شيئًا من دون الله.

يقول تعالى عن نبيّه محمد ﷺ: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ

اللَّـهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٨٨].

ومع صراحة هذه الآيات القرآنية ووضوحها، إلّا أنّ بعض المسلمين وقعوا في الغلوّ في رسول الله ﷺ وفي الأئمة، وقد حذّر النبي ﷺ من الغلوّ فيه، كما حذّر الأئمة كذلك.

ورد عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام عَنْ آبَائِهِ عليهم السلام قَالَ: قَالَ: «رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ: لاَ تَرْفَعُونِي فَوْقَ حَقِّي فَإِنَّ اَللَّهَ تَعَالَى اِتَّخَذَنِي عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَنِي نَبِيًّا»(١).

وعنه عليه السلام قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اَللَّهِ ﷺ فَقَالَ اَلسَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَبِّي، فَقَالَ ﷺ: «مَا لَكَ لَعَنَكَ اَللَّهُ! رَبِّي وَرَبُّكَ اَللَّهُ»(٢).

وجاء عن علي عليه السلام: «هَلَكَ فِيَّ رَجُلاَنِ: مُحِبٌّ غَالٍ وَمُبْغِضٌ قَالٍ»(٣).

إنّ بعض الخطاب الديني يقع في المحذور، فيوحي إلى الناس بأفكار الغلوّ في النبي والأئمة بذكر روايات غير معتبرة السند، وأحداث وقصص من مصادر غير معتمدة، وهذا مخالف لنهج القرآن، في التأكيد على خلوص التوحيد لله سبحانه وتعالى، ورفض الغلوّ في الأنبياء والأئمة، الذي هو من ظواهر الشرك بالله تعالى.

القضية الثالثة: مواجهة التوقعات الغيبية من الرسول.

انطلاقًا من الإيمان بمكانة النبي ﷺ عند الله، وأنه خير خلقه وأحبّهم إليه، قد يتوقع البعض أنّ النبي يمارس تدخلًا مفتوحًا في شؤون الكون والحياة، خاصة حينما يرون حدوث بعض المعجزات والكرامات على يده.

إلّا أنّ هذه الآيات الكريمة وأمثالها، التي تؤكد على الطبيعة البشرية للنبي، تنبّه

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٢٥، ص٢٦٥، حديث٥.

(٢) محمد بن الحسن الطوسي، رجال الكشي، طبعة ١٤٠٩هـ، مؤسسه نشر دانشگاه، مشهد، ترجمة ٥٣٤ .

(٣) نهج البلاغة: حكمة، ٤٦١.

إلى أنّ الله تعالى أراد لرسله أن يمارسوا حياتهم ووظيفتهم الرسالية، ضمن قوانين الكون وأنظمة الحياة، أما المعجزات والكرامات، فهي استثناءات تتم بإذن الله وإرادته، لإثبات صدق النبي، بمقدار الحاجة ومصلحة الرسالة التي يقدّرها الله تعالى، وليست سمة حياة النبي، ولا أسلوبه الدائم في أداء وظيفته.

فهو بشر يعيش محدودية القدرة البشرية، إلّا فيما يأذن الله تعالى له من تصرفات إعجازية.

وبهذا أجاب النبي ﷺ على الطلبات التهكمية للمشركين، يقول تعالى:

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّـهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٩٠- ٩٣].

إنّ التأكيد على بشرية الرسول ﷺ تهدف إلى وضع حدٍّ لهذه التوقعات في وسط المؤمنين أيضًا، فالرسول بشر يخضع لسنن الحياة وأنظمة الكون، ويواجه المشكلات والتحدّيات بالوسائل المتاحة لأبناء البشر، لا بالتدخل الغيبي، إلّا في حالات محدودة يشاؤها الله تعالى.

فقد وقع عليه الإيذاء من قومه، وأصابته وجيشه الهزيمة في أحد، وأصيب جسمه ببعض الجراحات. وهكذا سائر الأنبياء والأئمة، الذين قتل بعضهم، وسجن بعضهم، وعُذِّب بعضهم.

إنّ النبي أو الإمام حينما يصيبه المرض، يتعامل معه كما يتعامل سائر البشر، بطلب العلاج ومراجعة المتخصصين.

فحين أصيب الإمام علي عليه السلام بضربة ابن ملجم (جُمِعَ لَهُ أطِبّاءُ الكوفَةِ)[١].

والنبي صلى الله عليه وآله كان يأمر أصحابه بمراجعة الأطباء، جاء عَنْ هِلَالِ بْنِ يَسَافٍ، قَالَ: جُرِحَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله فَقَالَ: ادْعُوا لَهُ الطَّبِيبَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ يُغْنِي عَنْهُ الطَّبِيبُ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ مَعَهُ شِفَاءً»[٢].

وعن جابر: إنَّ رَسولَ اللّهِ صلى الله عليه وآله عادَ مَريضًا وأنَا مَعَهُ، فَقالَ: «ألا نَدعو لَكَ طَبيبًا؟»

قالَ: وأنتَ تَأمُرُ بِهذا يا رَسولَ اللّهِ؟!

قالَ: «نَعَم، إنَّ اللّهَ لَم يُنزِل داءً إلّا وقَد أنزَلَ لَهُ دَواءً»[٣].

هكذا حين يهتم الرسول صلى الله عليه وآله بصحة هذا الصحابي، فإنه يأمره بمراجعة الطبيب، ولا يحيله إلى التدخل الغيبي، بأن يمسح بيده على جسمه، أو يقرأ له على ماء ليشربه.

بينما نجد من يحاول استغلال عواطف الناس، ومحبتهم للنبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام، بإثارة التوقعات الغيبية في نفوس الناس، على حساب الأخذ بالوسائل الطبيعية المتاحة، إنّ الدعاء والتوسّل بالنبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام أمر مطلوب، ليس كبديل عن الوسائل الطبيعية، بل معها وإلى جانبها.

فيأخذ الإنسان بالاحترازات وأساليب الحماية، تجاه أيّ خطر وتهديد، ويتحرك لمواجهته بأقصى ما يستطيع، ويدعو ويتوسّل لكي يتحقق له الخلاص من المرض والخطر، فإن لم يتحقق ذلك سلّم لقضاء الله وقدره، ووثق بإرادته ومشيئته.

---

(١) أبو الفرج الأصبهاني، مقاتل الطالبيّين، طبعة ١٣٨٥هـ، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، قم، ص٢٣.

(٢) عبد الله بن محمد بن إبراهيم (ابن أبي شيبة)، المصنّف، كِتَابُ الطِّبِّ، مَنْ رَخَّصَ فِي الدَّوَاءِ وَالطِّبِّ، حديث ٢٤٩٥٨.

(٣) أحمد بن علي بن ثابت (الخطيب البغدادي)، تاريخ بغداد، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج١٦، ص٥٠٦.

الصادق الأمين

حين يكون في يد الإنسان مال للغير، فإنه لحبّه للمال، ورغبته في حيازة المزيد منه، قد يستولي على مال الغير الذي في يده، حتى وإن لم يكن محتاجًا لذلك المال.

لكنّ فطرة الإنسان النقية، والضمير الذي أودعه الله في أعماق نفسه، يرفض هذا التصرف، ويعتبره خيانة وظلمًا. فكما لا يرضى الإنسان أن يخونه الآخرون في ماله، كذلك لا يسمح ضميره ووجدانه بممارسته الخيانة في أموال الآخرين.

وهذا المبدأ الفطري الإنساني يطلق عليه الأمانة، وهي ضدّ الخيانة، مصدر من مادة (أَ مَ نَ) التي تدلّ على سكون القلب واطمئنانه وزوال الخوف. وتطلق صفة الأمين على الشخص الذي يشعر القلب بالاطمئنان عند إيداعه شيئًا، كما تطلق الأمانة على الشيء المودَع أيضًا.

وقد تبنّت الشرائع الإلهية هذا المبدأ الفطري.

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ»(١).

إنّ صفة الأمانة تكشف عن انحياز الإنسان لفطرته وضميره، وتحكّمه في رغباته، كما تدلّ على احترامه لحقوق الآخرين وأموالهم، والتزامه بتشريعات الدين.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾[سورة النساء، الآية: ٥٨]، ومن أبرز صفات المؤمنين المفلحين رعايتهم للأمانة، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[سورة المؤمنون، الآية: ٨. سورة المعارج، الآية: ٣٢].

وقد أكّد رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ الأمانة مقوّم أساس للدين والتديّن، حيث ورد عنه صلى الله عليه وآله: «لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ»(٢).

وفي حديث آخر ورد عنه صلى الله عليه وآله يعتبر أنّ مقياس التديّن ومعياره هو التزام الأمانة، وليس أداء العبادات فقط. فقد جاء عن الإمام محمد الجواد عليه السلام عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تَنْظروا إلى كَثرَةِ صَلاتِهِم وصَومِهِم، وكَثرَةِ الحَجِّ، والمعروفِ، وَطَنطَنَتِهِم باللّيلِ! ولكنِ انْظُروا إلى صِدقِ الحديثِ وأداءِ الأمانةِ»(٣).

وورد عنه صلى الله عليه وآله: «الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ»(٤).

وليس هناك استثناء في مجال حفظ أمانات الناس، وردّها إليهم، مهما اختلفت أديانهم وتوجهاتهم، وهذا ما يؤكده النبي صلى الله عليه وآله في السّاعة الأخيرة من حياته، جاء عن علي عليه السلام: «أُقْسِمُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اَللَّهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ لِي قَبْلَ وَفَاتِهِ بِسَاعَةٍ مِرَارًا ثَلاَثًا: يَا أَبَا اَلْحَسَنِ، أَدِّ اَلْأَمَانَةَ إِلَى اَلْبَرِّ وَاَلْفَاجِرِ، فِيمَا جَلَّ وَقَلَّ، حَتَّى اَلْخَيْطِ وَاَلْمِخْيَطِ»(٥).

---

(١) الكافي، ج ٢، ص ١٠٤، حديث ١.
(٢) محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الترغيب، حديث٣٠٠٤.
(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٥١، حديث١٩٧.
(٤) سنن ابن ماجة، باب حرمة دم المؤمن وماله، حديث٣٩٣٢.
(٥) تحف العقول، ج١، ص١٧١.

وورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «اِتَّقُوا اَللَّهَ وَعَلَيْكُمْ بِأَدَاءِ اَلْأَمَانَةِ إِلَى مَنِ اِئْتَمَنَكُمْ وَلَوْ أَنَّ قَاتِلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام اِئْتَمَنَنِي عَلَى أَمَانَةٍ لَأَدَّيْتُهَا إِلَيْهِ»[١].

سمة مميّزة

وكانت الأمانة سمة مميّزة لرسول الله صلى الله عليه وآله حتى قبل بعثته.

جاء في تاريخ الطبري: (كَانَتْ قريش تسمي رسول الله صلى الله عليه وآله قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ: الأَمِينَ)[٢].

و«كَانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وَلَيْسَ بِمَكَّةَ أَحَدٌ عِنْدَهُ شَيْءٌ يَخْشَى عَلَيْهِ إِلّا وضعه عند رسول الله صلى الله عليه وآله، لِمَا يُعْرَفُ مِنْ صِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ»[٣].

و«لَمَّا بَلَغَ خديجة عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله مَا بَلَغَهَا مِنْ صِدْقِ حَدِيثِهِ، وَعِظَمِ أَمَانَتِهِ، وَكَرَمِ أَخْلَاقِهِ، بَعَثَتْ إِلَيْهِ، فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَ فِي مَالِهَا إِلَى الشَّامِ تَاجِرًا»[٤].

وجاء عن علي عليه السلام: «لَمّا خَرَجَ رَسولُ اللّه صلى الله عليه وآله إلَى المَدينَةِ فِي الهِجرَةِ أمَرَني أن أُقِيمَ بَعدَهُ حَتّى أُؤَدِّيَ وَدائِعَ كانَت عِندَهُ لِلنّاسِ، ولِذا كانَ يُسَمَّى الأمينَ، فَأَقَمتُ ثَلاثًا فَكُنتُ أظهَرُ، ما تَغَيَّبتُ يومًا واحِدًا، ثُمَّ خَرَجتُ فَجَعَلتُ أتَّبعُ طَريقَ رَسولِ اللّه»[٥].

وفي الطبقات الكبرى: «إنَّ رَسولَ اللّه صلى الله عليه وآله لَمّا تُوُفِّيَ أمَرَ عَلِيٌّ عليه السلام صائِحًا يَصيحُ: «مَن كانَ لَهُ عِندَ رَسولِ اللّه عِدَةٌ أو دَينٌ فَليَأتِني». فَكانَ يَبعَثُ كُلَّ عام عِندَ العَقَبَةِ يَومَ النَّحرِ مَن يَصيحُ بِذلِكَ، فَلا يَأتي أحَدٌ مِن خَلقِ اللّهِ إلى عَلِيٍّ عليه السلام بِحَقٍّ ولا باطِلٍ إلّا أعطاهُ»[٦].

---

(١) الكافي، ج٥، ص١٣٣.
(٢) تاريخ الطبري، ج٢، ص٢٩٠.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٧٨.
(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٠.
(٥) الطبقات الكبرى، ج٣، ص٢٢.
(٦) المصدر نفسه، ج٢، ص٣١٩.

إنّ هذا التأكيد النبوي على صفة الأمانة، من خلال سيرة رسول الله ﷺ، ومن خلال أحاديثه وأقواله، يفرض على كلّ مسلم أن يلتزم هذا الخلق القويم، وأن يتحلّى بهذه السّمة المهمّة، ويفترض أن يكون السّلوك العام في المجتمع الإسلامي متصفًا بهذه الصفة. فذلك ما يؤكد الثقة بين أبناء المجتمع، ويحفظ الحقوق، ويصون المال العام والخاص.

صناعة الثقة والسّعادة

إنّ الأمانة تصنع الثقة بين الناس، فتجعلهم أكثر اطمئنانًا وتفاؤلًا وسعادة، بينما يؤدي ضعف الأمانة إلى سيادة حالة القلق بين أبناء المجتمع من بعضهم بعضًا، وإلى كثرة المشاكل والخلافات، وانعدام الشّعور بالسّعادة والأمن.

تصنف الدانمارك من أكثر الدول التي تسود الثقة داخل مجتمعها، وهو ما جعلها على قائمة الدول الأكثر سعادة في العالم.

وتنعكس هذه الثقة بممارسات مثل عرض منتجات للبيع دون مراقبة، أو ترك الأطفال دون حراسة.

أمٌّ تترك رضيعها خارج المقهى وتجلس داخله تحتسي القهوة.

بائع يترك بضاعته على الطريق، ويكتفي بتحديد ثمن المنتج، ويترك الناس يأخذونه ويضعون النقود، ويؤكد المزارع أنه لم يلدغ بسرقة من قبل: في نهاية اليوم أجد كلّ المال في الصندوق، لا أعرف كيف يكون ذلك لكنّه واقع.

كلمة السِّر في كلّ ذلك هي (الثقة)، فهذا بلد يثق الناس في بعضهم بعضًا.

باحثون دنماركيون: نسبة الثقة بالآخرين في المجتمع ارتفعت إلى ٨٠٪ بعد أن كانت أقلّ من ٥٠٪ في السّبعينيات[١].

(١) الدانمارك ضمن أكثر دول العالم التي تسود الثقة داخل مجتمعها: موقع قناة الجزيرة بتاريخ ٢/ ١٠/ ٢٠٢١م.

تجلّيات عدم الأمانة

ونريد أن نسلّط الضوء على بعض تجلّيات انعدام صفة الأمانة في السّلوك الاجتماعي العام.

١. عدم الاهتمام بأداء الدَّين وممارسة المماطلة في أداء حقّ الدائنين.

٢. هناك من يتجه للاستثمار بأموال الآخرين، ويعدهم بالأرباح، ثم يستولي على تلك الأموال، ولا يرجع إلى أصحابها حتى رؤوس أموالهم. وقد يكون من النصابين المحتالين، أو أنه يفشل في محاولاته الاستثمارية. وهنا لا بُدّ وأن يحذر الناس من الاستجابة لمثل هذه الدعوات، وألّا يضعوا أموالهم إلّا ضمن قوانين واتفاقيات تحفظ حقوقهم.

ففي عام ٢٠١٦م سجلت في المملكة العربية السعودية ٤٢٧٥ حالة احتيال، وبمبالغ زادت على ٥٢٠ مليون ريال، ورصدت البنوك ٢٦١٣ عملية احتيال مالي خلال العام ٢٠١٨م[١].

٣. هناك بعض الورثة يستولون على أموال بقية الورثة وخاصة النساء والقصّر، أو لا يؤدون إلى الورثة كامل مستحقاتهم.

٤. والجانب المهم هو رعاية الأمانة في المال العام، حيث تكون تحت تصرف المسؤولين في أجهزة الدولة ميزانيات مرصودة لخدمات المواطنين، ولمصالح البلاد، لكن من يفتقد صفة الأمانة تسوّل له نفسه الاستيلاء على المال العام، وأخذ الرشوات على حساب مصالح الوطن والمواطنين، وذلك من أعظم مظاهر خيانة الأمانة، وممارسة الفساد.

٥. ومن تجلّيات الالتزام بالأمانة في المال العام، ما يرتبط بالعمل في

---

(١) المصارف المركزية والبنوك في حرب مستمرة مع المحتالين: اندبندنت عربية، الاثنين ١٨ يناير ٢٠٢١م.

الجمعيات الخيرية، والأندية الرياضية، والولاية على الأوقاف والمساجد والحسينيات، واستلام الأخماس والحقوق الشرعية. فأيّ تصرف في أموال وممتلكات هذه الجهات، خارج الموارد المقررة شرعًا ونظامًا، هو خيانة وفقدان للأمانة.

النبي المبتسم

الابتسامة ترجمة وتعبير عن مشاعر إيجابية داخل نفس الإنسان، فحين يشعر بالسرور والرضا أو التعجب من شيء، ينعكس ذلك على ملامح وجهه، فتنفتح أساريره، وتكشف شفتاه عن أسنانه، فيما يطلق عليه حالة ابتسامة وضحك.

والابتسامة هي المستوى الأول والهادئ من الضحك، وقد يصحب الضحك صوت مرتفع وهو القهقهة.

الوظيفة الشخصية للابتسامة

والضحك حالة طبيعية تقابل البكاء الذي يحصل في حال الشعور بالحزن والألم، وبعض حالات الفرح، وكلاهما مظهر للإبداع والقدرة الإلهية.

يقول تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [سورة النجم، الآية: ٤٣].

وللابتسامة والضحك دور إيجابي في شخصية الإنسان، فهو

كما تشير الأبحاث النفسية، يساعد في تخفيف الضغط النفسي، ويرفع مستوى الرضا الشخصي، ويسهل التكيف مع المواقف الصعبة، ويحسّن مزاج الإنسان، فيقلّل مشاعر الاكتئاب والقلق.

وتتحدث بعض التقارير العلمية: (أنّ الضحك يقلل من هرمون التوتر في الجسم، الأمر الذي ينعكس بصورة إيجابية على صحة الجسم والصحة النفسية، كما يحفّز الأجسام المضادة في الجسم من أجل تعزيز صحة الجهاز المناعي)[١].

(ولا يقتصر تأثير الضحك الإيجابي على الحالة النفسية للإنسان، بل يمتد إلى وظائف الجسم الداخلية، فقد ثبت أنّ الضحك يساعد على زيادة الأكسجين الذي يصل إلى الرئتين، وينشط الدورة الدموية، ويساعد على دفع الدم في الشرايين، فيتوالد إحساس بدفء الأطراف، وربما كان هذا هو السبب في احمرار الوجه حين نضحك من قلوبنا)[٢].

وقديمًا قالوا: اضحك تضحك الدنيا معك.

ويقول شاعر المهجر إيليا أبو ماضي:

هَشَّت لَكَ الدُنيا فَما لَكَ واجِمًا وَتَبَسَّمَت فَعَلامَ لا تَتَبَسَّمُ

ويمكننا أن نقرأ في الحديث التالي عن السيرة النبوية، الإشارة إلى الوظيفة النفسية للابتسامة، فقد ورد عن الإمام علي الرضا عليه السلام: «إِنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صلى الله عليه وآله كَانَ يَأْتِيهِ اَلْأَعْرَابِيُّ فَيُهْدِي لَهُ اَلْهَدِيَّةَ، ثُمَّ يَقُولُ مَكَانَهُ: أَعْطِنَا ثَمَنَ هَدِيَّتِنَا، فَيَضْحَكُ رَسُولُ اَللَّهِ صلى الله عليه وآله، وَكَانَ صلى الله عليه وآله إِذَا اِغْتَمَّ، يَقُولُ: مَا فَعَلَ اَلْأَعْرَابِيُّ لَيْتَهُ أَتَانَا»[٣].

وفقًا لهذه الرواية، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله في وقت الغمّ، يبحث عمّن يثير الابتسامة بفكاهته.

---

(١) صحيفة الوطن بتصرف:.https://www.alwatan.com.sa/article/1014460.

(٢) صحيفة البيان بتصرف: مقال بعنوان (الضحك خير علاج للضغوط النفسية).
https://www.albayan.ae/five-senses/2010-09-23-1.285872

(٣) الكافي، ج٢، ص٦٦٣، حديث١.

الابتسامة ووظيفتها الاجتماعية

وللابتسامة وظيفة اجتماعية، فهي تساعد على نجاح التواصل مع الآخرين، وتشعرهم بالارتياح والرضا. لذلك وردت أحاديث تعتبر الابتسامة صدقة وفيها أجر وثواب.

حيث روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ»[١].

وعنه ﷺ: «اِلْقَ أَخَاكَ بِوَجْهٍ مُنْبَسِطٍ»[٢].

وعنه ﷺ: «إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا اَلنَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، فَالْقَوْهُمْ بِطَلاَقَةِ اَلْوَجْهِ، وَحُسْنِ اَلْبِشْرِ»[٣].

لكنّ بعض الناس تقلّ الابتسامة على محيّاهم، إمّا لانخفاض المشاعر الإيجابية في نفوسهم، فشعورهم بالرضا والسرور قليل، أو لأنهم يكتمون مشاعرهم ولا يعبّرون عنها؛ لضعف الثقة، أو الخجل، أو التزمّت.

فبعض الآباء يتصور أنّ عليه أن يكون صارم الملامح في عائلته ومع أبنائه، ليهابوه ويطيعوا أوامره، فلا يبدو ضاحكًا مبتسمًا في بيته.

وبعض الموظفين ومن يتسنّمون مواقع قيادية، في وظائف رسمية، أو في القطاع الخاص، يتعاملون مع موظفيهم ومراجعيهم بتعالٍ وجفاء، فلا تظهر البسمة على وجوههم، ويعتبرون ذلك مظهرًا لحزمهم وقوة شخصيتهم.

كما أنّ بعض الموجهين الدينيين، وبعض المتديّنين، يتصورون أنّ حالة الوقار الديني والأخلاقي تستلزم قلّة التبسّم والضحك أمام الناس، وأنّ المتديّن لأنه يستحضر عظمة الله، والخوف من عذابه، فلا يناسبه إظهار الابتسامة والضحك،

---

(١) محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، طبعة ١٤٣٠هـ، الرسالة العالمية، بيروت، حديث١٩٥٦.
(٢) الكافي، ج٢، ص ١٠٣، حديث٣.
(٣) المصدر نفسه، حديث١.

حتى ارتسمت في بعض الأوساط صورة الشخص المتديّن، أنه متجهّم الملامح عابس الوجه.

وأساسًا فإنّ بعض الناس يظهرون في علاقتهم وتعاملهم مع الآخرين جدّية مبالغًا فيها، فيبخلون بالبسمة وإبداء مشاعر الترحيب.

وذلك نقيض لما رواه علي عليه السلام أنه: «كَانَ رَسُولُ اَللَّـهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: إِنَّ اَللَّـهَ يُبْغِضُ اَلْمُعَبِّسَ فِي وَجْهِ إِخْوَانِهِ»[١].

الابتسامة النبوية

وحين نقرأ سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله، نجد صورة أخرى، حيث تشير الأحاديث والروايات إلى أنّ من أبرز ملامح شخصية النبي صلى الله عليه وآله أنه «كَانَ دَائِمَ اَلْبِشْرِ، سَهْلَ اَلْخُلُقِ، لَيِّنَ اَلْجَانِبِ»[٢]، كما يصفه الإمام علي عليه السلام، والبشر طلاقة الوجه، وظهور الفرح على محيّا الإنسان.

إنه لا أحد يزايد على تقوى رسول الله صلى الله عليه وآله، وعلى شدة اتصاله وارتباطه بالله تعالى، وهو في مقام القيادة لأمته، ويحمل أعظم الهموم، وكان يواجه أقسى التحدّيات، لكنّه مع كلّ ذلك، كان دائم البشر، لا تغيب الابتسامة عن محيّاه.

جاء في كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا سُئِلَتْ: كَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللَّـهِ صلى الله عليه وآله إِذَا خَلا فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: «كَانَ أَلْيَنَ النَّاسِ، وَأَكْرَمَ النَّاسِ، وَكَانَ رَجُلًا مِنْ رِجَالِكُمْ، إِلّا أَنَّهُ كَانَ ضَحَّاكًا بَسَّامًا»[٣].

وعن أمامة الباهلي: «كَانَ رَسُولُ اللَّـهِ صلى الله عليه وآله مِنْ أَضْحَكِ النَّاسِ سِنًّا، وَأَطْيَبِهِ نَفْسًا»[٤].

---

(١) مستدرك الوسائل، ج٨، ص٣٢١.

(٢) عيون أخبار الرضا، ج١، ص٣١٥.

(٣) الطبقات الكبرى، ج١، ص٢٧٤.

(٤) ابن أبي الدنيا، مداراة الناس، باب مداراة الرجل زوجته وحسن معاشرته إياها، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، دار ابن حزم، بيروت، حديث١٥٣.

وفي سنن الترمذي ومسند أحمد بن حنبل، عن عَبْدِ اللَّـهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ قال: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ»[١].

وعن جابر بن عبدالله الأنصاري يصف رسول الله ﷺ قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ إِذَا أَتَاهُ الْوَحْيُ أَوْ وَعَظَ، قُلْتَ: نَذِيرُ قَوْمٍ أَتَاهُمُ الْعَذَابُ، فَإِذَا ذَهَبَ عَنْهُ ذَلِكَ رَأَيْتَ أَطْلَقَ النَّاسِ وَجْهًا، وَأَكْثَرَهُمْ ضَحِكًا، وَأَحْسَنَهُمْ بِشْرًا»[٢].

وفي صحيح البخاري ومسلم عن جَرِير بْن عَبْدِالله، قال: «مَا حَجَبَنِي رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلَا رَآنِي إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي»[٣].

وعن أبي الدرداء: «كَانَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ لَا يُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ إِلَّا تَبَسَّمَ»[٤].

روى ابن الفارس عن ابن عباس: أنّ من أسمائه ﷺ في التوراة أحمد الضحوك. قال ابن فارس: سمّي بالضحوك؛ لأنه ﷺ كان طيّب النفس فَكِهًا، على كثرة من ينتابه ويَفِدُ عليه من جفاة العرب، وأهل البوادي، لا يراه أحد ذا ضجر ولا قلق، ولكن لطيفًا في النطق، رفيقًا في المسألة[٥].

وورد أنَّ «رَسُولُ الله ﷺ إِذَا جَرَى بِهِ الضَّحِكُ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى فِيهِ»[٦].

وتضافرت الأخبار أنه ربما ضحك حتى تبدو نواجذه، أي أقصى الأضراس من الفم، ولكن أغلب ضحكه التبسم.

وقد جاء في القرآن الكريم عن نبي الله سليمان ﷺ قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ

(١) سنن الترمذي، باب في بشاشة النبي، حديث ٣٦٤١.
(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج٩، ص١٧.
(٣) صحيح مسلم، باب من فضائل جَرِير بْن عَبْدِالله، حديث٤٥٢٩.
(٤) مسند أحمد بن حنبل، حديث أبي الدرداء، حديث٢١١٩٠.
(٥) محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٧، ص١٢٤.
(٦) كنز العمال، حديث١٨٣٩١.

ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾[سورة النمل، الآيات: ١٨-١٩].

أنموذج للشخصية السويّة

الرسول ﷺ أنموذج للشخصية السويّة الكاملة، فهو مع عظيم الرسالة التي يحملها، والموقع القيادي الذي يمثله، كان يتعامل مع الناس بعفوية وانسيابية، دون تكلّف، ولا تعالٍ، ولا اصطناع هيبة.

ورد عن الإمام علي عليه السلام في بيان سيرته ﷺ مع جلسائه: «يَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْهُ، وَيَتَعَجَّبُ مِمَّا يَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ»(١).

وعن زيد بن ثابت: «كُنَّا إِذَا جَلَسْنَا إِلَيْهِ ﷺ، إِنْ أَخَذْنَا بِحَدِيثٍ فِي ذِكْرِ اَلْآخِرَةِ أَخَذَ مَعَنَا، وَإِنْ أَخَذْنَا فِي اَلدُّنْيَا أَخَذَ مَعَنَا، وَإِنْ أَخَذْنَا فِي ذِكْرِ اَلطَّعَامِ وَاَلشَّرَابِ أَخَذَ مَعَنَا، فَكُلَّ هَذَا أُحَدِّثُكُمْ عَنْ رَسُولِ اَلله»(٢).

ونورد بعض المشاهد والمواقف من الابتسامات النبوية المشرقة:

دَخَلَ أَعْرَابِيٌّ الْمَسْجِدَ، وَرَسُولُ اللَّـهِ ﷺ جَالِسٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلِمُحَمَّدٍ وَلَا تَغْفِرْ لِأَحَدٍ مَعَنَا، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ وَقَالَ: «لَقَدِ احْتَظَرْتَ وَاسِعًا»(٣).

وجَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ يَا رَسُولَ اَللَّـهِ، بَلَغَنَا أَنَّ اَلْمَسِيحَ - يَعْنِي اَلدَّجَّالَ- يَأْتِي اَلنَّاسَ بِالثَّرِيدِ وَقَدْ هَلَكُوا جَمِيعًا جُوعًا، أَ فَتَرَى، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَنْ أَكُفَّ مِنْ ثَرِيدِهِ تَعَفُّفًا وَتَزَهُّدًا؟ فَضَحِكَ رَسُولُ اَللَّـهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «بَلْ يُغْنِيكَ اَللَّـهُ بِمَا يُغْنِي بِهِ اَلْمُؤْمِنِينَ»(٤).

وروي «أَنَّ جَدَّ خَالِدٍ اَلْقَسْرِيِّ قَبَّلَ اِمْرَأَةً فَشَكَتْ إِلَى اَلنَّبِيِّ ﷺ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَاعْتَرَفَ، وَقَالَ: إِنْ شَاءَتْ أَنْ تَقْتَصَّ فَلْتَقْتَصَّ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اَللَّـهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَقَالَ: أَوَ لَا

(١) عيون أخبار الرضا، ج٢، ص٢٨٥.
(٢) مكارم الأخلاق، ص٢١.
(٣) سنن ابن ماجة، طبعة ١٤٣٠هـ، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، حديث ٥٢٩.
(٤) بحار الأنوار، ج١٦، ص٢٩٥، حديث١.

تَعُودُ؟ فَقَالَ: لَا وَاَللَّـهِ يَا رَسُولَ اَلله، فَتَجَاوَزَ عَنْهُ»[١].

فَلْنَقْتَدِ برسول الله ﷺ في خلقه العظيم بمقدار جهدنا:

١. على الأب أن يقابل عياله بابتسامة وطلاقة وجه.

٢. على الموظف أن يستقبل المراجعين بترحيب واحتفاء.

٣. على من في موقع قيادي، أن يتعامل مع موظفيه برحابة صدر وطلاقة وجه.

٤. ينبغي لعالم الدين، وكلّ متديّن، أن يكون جاذبًا بحسن أخلاقه، واستقباله للناس بالابتسامة، كمؤشر على سروره بملاقاتهم.

(١) المصدر نفسه.

الحياء شيمة نبوية

الفطرة السّوية للإنسان تدفعه إلى اجتناب الظهور بالسّوء والمعايب أمام الآخرين، وهو ما يطلق عليه عنوان الحياء.

حيث يستحي الإنسان، وتنقبض نفسه، ويبدو أثر ذلك الانقباض على قسمات وجهه، أن يراه الناس بصفة معيبة، أو أن يصدر منه قول أو سلوك معيب.

وقد تختلف ثقافات الناس في بعض التفاصيل مما يستنقصون ويستعيبون، لكنّ هناك قيمًا أساسًا يتفق عليها بنو البشر، فيخجل الإنسان مثلًا أن يظهر كاذبًا أو خائنًا أو سارقًا.

لكنّ بعض الناس قد ينحرفون عن فطرتهم السّويّة، فلا يتوقفون عن ممارسة المعايب والمساوئ، ولا يبالون بنظرة الناس إليهم. وهذا ما يطلق عليه (وقاحة). فالوقح هو من قلَّ حياؤُه، واجترأ على فعل القبائح ولم يعبأْ بها.

وحين يتسافل الإنسان إلى هذا المستوى، فإنّه لا يبالي بما يفعل من القبائح، وهذا ما يشير إليه الحديث الشريف، عن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»(١)، فإذا فقد الإنسان الحياء يتوقع منه كَلّ قبيح.

خلق الحياء

إنّ خلق الحياء حينما يتصف به الإنسان، يدفعه إلى التزام مكارم الأخلاق، واجتناب الرذائل والمساوئ، واحترام الذوق العام.

ورد عن علي عليه السلام: «اَلْحَيَاءُ يَصُدُّ عَنِ اَلْقَبِيحِ»(٢).

لذلك حثّ الدين على الاهتمام بخلق الحياء، وأكّدت تعاليمه على نشر ثقافة هذا الخلق.

فقد ورد عن النبي ﷺ: «اَلْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ اَلْإِيمَانِ»(٣).

وعنه ﷺ: «الحَيَاءُ زِينَةٌ»(٤).

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لاَ حَيَاءَ لَهُ»(٥).

والحياء درجات، والدرجة الأولى منه عدم ارتكاب المعائب، ومن أعلى درجاته عدم خدش مشاعر الآخرين، وعدم التقصير في احترامهم، والإحسان إليهم. فيستحي الإنسان أن يبدي الاستثقال من أحد، وإن كان ذلك يحمّله أذًى، ويستحي أن يردّ طلبًا يمكنه القيام به، وإن كان بمشقّة عليه، كما يستحي أن يقصّر في الضيافة وحسن الجوار، وحسن الخطاب حتى للمسيء.

---

(١) صحيح البخاري، حديث٣٤٨٣.
(٢) عيون الحكم والمواعظ، ص٢٨.
(٣) الشريف الرضي، المجازات النبوية، منشورات مكتبة بصيرتي، قم، ص١٠٦.
(٤) مستدرك الوسائل، ج١، ص٤٨٨.
(٥) الكافي، ج٢، ص١٠٦، حديث٥.

النبي شيمته الحياء

وقد كان رسول الله ﷺ في هذه الدرجة العليا من الحياء، وقد تحدّث القرآن الكريم عن تحمّل رسول الله للأذى، من تصرفات بعض من حوله بسبب حيائه، فقد كان بعضهم يأتي إلى دار رسول الله ﷺ في كلّ وقت، ويدخل من دون استئذان، ويبقى منتظرًا تهيئة طعام بيت النبي ﷺ، وبعد تناول الطعام يطيلون المكوث على حساب وقت رسول الله وراحته، وكان ﷺ لحيائه يخجل أن يردّ أحدًا منهم، أو يشير إليه بالخروج، وإن طال بقاؤه، لذلك نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٥٣].

ويصف الإمام علي عليه السلام: مجلس رسول الله ﷺ، قائلًا: «مَجْلِسُهُ مَجْلِسُ حِلْمٍ وَحَيَاءٍ»(١).

وفي مناقب ابن شهرآشوب عن الإمام الحسن بن علي سبط رسول الله، أنه وصف جدّه في انتسابه إليه بقوله: «أَنَا اِبْنُ اَلنَّبِيِّ اَلْمُصْطَفَى، وَأَنَا اِبْنُ مَنْ عَلَا اَلْجِبَالَ اَلرَّوَاسِيَ، وَأَنَا اِبْنُ مَنْ كَسَا مَحَاسِنَ وَجْهِهِ اَلْحَيَاءُ»(٢).

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام: في وصف النبي ﷺ: «شِيمَتُهُ الْحَيَاءُ»(٣).

وعن أنس: «كَانَ ﷺ لَا يَكَادُ يُوَاجِهُ أَحَدًا فِي وَجْهِهِ بِشَيْءٍ يَكْرَهُهُ»(٤).

وعن أبي سعيد الخدري: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ في خِدْرِهَا(٥).

(١) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ص٨١.
(٢) ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، ج٤، المطبعة العلمية، قم، ص١٢.
(٣) الكافي، ج١، ص٤٤٤، حديث١٧.
(٤) أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ، دار الرسالة العالمية، بيروت، حديث ٤٧٨٩.
(٥) صحيح البخاري، حديث٣٥٦٢.

وعن أبي سهل بن سعد: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيِيًّا لَا يُسْأَلُ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَى[١].

الحياء المذموم

لكن هناك موارد لا ينبغي فيها الحياء، وذلك حين يكون الحياء مانعًا من التقدّم إلى الخير، أو سببًا للوقوع في الشر.

فقد روى الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن جدّه رسول الله ﷺ أنه قال: «اَلْحَيَاءُ عَلَى وَجْهَيْنِ، فَمِنْهُ ضَعْفٌ وَمِنْهُ قُوَّةٌ»[٢].

وفي حديث آخر عنه ﷺ قال: اَلْحَيَاءُ حَيَاءَانِ: حَيَاءُ عَقْلٍ وَحَيَاءُ حُمْقٍ، فَحَيَاءُ اَلْعَقْلِ هُوَ اَلْعِلْمُ، وَحَيَاءُ اَلْحُمْقِ هُوَ اَلْجَهْلُ»[٣].

ومن أبرز الموارد التي لا يستحسن فيها الحياء: التعلّم.

ورد عن علي عليه السلام: «ولَا يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ إِذَا لَمْ يَعْلَمِ الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَه»[٤].

وقالت عائشة: «نِعم النساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهنّ الحياء أن تتفقهنّ في الدين»[٥].

كما لا يجوز للإنسان أن يجيب عن سؤال لا يعرف جوابه، بسبب حيائه من أن يقول: لا أدري، أو لا أعلم. فيفتي بدون علم.

ورد عن الإمام علي عليه السلام: «ولَا يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِذَا سُئِلَ عَمَّا لَا يَعْلَمُ، أَنْ يَقُولَ لَا أَعْلَمُ»[٦].

---

(١) رواه الدارمي، ج١، ص٢١١. وفي مكارم الأخلاق (إلّا أَعْطَاهُ)، ص١٧.
(٢) الخصال، حديث٧٦.
(٣) وسائل الشيعة، حديث ١٥٩٨٢.
(٤) نهج البلاغة، حكمة ٨٢.
(٥) صحيح مسلم، حديث٣٢٢.
(٦) نهج البلاغة، حكمة ٨٢.

وفي هذا السّياق جاء في سيرة الإمام مالك أنّ رجلًا سأله عن مسألة، فقال لا أدري، فقال: سافرت البلدان إليك، فقال: ارجع إلى بلدك وقل: سألتُ مالكًا فقال: لا أدري»[١].

التمرّد على القيم

نعيش في عصر تشيع فيه ثقافة أنانية متطرّفة، تدفع الإنسان للاستجابة لغرائزه وشهواته دون حدود وقيود، بعنوان ممارسة الحرية الشخصية، وهي ثقافة تتبنّاها الحضارة المادية الغربية، وتريد عولمتها على حساب سائر الثقافات والحضارات.

وضمن هذه الثقافة يُراد وأد خلق الحياء، حتى يدفعوا أبناء الثقافات والحضارات المختلفة إلى التخلي عن ثقافتهم وحضارتهم.

إننا بحاجة للاستفادة من الحضارة الغربية في الجوانب العلمية والصناعية والتكنولوجية، لكنّ ذلك لا يعني استيراد كلّ عاداتهم وأخلاقهم على حساب انتمائنا الديني والحضاري.

ونحتاج هنا إلى التأكيد على خلق الحياء، وأن نربّي أبناءنا وبناتنا على هذا الخلق الإنساني، ليحترموا تعاليم وشعائر دينهم، والقيم الإنسانية النبيلة، والأعراف والعادات الاجتماعية الصالحة.

ومن المؤسف أن نجد أناسًا يندفعون لممارسات صادمة للأخلاق والتقاليد، ومنافية للذوق العام. مما دفع الجهات الرسمية في بلادنا لإصدار لائحة الذوق العام، وأصدرت وزارة الداخلية الضوابط الخاصة بتطبيق اللائحة التي تتضمّن فرض غرامات على المخالفين.

---

(١) عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، صيد الخاطر، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ، دار القلم، دمشق، ص٢٢٠.

اهتمام النبي بالأناقة الشخصية

الأناقة تعني: حسن المنظر وإثارته للإعجاب.

وتكشف النصوص والروايات الواردة في السيرة والسنة النبوية، عن اهتمام كبير عند رسول الله ﷺ بالأناقة الشخصية، وأنه كان يحرص على نظافة جسمه، وحسن مظهره، وجمال هيئته، ضمن سلوكه العام.

وهذا ما يلفت النظر ويستوجب التأمل لعدّة جهات.

أولًا: إنّ هذا المستوى من الاهتمام بالأناقة الشخصية، لم يكن متعارفًا في البيئة الاجتماعية التي نشأ وعاش فيها، حتى يمكن تفسيره بأنه ﷺ قد تأثر بثقافة أو سلوك كان حاضرًا في بيئته، فالمجتمع العربي كان يسوده التخلّف، وتنعدم فيه أساليب الحياة المتحضرة.

ثانيًا: إنه ﷺ صاحب رسالة دينية، فكان متوقعًا حسب الفهم

السّائد للرسالة الدينية، أن ينصبّ اهتمامه على الجوانب الروحية العبادية، والتوجهات الأخروية، دون أن يزاحمها الاهتمام بمظاهر الأناقة والتجمّل، إلى هذه الدرجة المتقدّمة.

ثالثًا: المهام والانشغالات الكبيرة التي تصدّى لها النبي ﷺ، من تبليغ الرسالة، ومواجهة أعدائها، وخوض الحروب، ومصاعب التغيير الاجتماعي، والتأسيس لكيان جديد، كلّ ذلك كان يفترض أن يشغل النبي ﷺ عن هذا الاهتمام الذي يعتبر ثانويًّا كماليًّا في الفهم العام.

الأناقة جزء من الرسالة

من هنا يمكن القول: إنّ هذا الاهتمام بالأناقة الشخصية، هو جزء من تعاليم الرسالة، وليس مجرّد ميل شخصي في نفس رسول الله ﷺ، ويؤكّد ذلك النصوص التي تضفي على هذا الاهتمام طابعًا دينيًّا، وأنه محبوب لله تعالى.

كان النبي ﷺ يريد أن يربّي المجتمع تربية حضارية شاملة، تهتمّ بطهارة الروح وسلامة النفس، ونظافة الجسد، وصدق المخبر، وحسن المظهر.

إنّ الدين جاء لإقامة الحياة الطيبة لبني البشر، في مختلف أبعادها، يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[سورة النحل، الآية: ٩٧] ويأتي تمتع الإنسان بخيرات الكون وثرواته، من صميم الرؤية الكونية لهذا الدين، يقول تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٣٢].

والمجتمع المسلم يجب أن يكون أنموذجًا حضاريًّا جاذبًا لسائر المجتمعات، يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٤٣].

والرسول ﷺ يكون قدوة للناس في تنظيم حياته، كما هو قدوة في عبادته وجهاده.

قبسات من السيرة النبوية

ونقتبس من السيرة النبوية بعض المصاديق والشواهد، على الاهتمام النبوي بالأناقة الشخصية.

١/ اهتمامه بالنظافة

النظافة بمعنى النقاوة، وإزالة الأوساخ والأدران، وهي المستوى الأول الذي لا تقف عند حدّه النصوص الدينية، بل تطالب بالارتقاء إلى مستوى الأناقة والتجمّل والتزيّن.

- ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اَلنَّظَافَةُ مِنَ اَلْإِيمَانِ»(١).
- وعنه ﷺ: «تَنَظَّفُوا بكلِّ ما استطعتم، فإنّ اللهَ بَنَى الإسلامَ على النَّظافةِ»(٢).
- وورد أنّ رسول الله ﷺ كان يقلّم أظفاره ويقصّ شاربه يوم الجمعة قبل أن يروح إلى الصلاة.
- وجاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «كَانَ اَلنَّبِيُّ ﷺ يُعْجِبُهُ أَنْ يَشْرَبَ فِي اَلْإِنَاءِ اَلشَّامِيِّ»(٣)، وَكَانَ يَقُولُ: هُوَ أَنْظَفُ آنِيَتِكُمْ.

٢/ اهتمامه بنظافة الفم

- كَانَ اَلنَّبِيُّ ﷺ يَسْتَاكُ كُلَّ لَيْلَةٍ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، مَرَّةً قَبْلَ نَوْمِهِ، وَمَرَّةً إِذَا قَامَ مِنْ نَوْمِهِ إِلَى وِرْدِهِ، وَمَرَّةً قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى صَلاَةِ اَلصُّبْحِ(٤).
- وورد أنه ﷺ: «كَانَ يَسْتَاكُ لِكُلِّ صَلاَةٍ»(٥).

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٩، ص٢٩١.
(٢) كنز العمال، حديث ٢٦٠٠٢.
(٣) آنية يؤتى بها من الشام، قوارير من زجاج.
(٤) مكارم الأخلاق، ص٣٩.
(٥) بحار الأنوار، ج٨٠، ص٣٤٤، حديث٢٤.

- وعن عائشة: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَرْقُدُ مِنْ لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ، فَيَسْتَيْقِظُ إِلَّا تَسَوَّكَ»(١).
- وعنه ﷺ: «لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ»(٢).

الخِلال

ورد عنه ﷺ: «تَخَلَّلُوا فَإِنَّهُ مِنَ اَلنَّظَافَةِ»(٣).

- وورد عن الإمام الكاظم عليه السلام: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ: «رَحِمَ اَللَّهُ اَلْمُتَخَلِّلِينَ. قِيلَ يَا رَسُولَ اَللَّهِ: وَمَا اَلْمُتَخَلِّلُونَ؟ قَالَ: يَتَخَلَّلُونَ مِنَ اَلطَّعَامِ، فَإِنَّهُ إِذَا بَقِيَ فِي اَلْفَمِ تَغَيَّرَ فَآذَى اَلْمَلَكَ رِيحُهُ»(٤).
- وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَخَلَّلُ، وَهُوَ يُطَيِّبُ اَلْفَمَ»(٥).
- وورد عنه عليه السلام: «اَلْمَضْمَضَةُ وَالِاسْتِنْشَاقُ مِمَّا سَنَّ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ»(٦).

وقد اتضحت في هذا العصر الأهمية البالغة لنظافة الفم والأسنان، حيث تشير الدراسات والأبحاث الطبية إلى أنّ لصحة الفم ارتباطًا كبيرًا بالصحة العامة للإنسان، كصحة القلب والجهاز التنفسي.

٣/ اهتمامه بتنسيق شعره

- ورد عن الإمام علي عليه السلام: كَانَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ يُرَجِّلُ شَعْرَهُ، وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُرَجِّلُ شَعْرَهُ بِالْمَاءِ(٧).

---

(١) سنن أبي داوود، كتاب الطهارة، باب السواك لمن قام من الليل، حديث ٥٤.
(٢) صحيح البخاري، حديث ٨٨٧.
(٣) بحار الأنوار، ج٥٩، ص٢٩١.
(٤) المصدر نفسه، ج٦٣، ص٤٣٩، حديث١١.
(٥) من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٣٥٧.
(٦) تهذيب الأحكام، ج١، ص٧٩.
(٧) جامع أحاديث الشيعة، ج١٦، ص٦١٧.

- وذكرت مصادر السيرة أنه ﷺ لَرُبَّمَا سَرَّحَ لِحْيَتَهُ فِي اَلْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ[١]. وكَانَ لَهُ ﷺ مُشْطُ عَاجٍ يَتَمَشَّطَ بِهِ[٢].

٤/ اهتمامه بالطيب

- كَانَ ﷺ أَطْيَبَ اَلنَّاسِ رِيحًا[٣].
- كما ورد عن الإمام علي عليه السلام: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعْرَفُ بِرِيحِ الطِّيبِ إِذَا أَقْبَلَ[٤].
- وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كَانَتْ لِرَسُولِ اَللَّهِ ﷺ مُمَسَّكَةٌ إِذَا هُوَ تَوَضَّأَ أَخَذَهَا بِيَدِهِ وَهِيَ رَطْبَةٌ فَكَانَ إِذَا خَرَجَ عَرَفُوا أَنَّهُ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ بِرَائِحَتِهِ[٥].
- وورد أنه كَانَ ﷺ يَسْتَجْمِرُ بِالْعُودِ اَلْقَمَارِيِّ[٦]. (جمرت الثوب: بخرته بالطيب، عود قماري منسوب إلى موضع ببلاد الهند).
- وورد عن عائشة: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يَكرَهُ أنْ يوجَدَ منه ريحٌ يُتَأذَّى منها[٧].
- وورد عنها أنّها قالت: صنَعتُ لرسولِ اللَّهِ ﷺ بُردةً سَوداءَ، فلَبسَها، فلمَّا عَرِقَ فيها وجدَ ريحَ الصُّوفِ، فقذفَها[٨].
- وقد نهى ﷺ أن يأتي للمسجد من أكل ثومًا أو بصلًا أو كرّاثًا أو نحوها، حتى لا يتأذّى الناس من رائحتها الكريهة.

---

(١) مكارم الأخلاق، ص٣٣.
(٢) الطبقات الكبرى، ج١، ص٣٧٥.
(٣) كنز العمّال، حديث١٨٥٥٥.
(٤) مكارم الأخلاق، ص٦١.
(٥) الكافي، ج٦، ص٥١٥، حديث٣.
(٦) بحار الأنوار، ج١٦، ص٢٤٨.
(٧) مسند ابن حنبل، حديث٢٦١٧٩.
(٨) صحيح أبي داوود، حديث٤٠٧٤.

- كما جاء عن جابر بن عبدالله أنّ رسول الله ﷺ قال: مَن أكَلَ ثُومًا أوْ بَصَلًا، فَلْيَعْتَزِلْنَا ـ أوْ قالَ: فَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا ـ ولْيَقْعُدْ في بَيْتِهِ[١].

٥/ اهتمامه بثيابه

- ورد عن ابن عباس أنه قال: لقد رأيتُ على رسول الله ﷺ أحْسَنَ ما يكونُ مِن الثيابِ اليَمَنِية[٢].
- وعن جابر بن سمرة: رأَيتُ النبيَّ ﷺ في ليلةٍ إِضْحِيانٍ [مقمرة]، فجعَلتُ أنظُرُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، وإلى القمَرِ، وعليه حُلَّةٌ حَمْراءُ، فإذا هو عندي أحسَنُ مِن القمَرِ[٣].
- وعن جندب بن مكيث: كَانَ ﷺ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِ الْوَفْدُ، لَبِسَ أَحْسَنَ ثِيَابِهِ، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ، فَرَأَيْتُهُ وَفَدَ عَلَيْهِ وَفْدُ كِنْدَةَ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ يَمَانِيَّةٌ[٤].
- وعن أبي الأحوص عن أبيه: أبصَرَ عليَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ يومًا ثيابًا خُلْقانًا، فقالَ لي: ألكَ مالٌ؟ قُلتُ: نَعَمْ، قالَ: أَنْعِمْ على نَفْسِكَ كما أنعَمَ اللَّهُ عليكَ[٥].
- وعن جابر بن عبدالله: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ رأى رجلًا وسِخةً ثيابُه، فقال: أما وجد هذا شيئًا يُنقِّي به ثيابَه؟[٦].
- وورد عن الإمام علي عليه السلام أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اغْسِلُوا ثِيَابَكُمْ، وَخُذُوا مِنْ شُعُوْرِكُمْ، وَاسْتَاكُوا، وَتَزَيَّنُوا»[٧].

---

(١) صحيح البخاري، حديث ٨٥٥.
(٢) سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، المعجم الكبير، الطبعة الثانية١٤٠٤هـ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، حديث ١٢٨٨٤.
(٣) سنن الترمذي، حديث٢٨٠٩.
(٤) الطبقات الكبرى، ج٤، ص٣٤٦.
(٥) مسند ابن حنبل، حديث١٥٨٨٧.
(٦) حلية الأولياء، ج٣، ص١٨٢.
(٧) سير أعلام النبلاء، ج١٣، ص٤١٣.

٦/ اهتمامه بهيئته ومنظره

- جاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، عن أبيه الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: وقف رجل على باب النبي صلى الله عليه وآله يستأذن عليه، قال: فخرج النبي صلى الله عليه وآله فوجد في حجرته ركوة فيها ماء، فوقف يسوّي لحيته وينظر إليها. (الرَّكوة والرِّكوة: إناء من جلد يشرب فيه الماء)، فلمّا رجع داخلًا قالت له عائشة: يا رسول الله! أنت سيّد ولد آدم! ورسول ربّ العالمين، وقفت على الركوة تسوّي لحيتك ورأسك؟ قال: يا عائشة، إنّ الله يحب - إذا خرج عبده المؤمن إلى أخيه- أن يتهيّأ له وأن يتجمّل)[١].
- وكان صلى الله عليه وآله ينظر في المرآة ويرجل جمّته (الجمة: مجتمع شعر الناصية، وكذلك: الشعر المتدلي البالغ المنكبين) ويتمشّط. وربما نظر في الماء وسوى جمّته فيه. ولقد كان يتجمّل لأصحابه فضلًا عن تجمّله لأهله. وقال: إنّ الله يحبّ من عبده إذا خرج إلى إخوانه أن يتهيّأ لهم ويتجمّل[٢].
- وورد عنه صلى الله عليه وآله: «إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ»[٣].

الأناقة دائمًا

وتشير نصوص السيرة النبوية إلى أنّ اهتمام النبي صلى الله عليه وآله بهيئته ومظهره كان ثابتًا في مختلف ظروف حياته، سفرًا وحضرًا، قال الطبرسي في مكارم الأخلاق: كان صلى الله عليه وآله لا يفارقه في أسفاره: قارورة الدُّهن، والمُكحُلة، والمقراض، والمرآة، والمسواك، والمُشط[٤].

وورد عن عائشة: خمسٌ لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله يدعهنّ في حضر ولا سفر: المرآة

(١) بحار الأنوار، ج٧٦، ص٢٨٩، حديث٢٣.
(٢) مكارم الأخلاق، ص ٣٣ .
(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث ١٦٢٦ .
(٤) مكارم الأخلاق، ص٣٣.

والمُكحُلة والمُشط والمِدْرَى (مشط يسرح به الشعر المتلبّد) والسّواك[١].

الأناقة سنة نبوية

ومن منطلق قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ علينا أن نتأسّى برسول الله ﷺ، في الاهتمام بالنظافة والأناقة الشخصية، بين أهلنا، وفي حياتنا الاجتماعية العامة، فنحرص على حسن الهيئة والمنظر، حسب أعراف العصر، والبيئة التي نعيش فيها.

إنّ الاهتمام بالنظافة والأناقة من موجبات محبّة الله سبحانه وتعالى، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

وعنه ﷺ: «إنّ الله يحب الناسك النظيف»[٢].

وعن علي ﷺ: «إنّ الله يبغض من عباده القاذورة الذي يتأنف به من جلس إليه»[٣].

كما أنّ النظافة والأناقة تبعث في نفس الإنسان الراحة والسرور، وتمنحه الحيوية والنشاط، بينما الأوساخ والقذارة، من دواعي الكآبة والضّجر، وتجلب الهمّ والغمّ، ورد عن علي ﷺ: «النظيف من الثياب يذهب الهم والحزن»[٤].

وهي حماية للصحة، وكسب لارتياح الآخرين ورضاهم، حيث ينفر الناس ممن لا يهتم بنظافته.

---

(١) كنز العمال، حديث١٧٦١٤.
(٢) كنز العمال، حديث ٢٦٠٠٠.
(٣) بحار الأنوار، ج١٠، ص٩٩.
(٤) الكافي، ج٦، ص٤٤٤، حديث١٤.

الاهتمام بالجمال في التربية النبوية

تذوّق الجمال في مظاهره المختلفة، نزعة فطرية في الإنسان، فالمنظر البهيج، والصوت الجميل، والرائحة العبقة، تنشرح لها نفس الإنسان، ويدخل بها السرور والارتياح على قلبه، بينما ينفر من المنظر القبيح، والصوت البشع، والرائحة الكريهة.

لكنّ هذه الذائقة الجمالية قد تتنامى في نفس الإنسان، أو تخبو وتضعف، وقد يترجمها الإنسان في حياته وسلوكه، أو يتجاهلها فيحرم نفسه من الاستمتاع بها.

وهنا يأتي دور الثقافة والبيئة، في تنمية الذائقة الجمالية عند الفرد والمجتمع.

والبيئة التي بعث فيها رسول الله ﷺ، كانت تعيش ظروف الحياة الصَّعبة القاسية، التي تنعدم فيها الاهتمامات الجمالية والحضارية.

لكنّ الرسالة الإسلامية أعادت صياغة ذلك المجتمع الجاهلي، وأحيت في نفوس أبنائه النزعات الفطرية السّليمة، ليستمتع الإنسان بحياته، وليكون أنموذجًا للمجتمع الإنساني، الذي تبشِّر به هذه الرسالة العظيمة.

ومن الأبعاد التي اهتمت بها الرسالة الإسلامية، إحياء الذائقة الجمالية في نفس الإنسان، وتنميتها في مشاعره وأحاسيسه، وتعزيزها في سلوكه وممارساته.

ففي حديث القرآن الكريم عن الكون والوجود، يلفت نظر الإنسان إلى الروعة الجماليَّة التي أودعها الله تعالى في الكون.

بدءًا من خلقة الإنسان نفسه، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين، الآية: ٤]. ويقول تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [سورة التغابن، الآية: ٣].

وبتسريح النظر في آفاق الكون والحياة، التي هي أروع معرض فنِّي جمالي حقيقي:

- يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [سورة ق، الآيات: ٦-٧].
- ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [سورة الحجر، الآية: ١٦].
- ويقول تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [سورة الصافات، الآية: ٦].
- ويقول تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة الكهف، الآية: ٧].

وقد اهتم رسول الله ﷺ بتعزيز قيمة الجمال نفسيًّا وسلوكيًّا، في تربيته وتوجيهه للأمة.

ونستعرض بعضًا من مظاهر هذه التربية النبوية في العناوين التالية:

الجمال قيمة دينية

صحيح أنّ الدين جاء لتوجيه الإنسان لعبادة ربه، وتحصيل الفوز والنجاح في آخرته، وذلك يعني في الأساس طهارة النفس والروح، والتطلّع للكمال والجمال المعنوي. لكن ذلك لا يعني البؤس في الحياة، والحرمان من متع الدنيا وخيراتها. وفكرة التنافي بين الدين والدنيا، وبين سعادة الآخرة وطيب الحياة في الدنيا، فكرة يرفضها الدين بصراحة ووضوح، يقول تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٣٢].

والجمال أهم زينة جعلها الله لعباده.

لذلك فإنّ رسول الله ﷺ يؤكد أنّ الجمال قيمة دينية، فقد أطلق ﷺ شعارًا عظيمًا، يقول: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»، وقد أوردته مصادر الحديث من مختلف المذاهب الإسلامية، وذلك في سياق الحديث عن الجمال في البعد الدنيوي.

فقد سأله أحد الأصحاب: يَا رَسُولَ الله، أَمِنَ الكبر أن ألبس الحلّة الحسنة؟ قال: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»[١].

وعنه ﷺ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، وَيُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ، وَيَكْرَهُ الْبُؤسَ وَالتَّبَاؤُسَ»[٢].

الاهتمام بالمظهر

عنه ﷺ: «إِنَّ اَللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا خَرَجَ إِلَى إِخْوَانِهِ أَنْ يَتَهَيَّأَ لَهُمْ

(١) المستدرك على الصحيحين، ج١، ص٢٦.
(٢) صححه الألباني في صحيح الجامع، حديث ١٧٤٢.

وَيَتَجَمَّلَ»[١].

وعنه ﷺ: «إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ فَأَحْسِنُوا لِبَاسَكُمْ، وأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ، حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاسِ»[٢].(أي: كونوا في الناس كمثل الشامة في الجسد، شيئًا طيبًا معروفًا في وسطهم ليس شيئًا منكرًا).

وعنه ﷺ: «لِيَأْخُذْ أَحَدُكُمْ مِنْ شَارِبِهِ وَالشَّعْرِ الَّذِي فِي أَنْفِهِ وَلْيَتَعَاهَدْ نَفْسَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي جَمَالِهِ»[٣].

وعَنْ أَبِي عَبْدِاللَّهِ جعفر الصادق عليه السلام قَالَ: أَبْصَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا شَعِثًا شَعْرُ رَأْسِهِ، وَسِخَةً ثِيَابُهُ، سَيِّئَةً حَالُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مِنَ الدِّينِ الْمُتْعَةُ وَإِظْهَارُ النِّعْمَةِ»[٤].

وورد عن النبي ﷺ أنه قال: «الشَّعْرُ الْحَسَنُ مِنْ كِسْوَةِ اللَّهِ فَأَكْرِمُوهُ»[٥].

وعنه ﷺ: «مَنِ اتَّخَذَ شَعْرًا فَلْيُحْسِنْ وِلايَتَهُ أَوْ لِيَجُزَّهُ»[٦].

ذائقة الجمال الصَّوتي

كما تعشق العين المنظر البهيج، وتسرّ به النفس، فإنَّ السّمع يطرب للصوت الرقيق، وينشرح له الصّدر، وقد اهتمّ الدين باعتدال الصوت وجماله، في الحدود المشروعة.

يقول تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [سورة لقمان، الآية: ١٩].

---

(١) بحار الأنوار، ج١٦، ص٢٤٩.
(٢) المستدرك على الصحيحين، ج٤، ص١٨٣.
(٣) بحار الأنوار، ج٧٣، ص١٠٩، حديث١.
(٤) الكافي، ج٦، ص٤٣٩، حديث٥.
(٥) من لا يحضره الفقيه، ج١، ص١٢٩.
(٦) الكافي، ج٦، ص٤٨٥، حديث٢.

وفي سورة الحجرات، تتناول عدة آيات قضية الصّوت، مما يدلّ على أنّها كانت مشكلة قائمة، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الحجرات، الآيات: ٢-٤].

وورد عنه ﷺ: «إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الصَّوْتَ الْخَفيضَ وَيُبْغِضُ الصَّوْتَ الرَّفيعَ»(١).

وهناك أحاديث توجّه إلى قراءة القرآن بالصَّوت الحسن.

حيث ورد عنه ﷺ: «حَسِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ، فَإِنَّ الصَّوْتَ الْحَسَنَ يَزِيدُ الْقُرْآنَ حُسْنًا»(٢).

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ قَالَ: سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ قَرَأَ فِي الْعِشَاءِ بالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ، فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْهُ.

وعنه ﷺ: «جَمالُ الرَّجُلِ فَصاحَةُ لِسانِهِ»(٣).

وعَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: «مَا بَعَثَ اَللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيًّا إِلَّا حَسَنَ اَلصَّوْتِ»(٤).

اختيار الاسم الحسن

ورد عنه ﷺ: «حَقُّ الوَلَدِ عَلَى الوَالِدِ أَنْ يُحَسِّنَ اسْمَهُ وَيُحَسِّنَ أَدَبَهُ»(٥).

وجاء عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «كَانَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ يُغَيِّرُ اَلْأَسْمَاءَ اَلْقَبِيحَةَ فِي

(١) بحار الأنوار، ج٢، ص٦٣، حديث١٢.
(٢) المصدر نفسه، ج٨٩، ص١٩٤، حديث٦.
(٣) كنز العمال، حديث٢٨٧٧٥.
(٤) الكافي، ج٢، ص٦١٦، حديث١٠.
(٥) كنز العمال، حديث ٤٥١٩٢.

اَلرِّجَالِ وَاَلْبُلْدَانِ»[١].

وفي أُسْد الغابة: وفد حبيب بن مروان على النبي ﷺ فقال له ﷺ: مَا اسْمُكَ؟ فَقَالَ: بَغِيْض، فَقَالَ ﷺ: أَنْتَ حَبِيْبٌ، فَسَمَّاهُ حَبِيْبًا[٢].

وورد أنّ الصحابي بشير بن معبد السدوسي، كان اسمه في الجاهلية زحمًا، فقال له رسول الله ﷺ: أنت بشير[٣].

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ كَثِيرَ بْنَ الصَّلْتِ: «كَانَ اسْمُهُ قَلِيلًا، فَسَمَّاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَثِيرًا، وَأَنَّ مُطِيعَ بْنَ الْأَسْوَدِ كَانَ اسْمُهُ الْعَاصِ، فَسَمَّاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُطِيعًا، وَأَنَّ أُمَّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ كَانَ اسْمُهَا عَاصِيَةَ، فَسَمَّاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَمِيلَةَ[٤].

وعن هاني بن يزيد أنّه لما وفد إلى النبي ﷺ مع قومه، سمع النبي ﷺ يُسمُّون رجلًا منهم: عبدالحَجَر. فقال ﷺ: ما اسمك؟ قال: عبدالحجر. قال ﷺ: لا. أنت عبدالله[٥].

الجمال في مختلف الأبعاد

إنَّ هذه النُّصوص والشَّواهد من السِّيرة النبوية، تؤكّد أنَّ الإسلام يتبنَّى المفهوم الواسع الشَّامل للجمال، في البعد المعنوي والمادي، فكما أنّ جمال الروح والخُلُق والسُّلوك مهمٌّ، كذلك جمال المنظر والجسم والهيئة.

وعلى الإنسان أن يتأمَّل في بديع الخلق والوجود، وأن يستلهم مما أودع الله

(١) بحار الأنوار، ج ١٠١، ص ١٢٧، حديث ٤.
(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج١، ص٦٨١.
(٣) ابن عبد البر، كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، دار الجيل، بيروت، ج١، ص١٧٣.
(٤) أبو نعيم الأصبهاني، معرفة الصحابة، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، دار الوطن للنشر، الرياض، ج٥، ص٢٣٩٣، حديث ٥٨٦٠.
(٥) محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ، دار الصديق للنشر والتوزيع، الجبيل، ص٣٠٢.

تعالى في الكون من مظاهر الزينة والجمال الباهر، ليُنمِّي الذَّائقة الجماليَّة في نفسه، وأن يستجيب لفطرته السَّليمة المنجذبة للجمال والكمال.

وأن تسود الحالة الجماليَّة أجواء الحياة في المجتمع الإيماني، في اختيار أسماء الأفراد، والشَّوارع، والمدن، والمحلّات، وأن تنتشر المناظر الزَّاهية الخلّابة، وألَّا تكون هناك مشوِّهات ومنفِّرات بصريَّة، ولا سمعيَّة، فشعار الإسلام الذي أعلنه رسول الله ﷺ هو: إنَّ الله جميل يحبّ الجمال.

من أخلاق النبي في حياته الزوجية

جاء بسند صحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»[1].

حين يفخر رسول الله ﷺ بين أصحابه بأنه خيرهم لأهله، فهذا يشير إلى أمرين:

الأول: أهمية الموضوع وأنه يستحقّ أن يفخر به شخص في مقام رسول الله ﷺ.

فحسن التعامل والعشرة مع الأهل ليس مسألة كمالية جانبية، بل هي أصل وأساس في قيمة شخصية الإنسان، وتحديد مستوى كماله الأخلاقي، ومكانته عند الله سبحانه وتعالى.

ولم نجد من خلال البحث والتتبع للأحاديث النبوية في

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٥٥٥، وصحيح سنن ابن ماجة، ج٢، ص١٧٥، حديث١٦٢١.

مصادرها المعتمدة، افتخار النبي ﷺ بأيّ صفة أخرى بهذه الصيغة.

فلم يرد عنه ﷺ مثلًا أنه قال أنا خيركم عبادةً أو جهادًا أو إنفاقًا. ولا شك أنه كذلك في جميع مجالات الفضائل والكمال.

الثاني: إلفات نظر المسلمين إلى قراءة سيرة رسول الله ﷺ في بعد حياته الزوجية، ليتأسّوا به، وليستلهموا من سيرته الدروس والعبر، في إدارة حياتهم العائلية.

ولسعة موضوع البحث، وكثرة شواهده، في السيرة النبوية، فسنركز على بعض النقاط المهمة.

استيعاب مشاكل العلاقات الزوجية

فالحياة الزوجية علاقة بين شخصين، رجل وامرأة، تمسّ هذه العلاقة كلّ أبعاد شخصيتهما النفسية، والجسمية، والاجتماعية، والمادية، حيث تصبح حياتهما مشتركة متداخلة، وقد شبّه القرآن الكريم هذا التداخل بين الزوجين بالتصاق اللباس بالجسم: قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.

وكذلك فإنّ اللباس ستر للجسم يقيه الحرّ والبرد والغبار والأوساخ، وهو زينة وجمال، وهذا مما تحقّقه الحياة الزوجية للطرفين.

ولكلٍّ واحدٍ من الزوجين شخصيته الخاصة المستقلة، التي تشكلت من خلال العوامل الوراثية والتربوية والمعيشية، فلكلٍّ منهما ذاته الفردية، وطبيعته، ومزاجه، وميوله، وقد يتفاوت مستواهما ثقافيًّا أو مزاجيًّا وأخلاقيًّا، ومهما كانت درجة التوافق والتقارب في الصفات والسِّمات بينهما، تبقى احتمالات الاختلاف في المزاج والتفكير والرغبة قائمة في بعض الموارد والمواقف.

من هنا لا بُدّ وأن يقرّر الطرفان استيعاب هذه الحالة، وحسن إدارتها. فلا يتوقع أيٌّ منهما التوافق مع الآخر في كلّ شيء.

ونجد في حياة رسول الله ﷺ هذا الدرس واضحًا، فهو ﷺ في قمّة الكمال الروحي والأخلاقي، وزوجاته يعرفن فضله، ويعتقدن بنبوته ومكانته عند الله، وقيادته وزعامته في المجتمع، لكنّ ذلك لم يمنع حصول بعض المشاكل في حياته الزوجية، من قبل بعض أزواجه، فكان ﷺ يستوعب ذلك بسعة صدره، ليقول لكلِّ زوج: إنّ عليه أن يستوعب مشاكل حياته الزوجية.

لقد تحدث القرآن الكريم عن حدوث بعض المشكلات في الحياة الزوجية لرسول الله ﷺ، كما في سورة التحريم حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[سورة التحريم، الآيات: ٣-٤]، وقد أشارت كتب التفسير والحديث إلى تفاصيل مختلفة عن الحادثة التي وردت حولها الآيات الكريمة، وخلاصتها: أنّ النبي ﷺ أسرَّ كلامًا لإحدى أزواجه، كان يجب أن تكتمه؛ لأنّ إظهاره لسائر الأزواج يسبب مشكلة وحرجًا، لكنّها لم تحفظ سرّ رسول الله ﷺ، بل أخبرت به زوجًا آخر، وتآمرت معها على نشره، خلافًا لأمر رسول الله ﷺ، وقد أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس أنه قال لعمر بن الخطاب: مَنِ اللَّتَانِ تَظَاهَرَتَا علَى النبيِّ ﷺ مِن أَزْوَاجِهِ؟ فَقالَ: تِلكَ حَفْصَةُ وعَائِشَةُ[1].

ومن الموارد التي تحدث عنها القرآن، في هذا السّياق ما جاء في سورة الأحزاب، حيث يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، الآيات ٢٨-٢٩].

وعن أسباب نزول هذه الآيات الكريمة، جاءت روايات ذكرتها كتب التفسير

(١) صحيح البخاري، حديث٤٩١٣.

والسيرة، مفادها: أنّ نساء النبي ﷺ وبعد أن رأين وفرة الغنائم التي نالها المسلمون في غزواتهم، طلبن من رسول الله ﷺ الصرف من تلك الغنائم، في تلبية طلباتهنّ الرفاهية، لكن هناك أولويات عند رسول الله ﷺ، للصرف على مصالح الإسلام وحاجات المسلمين، ولا يليق بشخصية النبي ﷺ أن يهتم بترفيه حياة نسائه على حساب مصالح الإسلام وحاجات المسلمين، كما ينبغي أن تكون نساؤه قدوة للآخرين في التضحية، وتحمّل صعاب الحياة، لذلك أمره الله تعالى أن يخيّر نساءه بين الصّبر على طبيعة حياته الرّسالية، أو أن ينفصل عنهنّ.

ونذكر هنا مما ورد في السيرة النبوية شواهد لبعض المشكلات في الحياة الزوجية لرسول الله ﷺ.

رفع الصوت على رسول الله ﷺ

عن النعمان بن بشير قال: اسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَسَمِعَ صَوْتَ عَائِشَةَ عَالِيًا، فَلَمَّا دَخَلَ تَنَاوَلَهَا لِيَلْطِمَهَا، وَقَالَ: أَلَا أَرَاكِ تَرْفَعِينَ صَوْتَكِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْجِزُهُ، وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُغْضَبًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ: كَيْفَ رَأَيْتِنِي أَنْقَذْتُكِ مِنَ الرَّجُلِ؟

قَالَ: فَمَكَثَ أَبُو بَكْرٍ أَيَّامًا، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَهُمَا قَدِ اصْطَلَحَا، فَقَالَ لَهُمَا: أَدْخِلَانِي فِي سِلْمِكُمَا كَمَا أَدْخَلْتُمَانِي فِي حَرْبِكُمَا[1].

يراجعنه القول ويغضبن

قال عمر: كُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا علَى الأَنْصَارِ، إذَا هُمْ قَوْمٌ تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ، فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَأْخُذْنَ مِن أدَبِ نِسَاءِ الأَنْصَارِ، فَصِحْتُ علَى امْرَأَتِي، فَرَاجَعَتْنِي، فأنْكَرْتُ أنْ تُرَاجِعَنِي، فَقالَتْ: ولِمَ تُنْكِرُ أنْ أُرَاجِعَكَ، فَوَاللَّهِ إنَّ أزْوَاجَ النبيِّ ﷺ لَيُرَاجِعْنَهُ، وإنَّ إحْدَاهُنَّ لَتَهْجُرُهُ اليومَ حتَّى اللَّيْلِ، فأفْزَعَنِي، فَقُلتُ: خَابَتْ

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج٦، ص ٩٤٤، حديث٢٩٠١.

مَن فَعَلَ منهنَّ بعَظِيم، ثُمَّ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي، فَدَخَلْتُ على حَفْصَةَ، فَقُلتُ: أيْ حَفْصَةُ، أتُغَاضِبُ إحْدَاكُنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ اليومَ حتَّى اللَّيْلِ؟ فَقالَتْ: نَعَمْ[١].

العنف والإساءة ممارسة مرفوضة

لا يليق بالرجل أن يستخدم موقع سلطته في بيته، ولا قوته وقدرته، في تعامله مع زوجه التي تعيش في ظلّه، وتحت رعايته.

إنّ جوهر أخلاق الإنسان يتجلّى في معاملته مع زوجه، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «أَكْمَلُ المُؤمِنِينَ إِيمَانًا أَحسَنُهُم خُلُقًا، وخيارُكُم خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ»[٢].

وقد روي عنه ﷺ: «ما أكرمَ النِّساءَ إلَّا كريمٌ، ولا أهانَهنَّ إلّا لئيمٌ»[٣].

وورد عن عائشة: ما ضربَ رسولُ اللَّهِ ﷺ خادمًا لَه ولا امرأةً[٤].

وعنه ﷺ: «اللَّهُمَّ إنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَعِيفَين: اليَتِيم والمَرْأَة»[٥].

وعنه ﷺ: لَا يَفْرَكْ ـ أي لا يبغض ـ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إنْ كَرِهَ منها خُلُقًا رَضِيَ منها آخَرَ، أَوْ قالَ: غَيْرَهُ[٦].

يقول تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء، الآية: ١٩].

---

(١) صحيح البخاري، حديث٢٤٦٨.
(٢) صحيح الجامع الصغير، حديث ١٢٣٠.
(٣) كنز العمال، حديث٤٤٩٤٣.
(٤) محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن ابن ماجة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، مكتب التربية العربي لدول الخليج، حديث١٦٢٧.
(٥) سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث١٠١٥.
(٦) صحيح مسلم، حديث ١٤٦٩.

أجواء المودة والاحترام

حين يتحدّث القرآن الكريم عن العلاقة الزوجية يميّزها بسمتين: المودة والرحمة، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [سورة الروم، الآية: ٢١].

والمودّة تعني المحبّة والإشباع العاطفي، أما الرحمة فتعني الشفقة حين يكون الآخر في موقع ضعف.

ونقرأ في السّيرة النبوية شواهد كثيرة، عن إغداق النبي ﷺ محبّته وعطفه واحترامه لزوجاته، فلم يكن في حياته الزوجية يمارس هيبته وقوة شخصيته، بل كان يضفي على أجواء علاقته العائلية حال التفاعل والأريحية والمسرّة.

ورد عن ابن عباس: «كَانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا صلَّى الصُّبحَ، جلسَ في مُصلَّاه، وجلسَ النَّاسُ حولَه حتى تَطلعَ الشَّمسُ، ثم دخلَ على نِسائِه امرأةً امرأةً، يُسَلِّمُ عليهِنَّ، ويدعو لهنَّ، فإذا كان يومُ إحداهُنَّ جلسَ عِندَها»[١].

وعن عائشة: كانَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ إذا انْصَرَفَ مِنَ العَصْرِ دَخَلَ علَى نِسائِهِ، فَيَدْنُو مِن إحْداهُنَّ[٢]، قال ابن حجر في فتح الباري «الذي كان يقع في أول النّهار سلام ودعاء محض، والذي كان في آخره معه جلوس، واستئناس، ومحادثة»[٣].

هكذا كان ﷺ يهتمّ بلقاء أزواجه وتفقدهنّ ومحادثتهنّ، وإشعار كلّ واحدة منهنّ بالاهتمام يوميًّا صباحًا ومساءً.

المشاركة في الخدمة المنزلية

وفي المناقب لابن شهراشوب: أنه ﷺ كَانَ يَخْدُمُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ وَيَقْطَعُ اَللَّحْمَ[٤].

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، كتاب الطلاق، ج٤، ص٤٥٥.
(٢) صحيح البخاري، حديث ٥٢١٦.
(٣) فتح الباري، ج٩، ص٣٧٩.
(٤) مناقب آل أبي طالب، ج١، ص١٤٥.

وعن عائشة: «كان رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ مَا يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ فِي بَيْتِهِ»(١)، أي يشارك زوجه في المهام المنزلية ولا يأنف من ذلك.

وأحيانًا ينادي زوجه عائشة: يا حميراء. تصغير الحمراء، وهي البيضاء المشرّبة بحمرة. وذلك بقصد إظهار الإعجاب والتدليل.

وعن أنس بن مالك أنَّ جَارًا لِرَسولِ اللهِ ﷺ فَارِسِيًّا كانَ طَيِّبَ المَرَقِ، فَصَنَعَ لِرَسولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ جَاءَ يَدْعُوهُ، فَقالَ: وَهذِه؟ لِعَائِشَةَ، فَقالَ: لَا، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: لَا، فَعَادَ يَدْعُوهُ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: وَهذِه؟ قالَ: لَا، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: لَا، ثُمَّ عَادَ يَدْعُوهُ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: وَهذِه؟ قالَ: نَعَمْ في الثَّالِثَةِ، فَقَاما يَتَدَافَعَانِ حتَّى أَتَيَا مَنْزِلَهُ(٢).

وعن أنس، بلغَ صفيَّةَ أنَّ حفصةَ قالت بنتُ يهودِيٍّ فبكت، فدخلَ عليها النَّبيُّ ﷺ وهيَ تبكي، فقالَ: ما يبكيكِ؟ قالتْ: قالتْ لي حفصةُ إنِّي بنتُ يهوديٍّ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: وإنَّكِ لابنةُ نَبِيٍّ، وإنَّ عمَّكِ لنبيٌّ، وإنَّكِ لتحتَ نبيٍّ، ففيمَ تفخرُ عليكِ(٣).

«لابنةُ نَبيٍّ»، وهو هارونُ بنُ عِمرانَ عليه السلام؛ لأنَّها مِنْ ذُرِيَّتِهِ، «وإنَّ عَمَّكِ لنَبيٌّ»، أي: موسى بنُ عِمرانَ كليمُ اللهِ عليه السلام.

أجواء الفكاهة والمرح

وعن عائشة: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ بِخَزِيرَةٍ [وهي لَحمٌ يُقطَّعُ صِغارًا ويُصَبُّ عليهِ الماءُ الكثيرُ، فإذا نَضِجَ ذُرَّ عليه الدَّقيقُ] قَدْ طَبَخْتُهَا لَهُ، فَقُلْتُ لِسَوْدَةَ ـ وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَهَا: كُلِي، فَأَبَتْ، فَقُلْتُ: لَتَأْكُلِنَّ، أَوْ لَأُلَطِّخَنَّ وَجْهَكِ، فَأَبَتْ، فَوَضَعْتُ يَدِي فِي الْخَزِيرَةِ، فَطَلَيْتُ وَجْهَهَا، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَوَضَعَ بِيَدِهِ لَهَا، وَقَالَ لَهَا: الْطَخِي وَجْهَهَا(٤).

---

(١) صحيح ابن حبّان، حديث٥٦٧٧.
(٢) صحيح مسلم، حديث٢٠٣٧.
(٣) صحيح الترمذي، حديث٣٨٤٩.
(٤) السنن الكبرى، كتاب عشرة النساء، ج٨، ص١٦٢.

وعن عائشة: رجعَ إليَّ رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يوم من جنازةٍ بالبقيعِ، وأنا أجدُ صُداعًا في رأسي، وأنا أقولُ: وارأساهُ، قال: بلْ أنا وارأساهُ، قال: ما ضَرَّكِ لو مُتِّ قبلي فغسَّلْتُكِ وكَفَّنتُكِ ثم صلَّيتُ عليكِ ودفنتُكِ؟ قلتُ: لكأنّي بكَ واللهِ لو فعلتُ ذلكَ، لقد رجعتَ إلى بيتي فأعرستَ فيهِ ببعضِ نسائِكَ، قالت: فتبسَّمَ رسولُ اللهِ[1].

الاهتداء بسيرة النبي ﷺ

إننا بحاجة للاهتداء بهذه السيرة النبوية، لكي تكون حياتنا الأسرية أكثر سعادةً واستقرارًا، فيتحمّل كلٌّ من الزوجين ويستوعب حال الاختلاف مع زوجه، وألّا يتم اللجوء إلى استخدام العنف والإساءة في الحياة الزوجية، وأن يكون التعامل بين الزوجين قائمًا على أساس الحب والاحترام والمرح والمسرّة.

إنّ تصاعد أرقام صكوك الطلاق، وزيادة الدعاوى والشكاوى الزوجية في المحاكم، وكثرة حوادث العنف الأسري، وحصول حالات التفكك العائلي في المجتمع، يدلّ على خلل كبير في ثقافة وسلوك التعامل في الحياة الزوجية.

فقد نشرت إحدى الصحف السعودية إحصائية صادرة عن برنامج الأمان الأسري في الرياض، تقول: إنّ ٥٢٪ من أطفال المملكة شهدوا حالات عنف بين الوالدين[2].

فلا بُدّ من الاهتمام بمعالجة هذا الخلل الذي يُهدّد الأمن والاستقرار الاجتماعي، عن طريق تكثيف برامج التوعية الأسرية، وإنشاء المراكز والمؤسسات المختصّة بترشيد العلاقات الأسرية، وإصلاح ذات البين.

---

(١) صحيح البخاري، حديث ٥٦٦٦.

(٢) (المعنفون والضحايا.. مأساة خلف الأبواب المغلقة) جريدة البلاد، الجمعة ١١ يونيو ٢٠٢١م.

رعاية الأحفاد في النهج النبوي

ورد في السّيرة النبوية أنه كان للنبي ﷺ سبعة أولاد، ثلاثة ذكور، وأربع إناث، وسبعة أحفاد، هم: الحسن بن علي، والحسين بن علي، وأم كلثوم بنت علي، وزينب بنت علي، وهؤلاء أمهم فاطمة الزهراء عليها السلام، وعبدالله بن عثمان بن عفان، أمّه رقية عليها السلام، توفي في حياته ﷺ، وأمامة بنت أبي العاص، أمّها زينب عليها السلام، وقد تزوجها الإمام علي بعد وفاة فاطمة الزهراء عليها السلام، وعلي بن أبي العاص، أخو أمامة، توفي في حياة رسول الله ﷺ.

ولم يكن للنبي ﷺ عقبٌ إلّا من ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام، حيث انتشر نسله الشريف من جهة السبطين الحسن والحسين عليهما السلام.

ونجد في الأحاديث ووقائع السيرة النبوية، أنّ النبي ﷺ ومع عظيم انشغالاته الرسالية والقيادية، إلّا أنه كان يصرف جهدًا، ويبدي اهتمامًا برعاية أحفاده، وخاصّة الحسنين عليهما السلام.

ولا شك أنّ في ذلك تبيينًا لمقامهما وفضلهما أمام الأمة.

لكننا يجب أن نأخذ من ذلك دروسًا تربوية. ضمن النقاط التالية:

إغداق العطف والحنان

عن أبي هريرة قال: قبَّل النَّبِيُّ ﷺ الْحسنَ بنَ عَليٍّ، وَعِنْدَهُ الأَقْرعُ بْنُ حَابِسٍ، فَقَالَ الأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشرةً مِنَ الْولَدِ مَا قَبَّلتُ مِنْهُمْ أَحدًا، فنَظَر إِلَيْهِ رسولُ اللَّه ﷺ فقَالَ: «مَن لا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ»[1].

إظهار المحبة والاحترام للأبناء أمام الناس

حيث كان ﷺ يكثر من ذلك ويظهره أمام الأمة، ولم يكن مجرّد تصرّف داخل بيته فقط، كما نجده عند كثير من الآباء والأمّهات. فكثير من الآباء لا يظهرون مشاعرهم وعطفهم على أولادهم خارج البيت، بل قد يبالغ بعض الناس في إبراز علاقة الفتور مع عائلته أمام الناس، وكأنه من المعيب أن يتعامل بالشفقة والعطف مع أبنائه أمام الناس! رسول الله ﷺ على العكس من ذلك، كان يغدق الحنان والعطف على سبطيه داخل البيت وخارجه، بل ربما كان يبرز ذلك خارج البيت أكثر، وفي ذلك رسالة مفادها:

إنّ إغداق العطف والحنان على الأبناء والأطفال، لا يشكل خفّة في الشخصية أو ابتذالًا، بل يبرز الحالة الوجدانية، وقد أراد رسول الله ﷺ بهذه الطريقة، أن يوحي إلى المسلمين أن أغدقوا العطف والحنان على أبنائكم أمام الناس؛ لأنّ ذلك يُعزّز شخصية الطفل، ويزيده ثقة بنفسه، لشعوره أنه مورد اهتمام واحترام، بخلاف زجره أمام الناس، الأمر الذي لا يراعيه كثير من الآباء، حيث يشعر الابن بزجره أمام الناس بالدونية، ويزرع في نفسه عقدة الحقارة، ويشعره بالامتهان.

عن أبي بكرة: أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ كانَ يُصَلِّي، فإذا سجَدَ وَثَبَ الحَسَنُ على ظَهرِهِ وعلى عُنُقِهِ، فيَرفَعُ رَسولُ اللهِ ﷺ رَفْعًا رَفيقًا لِئَلَّا يُصرَعَ، قالَ: فعَلَ ذلك غَيرَ مَرَّةٍ، فلمَّا

(١) صحيح البخاري، حديث٥٩٩٧.

قَضى صَلاتَهُ، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، رَأيناكَ صَنَعتَ بِالحَسَنِ شَيئًا ما رَأيناكَ صَنَعتَهُ. قالَ: إنَّهُ رَيحانَتي مِنَ الدُّنيا[١].

وعن أبي أيوب الأنصاري قال: دخَلْتُ على رسولِ اللهِ ﷺ والحَسَنُ والحُسَينُ عليهما السلام يلعبان بينَ يدَيه أو في حِجرِه فقلْتُ: يا رسولَ اللهِ، أَتُحِبُّهما؟ فقال: وكيف لا أُحِبُّهما وهما رَيحانتايَ مِنَ الدُّنيا أَشُمُّهما؟[٢].

إشراك الأبناء في الشأن العام

كان رسول الله ﷺ حريصًا على إبراز سبطيه الصّغيرين في السنّ للأمة، كما حدث في إحضاره لهما في قضية المباهلة مع نصارى نجران التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٦١]. وقبوله البيعة منهما، وما ورد في السيرة أنه سجل شهادتيهما على كتاب المعاهدة بينه وبين قبيلة ثقيف، وإحضاره لهما في الجوّ العام للأمة، الذي استفاضت به الروايات، كما نُقل أنّ الإمام الحسن بن علي عليه السلام كان يحضر مجلس رسول الله ﷺ وهو ابن سبع سنين، فيسمع الوحي ويحفظه، فيأتي أمّه فاطمة الزهراء عليها السلام فيلقي إليها ما حفظه، وكلّما دخل علي عليه السلام عليها وجد عندها علمًا بالتنزيل، فيسألها عن ذلك فتقول: «مِنْ وَلَدِكَ اَلْحَسَن»[٣].

وكان رسول الله ﷺ يهتم بإحضار سبطيه الصّغيرين إلى المسجد. روى أبو بكرة قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر، والحسن بن علي إلى جنبه، وهو يُقْبل على الناس مرّة، وعليه أخرى، ويقول: إنّ ابني هذا سيّد، ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين[٤].

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، حديث٢٠٥٣٩.
(٢) المعجم الكبير، حديث ٣٩٩٠.
(٣) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٣٨، حديث١١.
(٤) صحيح البخاري. ج٣، ص١٧٠.

حضور الأطفال في المساجد والمجالس العامة

من هنا ينبغي أن يهتم الكبار بإحضار أبنائهم في المجالس العامة. فوجود الطفل في أماكن اجتماع الناس، ينمّي شخصيته، سيّما في المساجد، لكنّنا إذا تصفّحنا جمهور المساجد، قلّما نجد أطفالًا بصحبة آبائهم! كثير من الآباء يتعذّر بخشيته أن يكون أبناؤه مصدر إزعاج للمصلين، أو يقوموا بتصرفات لا تليق بقدسية المسجد. وهذا خلاف ما نجده في السنة النبوية، إذ كان رسول الله ﷺ يصلي ويسمع بكاء طفل فيختصر في صلاته.

هناك رواية تشير إلى كراهة تمكين الأطفال في المساجد. باعتبار أنّ المسجد للعبادة ولا يصلح للصّغار، لكنّ بعض العلماء التفتوا إلى أنّ الرواية ضعيفة السند من جهة، ومن جهة ثانية أنّ المراد بالأطفال هم الذين لا يتحفّظون في النّجاسة. ولهذا يعلّق السيّد الشيرازي (رحمه الله) في موسوعته الفقهية على هذه المسألة قائلًا: «والظاهر أنّ المراد الأطفال الذين هم مظنّة التنجيس والأذية ونحوهما، لا الأطفال للصّلاة، فقد صح دخول الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام وأمامة وغيرهم مسجد رسول الله ﷺ، وعناية الرسول ﷺ بهم، بل الإطلاقات منصرفة عن ذلك»[١]. ويعلّق السيّد السيستاني على هذه المسألة في العروة الوثقى بقوله: إذا لم يؤمن تنجيسهم المسجد، وإزعاجهم فيه، وإلّا فلا بأس به ولربما يكون راجحًا[٢].

الاهتمام بالأحفاد

في هذا العصر ومع انشغال الأبوين غالبًا، فإنّ على الأجداد والجدّات أن يبدوا اهتمامًا أكبر بالأحفاد والأسباط، ليساعدوا في تربيتهم، ويملؤوا الفراغ الذي يحصل من انشغال الأبوين.

---

(١) السيد محمد الحسيني الشيرازي. الفقه، كتاب الصلاة، ج١٩، ص٢٨٥.

(٢) العروة الوثقى للسيد محمد كاظم اليزدي مع تعليقة السيد علي السيستاني. ج٢، كتاب الصلاة هامش ص٨٨. الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، (قم: مكتب آية الله السيد علي السيستاني).

إنّ إغداق الحبّ والحنان على الأبناء والأحفاد ضروري جدًّا، لإثراء مشاعرهم الإيجابية، وبناء نفوسهم القويمة. ويجب التحذير من أساليب العنف مع الأبناء، فإنه يجرح مشاعرهم، ويزرع العقد والسّلبيات في نفوسهم، ويربّيهم على ممارسة العنف مع الآخرين.

ومن المؤسف جدًّا ما تتحدّث به بعض الإحصائيات عن ارتفاع معدّلات استخدام العنف ضدّ الأطفال في بلادنا.

فقد (استقبل مركز مساندة الطفل التابع لبرنامج الأمان الأسري خلال العام ٢٠١٩م ٣٦٠٠ حالة، وتنوعت الحالات ما بين عنف عاطفي بنسبة ٣٤٪ وجسدي بنسبة ٢٩٪ وإهمال بنسبة ٢٦٪)[١].

إنّ رعاية الطفولة، وتربية الجيل الناشئ، مهمّة دينية وطنية اجتماعية، يجب أن تشارك كلّ الجهات في إنجازها، لنضمن للوطن والمجتمع مستقبلًا أفضل وجيلًا صالحًا.

(١) (العنف.. آثار مدمّرة على صحة ودراسة الأطفال)، جريدة المدينة ٢ ديسمبر ٢٠٢٠م.

العمالة المنزلية وأخلاق النبوة

أن يحترم الإنسان من هو أعلى منه رتبة ومكانة، فذلك أمر طبيعي، تفرضه معادلة الحياة الاجتماعية، وكذلك الحال في احترام الإنسان لأنداده، حيث يتوقع منهم مبادلته الاحترام.

أمّا أن يحترم الإنسان من يعمل تحت سلطته ونفوذه، كالخادم والأجير عنده، فذلك لا يصدر إلّا عن صاحب خلق رفيع، وشعور إنساني عميق.

حيث يجد الإنسان نفسه في موقع الآمر الناهي لخادمه وأجيره، ويكون الخادم والأجير في موقع الباحث عن رضاه، والخاضع له، وقد يكون مضطرًّا للقيام بهذه المهنة وهذا الدور.

لذلك عادة ما يعاني أفراد هذه الشريحة، كالعمالة المنزلية، من سوء التعامل، والجور على حقوقهم، وامتهان كرامتهم. وقد تحدّثت تقارير دولية عن هذه المشكلة في مختلف الدول.

ووثقت حوادث كثيرة من التنكيل، والاعتداء، ومصادرة الحقوق، وعدم إعطاء المستحقّات المالية.

فقد أصدرت منظمة «هيومن رايتس واتش» في يوليو ٢٠٠٨ تقريرًا جاء في أكثر من ١٧٣ صفحة بعنوان «كأنني لست إنسانة» تحدّث عن وضع العاملات في المنازل السعودية، ولخّصت حالتهنّ بالقول «في أحسن الأحوال تتمتع النساء المهاجرات في السعودية، بظروف عمل طيّبة، وأصحاب عمل طيبين، وفي أسوأ الأحوال يعاملن كما العبيد.. ومعظم العاملات تتراوح معاملتهنّ بين هذين المستويين».

وذكرت بعض الدراسات، أنّ عاملات المنازل يتعرّضن للعنف بأشكاله المختلفة، مثل: سوء المعاملة، عدم صرف الرواتب، اعتداء جنسي، قيام الأسرة بإعارة الخادمة للعمل لدى الغير... ويتمثّل العنف الجسدي بالضرب، والكيّ، والحجز في غرفة ما، أو منعها من الطعام، وضربها بالعصا أو الطعن بالسكين. واحتمال تعرّضها للعنف الجنسي من قبل أحد أفراد الأسرة. مما يجعل بعضهنّ يلجأن إما للانتحار، أو الهروب من المنزل، والتعرض لحوادث السّقوط، والإصابات الخطيرة، من جرّاء محاولة الهروب[١].

يحدث هذا التعدي عليهنّ، رغم أنّ نظام العمل في المملكة، أكّد من خلال أحكامه على حفظ كرامة العامل، وتهيئة بيئة عمل صحية، وأوضح حقوق وواجبات كلّ طرف من أطراف العلاقة العمالية تجاه الآخر[٢].

الخلق النبوي الرفيع

ومما تميّزت به سيرة رسول الله ﷺ، تعامله الأخلاقي الإنساني الرفيع، مع خدمه والقائمين بأداء ما يرتبط بشؤونه الشخصية.

---

(١) صحيفة عكاظ: https: //www.okaz.com.sa/article/368441 . بتاريخ السبت ١١ ديسمبر ٢٠١٠م.

(٢) كيف تحمي أنظمة المملكة الحقّ في العمل؟: هيئة حقوق الإنسان، https://www.hrc.gov.sa/ar-sa/HumanRightsInSaudi/Pages/work.aspx

أولًا: التواضع والاحترام

كان ﷺ لا يتعالى على خادميه، بل كان متواضعًا لهم، وربما أكل مع خدمه إذا أكلوا، وورد أنه ﷺ كان لا يرتفع على عبيده وإمائه في مأكل ولا في ملبس.

وكان يقول لأم أيمن (خادمته): «يا أُمَّه». وقال: «أُمُّ أَيْمَنَ، هِيَ أُمِّي بَعْدَ أُمِّي، وَكَانَ يَزُورُهَا فِي بَيْتِهَا»(١).

وكان يوصي أصحابه قائلًا: «لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وأَمَتي، كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ، وكُلُّ نِسائِكُمْ إماءُ اللهِ، ولَكِنْ لِيَقُلْ غُلامِي وجارِيَتي وفَتايَ وفَتاتِي»(٢).

وورد عنه ﷺ: «إذا أَتَى أَحَدَكُمْ خادِمُهُ بطَعامِهِ، فإنْ لَمْ يُجْلِسْهُ معهُ، فَلْيُناوِلْهُ لُقْمَةً أوْ لُقْمَتَيْنِ أوْ أُكْلَةً أوْ أُكْلَتَيْنِ، فإنَّه ولِيَ عِلاجَهُ»(٣).

كما روى عنه أبو ذرٍّ أنه ﷺ قال: «إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ(٤)، جَعَلَهُمُ اللّهُ تحتَ أَيْدِيكُمْ. فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مما يأكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِما يَلْبَسُ. ولا تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ فإنْ تكلَّفوهُمْ فأعِينُوهُمْ».

ثانيًا: الرفق والعفو

كان رفيقًا بهم، لا يجرح مشاعر أحد منهم، ولا يسيء لمن أخطأ منهم.

فقد ورد في سيرته ﷺ أنه: مَا شَتَمَ أَحَدًا بِشَتْمَةٍ، وَلاَ لَعَنَ اِمْرَأَةً، وَلاَ خَادِمًا بِلَعْنَةٍ، وَلاَ لاَمُوا أَحَدًا إِلَّا قَالَ: دَعُوهُ(٥).

وعن زوجه عائشة قالت: ما ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً،

---

(١) عز الدين ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، الطبعة الأولى١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٧، ص٢٩٠، ترجمة ٧٣٧١.

(٢) صحيح مسلم، حديث٢٢٤٩.

(٣) صحيح البخاري، حديث ٢٥٥٧.

(٤) الخول هم الخدم.

(٥) بحار الأنوار، ج١٦، ص٢٢٦، حديث ٣٤.

وَلَا خَادِمًا[١].

وعن أَنَسٍ قَالَ: خَدَمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا أَمَرَنِي بِأَمْرٍ فَتَوَانَيْتُ عَنْهُ، أَوْ ضَيَّعْتُهُ، فَلَامَنِي، فَإِنْ لَامَنِي أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ إِلَّا قَالَ: « دَعُوهُ، فَلَوْ قُدِّرَ – أَوْ قَالَ: لَوْ قُضِيَ – أَنْ يَكُونَ كَانَ[٢].

وعن ابن عمر: أنَّ رجلًا أتى النَّبيَّ ﷺ فقال إنَّ خادمي يسيءُ ويَظلِمُ أفأضرِبُه؟ قال: تعفُو عنه كلَّ يومٍ وليلةٍ سبعينَ مرَّةً[٣].

وعن أبي مسعود: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي، فَسَمِعْتُ مِن خَلْفِي صَوْتًا: اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، لَلَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عليه، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هو رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، فَقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، هو حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ، فَقالَ: أَما لو لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ، أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ[٤].

ثالثًا: التَّفَقُّدُ والاهتمام

كان ﷺ يتفقّد خادميه ويهتمّ بشؤونهم الشّخصية.

عنْ أَنَسٍ، قَالَ: كَانَ غُلاَمٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»[٥].

وورد عن خادم للنبي ﷺ: كَانَ النبي ﷺ مِمَّا يَقُولُ لِلْخَادِمِ: أَلَكَ حَاجَةٌ؟[٦].

---

(١) صحيح مسلم، حديث ٢٣٢٨.
(٢) مسند أحمد بن حنبل، حديث ١٣٤١٨.
(٣) محمد ناصر الدين الألباني صَحِيحُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، مكتَبَة المَعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، الرياض، حديث٢٢٨٩.
(٤) صحيح مسلم، حديث١٦٥٩.
(٥) صحيح البخاري، حديث١٣٥٦.
(٦) مسند ابن حنبل، حديث ١٦٠٧٦.

وعن ربيعة بن كعب الأسلمي: كُنتُ أخدُمُ النَّبيَّ ﷺ نَهاري، فإذا كان اللَّيلُ آوَيْتُ إلى بابِ رسولِ اللهِ ﷺ فبِتُّ عنده، فلا أزالُ أسمَعُه يقولُ: سُبحانَ اللهِ! سُبحانَ اللهِ! سُبحانَ ربِّي! حتَّى أمَلَّ أو تَغلِبَني عيني فأنامَ، فقال يومًا: يا رَبيعةُ، سَلْني فأُعطيَكَ؟ فقلتُ: أَنظِرْني حتَّى أَنظُرَ، وتذَكَّرْتُ أنَّ الدُّنيا فانيةٌ مُنقطِعةٌ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أسأَلُكَ أنْ تَدعُوَ اللهَ أنْ يُنجيَني مِنَ النَّارِ ويُدخِلَني الجنَّةَ، فسكَتَ رَسولُ اللهِ ﷺ، ثمَّ قال: مَن أمَرَكَ بهذا؟ قلتُ: ما أمَرَني به أحدٌ، ولكنِّي علِمتُ أنَّ الدُّنيا مُنقطِعةٌ فانيةٌ، وأنتَ مِنَ اللهِ بالمكانِ الَّذي أنتَ منه؛ فأحبَبْتُ أنْ تَدعُوَ اللهَ لي، قال: إنِّي فاعِلٌ، فأَعِنِّي على نفسِكَ بكثرةِ السُّجودِ[1].

عنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: كَانَتْ سَوْدَاءُ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ، فَتُوُفِّيَتْ لَيْلًا، فَلَمَّا أَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، أَخْبِرَ بِمَوْتِهَا، فَقَالَ: «أَلاَ آذَنْتُمُونِي بِهَا؟» فَخَرَجَ بِأَصْحَابِهِ، «فَوَقَفَ عَلَى قَبْرِهَا، فَكَبَّرَ عَلَيْهَا، وَالنَّاسُ مِنْ خَلْفِهِ، وَدَعَا لَهَا، ثُمَّ انْصَرَفَ»[2].

أوضاع العمالة الوافدة

وعلى ضوء هذه السيرة النبوية الهادية، يجب الاهتمام بأوضاع العمالة المنزلية، وعموم أوضاع العمالة الوافدة، وهي تشكل نسبة كبيرة في عدد من بلداننا، ففي السعودية أكثر من ١٣ مليون أجنبي من أصل ٣٤ مليون هم عدد سكان المملكة. منهم أكثر من ٣,٦٠ مليون عمالة منزلية، من خدم وعمال تنظيف وسائقين وحرّاس منازل ومربّيات وممرضين.

ويعاني بعضهم من سوء المعاملة وانتهاك الحقوق، وهذا ما لا يجوز حصوله في مجتمعات تنتمي إلى الدين.

فيجب الاهتمام بتطوير التشريعات والقوانين التي تحمي حقوقهم، وتصون كرامتهم الإنسانية.

---

(١) مجمع الزوائد، ج٢، ص٢٥٢.
(٢) سنن ابن ماجة، حديث١٥٣٣.

وقد كشفت الإجراءات التي اتّخذتها الدولة لمواجهة جائحة كورونا، أنّ قسمًا من هذه العمالة الوافدة، يعيشون في بيئة غير مناسبة لحياة البشر، حيث يتكدّسون في مساكن محدودة المساحة، ولا تتوفر فيها أدنى الاشتراطات الصحية.

وقد أكّد رئيس جمعية حقوق الإنسان الدكتور مفلح القحطاني لـ «صحيفة الوطن»: استمرار تكدّس العمالة في مقارّ سكنهم، إذ بلغ متوسط الكثافة ٦٠ عاملًا في بعض تلك المساكن، من كلّ الجنسيات، في أحواش عشوائية، تفتقد مقوّمات النظافة، إضافة إلى عدم التزام العاملين بالاشتراطات الصحية، في التباعد أو لبس الكمام والقفاز[١].

لا بُدّ من نشر ثقافة التعامل الإنساني مع أفراد هذه الشريحة من قبل مستخدميها، ومن عامة المواطنين. لنحقق الاقتداء بسيرة نبيّنا ﷺ والالتزام بأحكام وآداب شريعته.

(١) حقوق الإنسان ترصد مخالفات في مقرّات سكن العمالة: صحيفة الوطن، الأربعاء ٢٢ أبريل ٢٠٢٠م.

الفصل الثالث

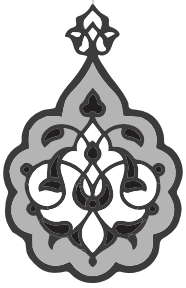

الإدارة بالحبّ

معاناة الرسول ﷺ في تبليغ الرسالة

يبدي كثير من الباحثين الأجانب ـ غربيين وشرقيين ـ دهشتهم لضخامة الإنجاز الذي حققه الرسول محمد ﷺ، في مدة قياسية، ومساحة زمنية محدودة، فما كاد يمر على بدء الدعوة عقد ونصف من الزمن، حتى تمكن رسول الله ﷺ من بناء مجتمع إيماني متماسك، وإقامة كيان رسالي متحضر، على أنقاض حياة جاهلية قبلية متخلفة. لينطلق بعد ذلك مارد الحضارة الإسلامية المشرقة.

وفي الحقيقة فإن النشاط الجاد المكثف، والجهد الدعوي الكبير، الذي بذلـه رسول الله ﷺ، هو الذي اختصر أمام الرسالة مسافة الزمن، وضاعف من سرعة خطوات حركتها المباركة. وذلك بتوفيق الله تعالى ورعايته.

فبعد نزول الوحي عليه ﷺ أصبح في حركة دائبة، وسعي متواصل، لم يعرف للراحة طعمًا، ولم يجد التعب والكلل إليه

سبيلًا. وتقلّص حتى نومه في الليل، استجابة لأمر ربه تعالى الذي حمله المسؤولية الخطيرة الثقيلة وخاطبه بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلًا * نِصْفَهُ أو انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أو زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[سورة المزمل: آية ١ – ٥].

وكانت قضية الرسالة تأخذ من نفسه ﷺ مأخذًا كبيرًا، حتى دعاه الله تعالى إلى الرأفة بنفسه، والشفقة عليها، وخاطبه تعالى بقوله: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾[سورة طه : آية ١-٢].

الراحة والرخاء قبل البعثة

كان ﷺ قبل البعثة يعيش حياة راحة ودعة، فهو ينتمي إلى أفضل أسرة في قريش، ويحظى بحب شيوخ أسرته واحترامهم، فهو قد ولد يتيمًا، حيث مات أبوه عبد الله في ريعان شبابه، وبعد ذلك فقد أمه آمنة بنت وهب، مما جعله محل عطف وشفقة زعيم الأسرة جده عبد المطلب ﷺ، ثم موضع تقدير خلفه في الزعامة أبي طالب ﷺ، إضافة إلى أن حسن سلوكه ومكارم أخلاقه، قد أكسبته الاحترام العام في المجتمع، حيث لم يلحظ عليه أحد أي ميل أو نزوع لنزق الشباب آنذاك وطيشهم، ولم تجتذبه أية ممارسة من العادات والتقاليد الوثنية الجاهلية، وما سُجّل عليه خلل في قول، ولا خطل في فعل، فأصبح يعرف وسط مجتمعه بالصادق الأمين.

وزواجه من خديجة بنت خويلد ﷺ، أثرى وأعزّ امرأة في قريش، التي كان الرجال يتاجرون في أموالها، وكان الزعماء يطمحون للاقتران بها، هذا الزواج الذي جاء برغبة منها، وفّر للنبي ﷺ أجواءً هانئة، وعيشة مستقرة وادعة.

حيث أغدقت عليه خديجة حبها وحنانها، ووضعت تحت تصرفه كل ثروتها وإمكاناتها.

هكذا كانت حياته قبل البعثة، استقرارًا نفسيًا، وسعادة عائلية، ورخاءً اقتصاديًا،

واحترامًا وسمعة اجتماعية.

معاناة التبليغ

وما إن صدع محمد ﷺ برسالة ربه، وأعلن ثورته الإلهية على واقع الوثنية والشرك، حتى انقلبت أوضاع حياته رأسًا على عقب، حيث لم يكن من السهل على أولئك الناس الذين ألفوا عبادة الأصنام، ونشأوا على الوثنية والفساد، أن يتخلوا عن عاداتهم وممارساتهم المتجذرة في حياتهم، كما أن الزعامات ومراكز القوى كانت تريد الحفاظ على نفوذها ومكانتها، وترى في الرسالة الجديدة نسفًا لمواقعها، وتهديدًا لمصالحها.

من هنا فقد انتفض الجميع في مكة رفضًا لرسالة محمد، ومعارضة لدعوته، وعداءً ومناوءة لشخصه ووجوده. وشنّوا عليه حربًا ضارية شاملة، فقد اتهموه بالكذب والجنون والسحر، بعد أن كانوا يسمّونه الصادق الأمين، وصاروا يواجهونه بالسخرية والإهانة والتحقير، بعد أن كان معززًا محترمًا في أوساطهم، وتجرأ عليه حتى جهالهم وسفهاؤهم يؤذونه حينما يمشي في الطريق.

ثم تطوّر عدوانهم إلى حالة فرض الحصار الاقتصادي، والمقاطعة الاجتماعية، عليه وعلى أسرته بني هاشم، فاتفقت قبائل قريش وتعاهدت على ذلك، وكتبوا صحيفة علقوها في جوف الكعبة، بأن لا يُنكحوا أحدًا من بني هاشم، ولا يَنكحوا منهم، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم، ولا يقبلوا منهم صلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يُسلموا رسول الله ﷺ للقتل.

ولجأ محمد ﷺ وأسرته إلى شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة، يعانون الحرمان والحصار الاقتصادي والاجتماعي، ولا يجدون في بعض الأحيان وسيلة إلى الطعام يدفعون بها جوعهم.

روى البلاذري عن ابن عباس قال: حُصِرنا في الشعب ثلاث سنين، وقطعوا عنا

المِيرة حتى إن الرجل ليخرج بالنفقة فما يبايع حتى يرجع، حتى هلك من هلك.

قال ابن إسحاق وغيره: فأقاموا على ذلك ثلاث سنين حتى جهدوا، ولا يصل إليهم شيء إلّا سرًّا مستخفيًا به من أراد صلتهم من قريش[١]. حتى أكلوا ورق الشجر اليابس ليدرأوا به غوائل الجوع، وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشعب يتضورون من الجوع[٢].

صور من المعاناة

من أصعب ألوان المعاناة على الإنسان، إذا كان محترمًا عزيزًا وصاحب سمعة في مجتمعه، أن تتعرض صورته للتشويه، وأن تتحطم سمعته ومكانته عند من حوله، وهذا ما واجهه رسول الله ﷺ من المشركين، فقد صبوا عليه صنوف الأذى والإهانة، فتحملها في سبيل الله صابرًا محتسبًا، حتى قال ﷺ ـ ما روى عنه أنس بن مالك ـ: «ما أوذي أحد مثل ما أوذيتُ في الله»[٣].

ولننقل بعض صور المعاناة التي تحملها رسول الله ﷺ.

التضور جوعًا:

كان رسول الله ﷺ غنيًا يتصرف في أموال زوجته خديجة كما يشاء، لكنه أنفقها في سبيل الله، كما عاش حالة الحصار والمقاطعة من قبل المشركين، لذلك كانت تمر عليه فترات من الزمن وهو يتضور من الجوع، ولم يكن يتوفر له في اليوم من الطعام إلا مقدار بسيط يمكن إخفاؤه تحت الإبط، كما روي عنه ﷺ أنه قال: «لقد أتت عليّ ثلاثون من يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال»[٤].

---

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ج٢، ص٣٧٨.
(٢) د. محمد بيومي مهران، السيرة النبوية الشريفة، ج١، ص٢٣٠.
(٣) كنز العمال، حديث رقم ٥٨١٨.
(٤) كنز العمال، حديث رقم ١٦٦٧٨.

أذى عمه أبي لهب:

كم هو صعب على الإنسان إيذاء الأقربين له؟ وكم هو مؤلم أن يشهّر به ويعيبه أرحامه؟ هكذا كانت حال رسول الله ﷺ مع عمه أبي لهب.

عن طارق المحاربي قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز فمرّ وعليه جبة له حمراء، وهو ينادي بأعلى صوته: يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، ورجل يتبعه بالحجارة، وقد أدمى كعبيه وعرقوبيه، وهو يقول: يا أيها الناس! لا تطيعوه فإنه كذاب، قلت: من هذا؟ قالوا: غلام من بني عبد المطلب، قلت: فمن هذا يتبعه يرميه؟ قالوا: هذا عمه عبد العزى وهو أبو لهب[١].

إهانة وأذى:

عن منيب بن مدرك بن منيب عن أبيه عن جده قال: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية وهو يقول: يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، فمنهم من تفلَ في وجهه، ومنهم من حثا عليه التراب، ومنهم من سبّه، فأقبلت جارية بعُس من ماء فغسل وجهه ويديه وقال: يا بنية! اصبري ولا تحزني على أبيك غلبةً ولا ذلًا[٢].

محاولة لخنقه من رقبته:

روى البخاري وابن المنذر وأبو يعلى والطبراني عن عروة قال: سألت عمرو بن العاص فقلت: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ. قال: بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عليه عُقبة بن أبي مُعيط، فوضع ثوبه على عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا[٣].

---

(١) المصدر نفسه، حديث رقم ٣٥٥٣٨.

(٢) المصدر نفسه، حديث رقم ٣٥٥٤١.

(٣) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ج٢، ص٤٣٦.

ضربوه حتى أُغمي عليه:

روى البزار وأبو يعلى برجال الصحيح عن أنس ﷺ: لقد ضربوا رسول الله حتى غشي عليه. فقام أبو بكر ينادي: ويلكم أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله، فقالوا: من هذا؟ فقالوا: أبو بكر المجنون[١].

سخرية وتحقير:

روى الشيخان والبزار والطبراني عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: ما رأيت رسول الله ﷺ دعا على قريش غير يوم واحد، فإنه كان يصلي ورهط من قريش جلوس، وسلا جزور (كرش ناقة مذبوحة) نحرت بالأمس قريبًا، فقالوا: من يأخذ سلا هذا الجزور فيضعه على كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقاهم عقبة بن أبي معيط، فجاء به فقذفه على ظهره، فضحكوا وجعل بعضهم يميل إلى بعض، والنبي ﷺ ما يرفع رأسه، وجاءت فاطمة ﷺ، فطرحته عن ظهره، ودعت على من صنع ذلك.

فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، رفع رأسه فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثًا، وإذا سأل سأل ثلاثًا، ثم قال: «اللهم عليك بالملأ من قريش»[٢].

يوم الطائف:

ولعل من أشد الأيام وأصعبها على رسول الله ﷺ هو يوم الطائف، حيث سافر إليها من مكة، بعد أن تصاعدت عليه الضغوط، وأحكم حوله المشركون الحصار والمناوءة، واستفردوا به حينما مات ناصره والمحامي عنه عمه أبو طالب ﷺ، وكذلك ماتت زوجته الحنون خديجة، فأصبح مكشوفًا أمام أعدائه، يحيط به الأذى من كل جانب، لذلك سافر إلى الطائف علّه يفتح ثغرة في جدار الحصار، أو يسجّل اختراقًا يعزز وضعه وسط قريش.

---

(١) المصدر نفسه، ص٤٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٣٧.

وقصد هناك زعماء ثقيف أهم قبيلة في الطائف، وكانوا ثلاثة أخوة: عبد ياليل ومسعود وحبيب، فعرض عليهم الإسلام، فرفضوا دعوته بجفاء وغلظة، وقال له أحدهم: هو يمرط (أي يمزّق) ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك!

وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك؟

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، لئن كنت رسولًا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرًا من أن أردّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك!

فلما يئس من قبولهم الإسلام، طلب إليهم أن يجيروه ويحموه لكي يدعو الناس وهو آمن، فرفضوا طلبه أيضًا.

فقال لهم أخيرًا: إذا فعلتم فاكتموا عليَّ. لأنه كره أن تعلم قريش بما حصل فتشمت به وتزداد جرأة عليه.. فلم يجيبوه حتى لهذا الطلب البسيط، بل أغروا سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس.

قال ابن عقبة: وقفوا له صفين على طريقه، فلما مر رسول الله ﷺ بين الصفين جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه.

زاد سليمان التيمي: أنه ﷺ كان إذا اذلقته (أي أضعفته) الحجارة يقعد إلى الأرض فيأخذون بعضديه ويقيمونه، فإذا مشى رجموه بالحجارة وهم يضحكون.

قال ابن عقبة: فخلص منهم ورجلاه تسيلان دمًا، فعمد إلى حائط من حوائطهم (أي بستان) وأتى ظل شجرة فصلى ركعتين ثم قال: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبال، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو تحل

عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»[١]، هذه بعض الصور من معاناة رسول الله ﷺ في تبليغ الرسالة.

الأسوة والقدوة

تلك كانت يوم كان في مجتمع قريش بمكة، وبالهجرة إلى المدينة دخل الرسول ﷺ مرحلة جديدة ذات ألوان أخرى من المعاناة، حيث شنت عليه الحملات العسكرية، وخاض المعارك والحروب، وواجه فتن المنافقين، ومؤامرات اليهود، وغلظة الأعراب وجفاف أخلاقهم، ولا يتسع المجال الآن للحديث عن العهد المدني.

لكن ما يجب التأكيد عليه، أن نتأسى برسول الله ﷺ ونقتدي به، في تحمل مسؤولية الدعوة إلى الله تعالى.

إن مجتمعاتنا تواجه الآن أخطارًا بالغة تتمثل في تسلل أفكار الانحراف، وثقافة الفساد، وأنماط السلوك الإجرامي، لقد أصبحنا نسمع عن تورّط العديد من أبنائنا وبناتنا في مشكلة تعاطي المخدرات والإدمان عليها، حتى اضطرت الجهات الرسمية إلى إقامة مستشفيات ومؤسسات خاصة لإنقاذ المبتلين بهذا المرض الخطير الفتاك، وتعلن الجهات الحكومية المعنية بين فترة وأخرى عن ضبط كميات من هذه الأدواء الخبيثة.

وبالتأكيد فإن ما يكتشف ويصادر هو الجزء البسيط، ذلك لأن منطقتنا الآن مستهدفة من قبل تجار المخدرات وعصابات الإجرام، لما في أيدي أبنائها من سيولة نقدية يجعلها سوقًا استهلاكية مغرية، ولما يطمح إليه الأعداء من تمييع شعوب هذه المنطقة، لتسهيل هيمنتهم، وتسخيرها لخدمة مصالحهم السياسية والاقتصادية.

وهذا ما أكده أحد المسؤولين في منظمة (إنتربول) قبل فترة، وهو الشخصية

---

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ج٢، ص٤٣٨.

البارزة في المنظمة واسمه (آر. سندرا. لينغام) حيث ألقى حديثًا في مؤتمر لمكافحة المخدرات عقد على هامش معرض (ميليبول قطر ٩٦) ودق ناقوس الخطر، وأعطى أرقامًا دلت على أن منطقة الخليج العربي، باتت مستهدفة بشكل مركز من قبل تجار المخدرات، وأن عصابات الإجرام تتطلع إلى هذه المنطقة بصفتها سوقًا جديدة مهمة[1].

وهناك تأثيرات هذا الانفتاح الإعلامي الكبير، حيث تضخ القنوات الفضائية، إلى أذهان ونفوس المشاهدين في هذه المناطق، سيلًا هائلًا من المعلومات والانطباعات والاندفاعات التي تنتج أنماطًا منحرفة من السلوك والممارسات على المستوى الأخلاقي والاجتماعي.

بحيث أصبحنا نشاهد تصرفات شائنة من قبل بعض الفتيان والفتيات في مجتمعاتنا، تجعل الإنسان يتساءل بحيرة: هل هؤلاء من أبناء هذا المجتمع؟

إننا جميعًا مطالبون بواجب الدعوة إلى الله، والقيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يصح أبدًا أن نراهن على الردع والإجراءات الرسمية فقط، فالمسألة بحاجة إلى الكثير من التخطيط والجهد المكثف للعمل في أوساط هذا الجيل الناشئ، لمساعدته على استيعاب تأثيرات هذا الانفتاح، والتحصن ضد آثارها السلوكية والأخلاقية.

إن المساجد والمؤسسات الدينية والاجتماعية يجب أن تنشط دورها، وتكثّف فاعليتها، وخصوصًا في فترة العطلة الصيفية، وإن علماء الدين والواعين من أبناء المجتمع عليهم أن يعلنوا حالة الطوارئ التربوية الثقافية لمواجهة هذه الأخطار الجارفة، ورجال المال والثروة لا بد أن يبذلوا أموالهم في سبيل الدعوة إلى الله.

وإذا كان رسول الله ﷺ قد أعطى كل وجوده وحياته، وتحمّل ضروب الأذى والمشاق في سبيل الدعوة إلى الله، فهل نبخل نحن بأنفسنا وأموالنا وأوقاتنا وسمعتنا

(١) الحياة: جريدة يومية، لندن، ١ رجب ١٤١٧هـ.

وجاهنا؟

إن البعض يتلكأ عن تحمل أبسط المسؤوليات، والقيام بأقل المهام، حفاظًا على راحته، وحرصًا على جاهه وسمعته، فكيف إذًا ننال ثواب الله إذا لم نُضَحِّ ونتحمل الأذى في سبيله؟ ثم كيف ندّعي الانتماء إلى رسول الله ولا نحاول التأسي به؟

وماذا سيكون مستقبل أبنائنا ومجتمعنا ووطننا إذا لم نتصدّ لما يحيط بنا من الأخطار والمكاره؟

الحوار والإقناع.. مشاهد من السيرة النبوية

إنما يؤمن الإنسان بفكرة إذا اقتنع بها، أو توفّر في نفسه انشداد إليها، أما الفرض والإكراه، فأثره معدوم في مجال تثبيت الأفكار والقناعات، وغاية ما ينتجه التظاهر بالاقتناع والقبول، مع استقرار حالة الرفض والممانعة الداخلية، كما يقول تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[سورة النحل آية ١٠٦].

وكذلك لا يندفع الإنسان إلى عمل أو حركة، إلا إذا امتلك الرغبة في ذلك، ورأى فيه مصلحة وكسبًا لذاته، معنويًا أو ماديًا.

ومن يسعى لنشر فكرته في أوساط الآخرين، ويهمه استجابتهم لدعوته، عليه أن يبحث عن منافذ التأثير على نفوسهم، وطرق الوصول إلى عقولهم، ليضمن اقتناعهم وقبولهم بفكرته ودعوته.

ولأن الله سبحانه وتعالى يريد من عباده إيمانًا صادقًا، فقد ترك لهم حرية الاختيار، ومنحهم العقل والإرادة، وجعل وظيفة أنبيائه التذكير والتبليغ، ولم يسمح لهم بممارسة أي لون من

ألوان الفرض والإكراه.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[سورة يونس: آية ٩٩].

ويقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾[سورة الغاشية: آية ٢٢،٢١].

ويقول تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾[سورة النحل: آية ٣٥].

لقد زوّد الله تعالى أنبياءه بأعلى قدرة وكفاءة ممكنة، ليقوموا بدور تبليغ الرسالة، عن طريق إثارة العقول، وجذب النفوس، ليكون إيمان الناس بها عن قناعة ورضى واطمئنان.

فأنبياء الله تعالى يمتازون بالقدرة على طرح دعوتهم الإلهية، ببيان واضح، يخاطب العقل، ويوافق الفطرة، ويحرّك النوازع الخيّرة في النفس. وهو البلاغ المبين.

كما يتحلّون بسعة الصدر، ورحابة الأخلاق، وصدق المحبة للناس، فيصبرون على الأذى، ولا ينفعلون أمام الإساءات، ويتحملون جهل الجاهلين، وتصرفات المعاندين. وتلك صفات مساعدة على النجاح في الدعوة.

ونبينا محمد ﷺ هو في القمة من هذه الخصائص والصفات، فهو أفضل الأنبياء، وسيد المرسلين، قام بأعباء الدعوة إلى الله تعالى في مجتمع غارق في الوثنية والشرك، خاضع للعصبيات القبلية، نشأ أبناؤه على الاعتزاز بالذات والقبيلة، مما جعلهم صعبي المراس، يستعصون على الإخضاع والانقياد.

لكن جهود النبي ﷺ، وكفاءته العظيمة، نجحت في استقطابهم للدعوة الإلهية، وخلقت منهم أمة إسلامية رائدة، تحمل رسالة الله إلى شعوب الأرض.

فكيف تحقق ذلك؟

لم تكن لرسول الله ﷺ عند بعثته قوة عسكرية قبلية، تفرض دعوته على قبائل العرب، بل كان في موقع ضعف واضح، ويكفي أن قريشًا فرضت عليه وعلى أسرته الحصار والمقاطعة الاجتماعية والاقتصادية ثلاث سنين. . ولم تكن له ثروة يستميل بها الزعامات والعشائر، بل كان يتيمًا فقيرًا أسعفته أموال زوجته خديجة في تسيير أمور حياته، لكنه نجح في استمالة النفوس بعظيم أخلاقه، واستطاع كسب العقول بفصاحة بيانه، وقوة حجته، وحسن منطقه.

سلك رسول الله ﷺ طريق البلاغ المبين، وأسلوب الحوار الهادئ، ونهج الإقناع الصادق. ومن يقرأ سيرته الكريمة، ويتأمل تخاطبه وتعامله مع الناس، في طرح دعوته ورسالته، يندهش لتلك القدرة الفائقة، والأدب الرفيع، وكما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ونلتقط من سيرته العطرة بعض الصور والمشاهد، عن حواراته، ومنهجه في إقناع الآخرين برسالته ومواقفه الشرعية، لتكون نبراسًا لنا في طريق الدعوة إلى الله، والتعامل مع الآخرين.

الاتهام بالجنون

كان من التهم التي أثارها المشركون على رسول الله ﷺ، لينفروا الناس عنه، أن رموه بالجنون، وأنه أصابه مسّ من الجن، فما يدعيه من الرسالة والنبوة هو نتيجة اختلال عقلي ونفسي. يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾[سورة القلم: آية ٥١، ٥٢].

وجاء الحارث بن كلدة الثقفي، وهو طبيب مشهور يعالج الأمراض الجسمية والنفسية، إلى رسول الله ﷺ، قائلاً: يا محمد، جئت أداويك من جنونك، فقد داويت مجانين كثيرة فشفوا على يدي!!

إنه موقف مثير مزعج، أن يُواجه الإنسان بالاتهام في عقله، وفي استوائه النفسي،

لكن الرسول ﷺ، لم يسيطر عليه الانفعال، ولم يجابه الموقف بالشدة والرفض، بل أدار مع الحارث بن كلدة حوارًا هادئًا صريحًا، حيث قال له: أنت تفعل أفعال المجانين وتنسبني إلى الجنون؟

والملاحظ هنا أن الرسول ﷺ لم يبادله الاتهام بالجنون، فلم يقل له إنك أنت مجنون، بل قال: تفعل أفعال المجانين.

قال الحارث: وماذا فعلته من أفعال المجانين؟

قال ﷺ: نسبتك إياي إلى الجنون من غير امتحان منك، ولا تجربة، ولا نظر في صدقي أو كذبي!!

قال الحارث: أو ليس قد عرفت كذبك وجنونك بدعواك النبوة التي لا تقدر لها؟

قال ﷺ: وقولك لا تقدر لها فعل المجانين، لأنك لم تقل: لم قلت كذا؟ ولا طالبتني بحجة فعجزت عنها.

قال الحارث: صدقت أنا أمتحن أمرك بآية أطالبك بها. وطلب من الرسول ﷺ معجزة تدل على صدق نبوته، فأجاب الرسول ﷺ طلبه، فأسلم فورًا على يد رسول الله ﷺ[1].

يستأذن في الزنا

الزنا عمل قبيح حرّمته كل الشرائع السماوية، واعتبره الإسلام من أسوأ الفواحش، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وقرر الإسلام عقوبة رادعة لمن يثبت عليه اقترافه، وهذا من أوائل التشريعات الإسلامية.

لكن السيرة النبوية تحدثنا أن غلامًا شابًا جاء إلى رسول الله ﷺ وهو جالس وسط جماعة من أصحابه، فقال: يا رسول الله، إئذن لي في الزنا!

(١) بحار الأنوار ج١٧، ص٣١٦.

فاستنكر الحاضرون منه هذا الطلب الشاذ، وصاحوا به: مَهْ!. أي اسكت ودع مثل هذا الكلام السيئ.

فلم يرض رسول الله ﷺ بمجابهتهم له، فالشاب يعيش ضغطًا غريزيًا داخليًا، وهو غير ملتفت إلى كل ما يترتب على الزنا من مساوئ وأضرار، فلا بد من توجيهه برفق، لإقناعه بالابتعاد عن هذا العمل الحرام.

تقول الرواية: إنه ﷺ دنا منه وأقبل عليه يحاوره بهدوء، وقال له: أتحب الزنا لأمك؟

أجاب الغلام: لا.

قال ﷺ: وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم. أتحبه لأختك؟

قال: لا.

قال ﷺ: وكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم. أتحبه لابنتك؟

قال: لا.

قال ﷺ: وكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم. فاكره لهم ما تكره لنفسك، وأحب لهم ما تحب لنفسك. ثم وضع رسول الله ﷺ يده على صدر الغلام الشاب، ودعا له قائلًا: اللهم كفّر ذنبه، وطهّر قلبه، وحصّن فرجه.

يقول الغلام: فقمت وما على وجه الأرض عمل أبغض وأكره إلى نفسي من الزنا[1].

الحوار مع الداخل

موقعه الديني والسياسي كنبي قائد، يخوّل له اتخاذ ما يراه مناسبًا من القرارات، وخاصة في ساحة المعركة العسكرية، التي يمارس فيها القائد عادة صلاحياته

(١) المعجم الكبير ج٨، ص١٨٣.

الكاملة.

حيث يفترض أن يتعامل المسلمون مع رسول الله ﷺ باعتباره يستوحي أوامره ومواقفه من الله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[سورة النجم: آية ٣-٤]، ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[سورة الحشر: آية ٧].

لكن الرسول ﷺ لم يعتبر هذه الموقعية مبررًا لتجاهل وتجاوز آراء صحابته المحيطين به، فقد أمره الله تعالى بالتشاور معهم، يقول تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[سورة آل عمران: آية ١٥٩]، وكان من أكثر الناس مشاورة لأصحابه مع وضوح القضايا أمامه، وعدم حاجته إلى رأي الآخرين، لكنه يريد إرساء هذه المنهجية، وتثبيت القناعة والاطمئنان بمواقفه في النفوس.

روى سعيد بن منصور وابن المنذر عن الحسن في الآية الكريمة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾، قال: قد علم الله أن ما به إليهم من حاجة، ولكن أراد ليستن به من بعده.

وروى ابن جرير وابن خيثمة عن قتادة قال: أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يشاور أصحابه ـ رضي الله تعالى عنهم ـ في الأمور، وهو يأتيه الوحي من السماء، لأنه أطيب لأنفس القوم، وأن القوم إذا شاور بعضهم بعضًا، وأرادوا بذلك وجه الله تعالى عزم عليهم على أرشده.

وروى ابن أبي حاتم والخرائطي عن أبي هريرة قال: ما رأيت من الناس أحدًا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ[1].

وإذا حصل اعتراض من بعض أصحابه على قرار من القرارات، أو موقف من المواقف، لم يكن ﷺ يشهر أمامهم سلاح الإلزام بالخضوع لأمره، كما هو مقتضى إيمانهم به، ولا كان يتهم نواياهم تجاهه، بل كان ينفتح عليهم، ويصغي لاعتراضاتهم، ويتقبل عتابهم، ويحاورهم بكل محبة وشفافية، حتى يتضح لهم الصواب، وتطمئن

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ج٩، ص٣٩٨.

نفوسهم بما فعله ﷺ.

عطاياه من غنائم حنين

وأمامنا كنموذج لنهج النبوة، ما حصل في أعقاب غزوة حنين، حول عطايا رسول الله ﷺ من الغنائم، لزعماء قريش حديثي الإسلام، وعتاب الأنصار على ذلك، وكيف تعامل رسول الله ﷺ مع ذلك الموقف؟

بعد فتح مكة في شهر رمضان سنة ٨ هـ، حشدت قبائل (هوازن) عشرين ألف مقاتل للزحف على مكة، ومواجهة الإسلام والمسلمين، وهوازن من أعظم القبائل وأكثرها خطرًا في الجزيرة العربية، بعد قريش، وقد أقلقها هزيمة قريش أمام المسلمين، ورأت نفسها في موقع التهديد والخطر، لذلك بادر زعيمها مالك بن عوف لإعلان الحرب على المسلمين، وعبأ جيشه، وألزم كل واحد منهم أن يُخرج معه أهله وماله، ليكون الجنود أكثر حماسًا في المواجهة، وعلى أثر ذلك تحرك الرسول ﷺ بجيشه من مكة، لمواجهة هوازن، وحدثت المعركة في وادي حنين، في شهر شوال سنة ٨هـ، وكان عدد جيش المسلمين ١٢ ألف مقاتل، وأصيب الجيش الإسلامي بنكسة في بداية المعركة، بسبب كمائن جيش هوازن، لكن ثبات رسول الله ﷺ والثلة التي صمدت معه، أعادت المبادرة بيد المسلمين، وانتصر الجيش الإسلامي بعد شدة وعناء، وتحصّل على غنائم كثيرة، لأن مقاتلي هوازن دخلوا المعركة بكل أموالهم وممتلكاتهم، وذكر المؤرخون من أرقام الغنائم ٢٤٠٠٠ بعير، و٤٠٠٠٠ شاة، وكمية كبيرة من الفضة.

وقسم رسول الله ﷺ الغنائم بين المقاتلين لكل واحد من المشاة سهم واحد، هو أربعة من الإبل، أو أربعون من الغنم، ولكل واحد من الفرسان ثلاثة أسهم، هي اثنا عشر من الإبل، أو مئة وعشرون من الغنم.

وحسب التشريع الإسلامي فإن خمس الغنيمة يكون تحت تصرف رسول

الله ﷺ، فكان مقدار الخمس ٤٨٠٠ بعير، و٨٠٠٠ شاة.

هنا رأى رسول الله ﷺ أن يجزل العطاء لبعض زعماء قريش الذين التحقوا بالجيش الإسلامي بعد فتح مكة، جذبًا لقلوبهم، وإزالة لآثار ما شعروا به من هزيمة بفتح مكة.

فأعطى أبا سفيان بن حرب ١٠٠ من الإبل و٤٠ أوقية من الفضة، ومثل ذلك لولده يزيد بن أبي سفيان، ولولده معاوية، وأعطى حكيم بن حزام ١٠٠ من الإبل، ومثل ذلك للنضير بن الحارث، وأسيد بن حارثة، والحارث بن هشام، وصفوان بن أمية، وغيرهم.

ويذكر المؤرخون أن أبا سفيان بن حرب، كان أول من سأل رسول الله ﷺ منحه من الغنائم، فقد دخل على رسول الله ﷺ، وبين يديه الفضة، فقال: يا رسول الله، أصبحت أكثر قريشًا مالًا، فتبسم رسول الله ﷺ، وقال أبو سفيان: أعطني من هذا المال يا رسول الله. قال: يا بلال، زن له أربعين أوقية وأعطوه مئة من الإبل.

قال أبو سفيان: ابني يزيد أعطه.

قال ﷺ: زنوا ليزيد أربعين أوقية، وأعطوه مئة من الإبل.

قال أبو سفيان: ابني معاوية يا رسول الله.

قال ﷺ: زن له يا بلال أربعين أوقية وأعطوه مئة من الإبل.

قال أبو سفيان: إنك لكريم، فداك أبي وأمي، ولقد حاربتك فنعم المحارب كنت، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت، جزاك الله خيرًا.

وحدث الواقدي قال: قال حكيم بن حزام: سألت رسول الله ﷺ بحنين مئة من الإبل، فأعطانيها، ثم سألته مئة أخرى فأعطانيها، ثم سألته مئة ثالثة فأعطانيها.

ويذكر أصحاب السير والمغازي أن الرسول ﷺ أعطى أولًا العباس بن مرداس

السلمي سيد بني سليم، أربعًا من الإبل فقط، فعاتب الرسول ﷺ بشعر، فلما بلغ الرسول ﷺ عتابه، لم يغضب، ولم يحاسبه على ما فاه به من عتاب، بل قال: اقطعوا لسانه عني، أعطوه مئة من الإبل.

هذا العطاء السخي من الرسول لزعماء قريش، الذين لم يمض على حربهم له ومناوأتهم للإسلام، إلا شهر من الزمن، أثار كثيرًا من التحسس في نفوس الأنصار من الأوس والخزرج، الذين استقبلوا الرسول ﷺ حينما هاجر إليهم في المدينة، وبايعوه منذ العقبة الأولى، على الطاعة والحماية، وبذلوا نفوسهم وأموالهم في سبيل الدعوة، وهم الآن يرون أن نصيب كل واحد منهم من الغنيمة كمقاتلين، في حدود أربعة إلى اثني عشر من الإبل، بينما ينال رجالات قريش هذا العطاء الوافر!!

فظهرت في أوساطهم مقولات فيها عتاب وتساؤل، تجاه ما فعله رسول الله ﷺ، حتى قال بعضهم: لقي رسول الله ﷺ قومه، أما حين القتال فنحن أصحابه، وأما حين قسم الغنائم فقومه وعشيرته، إن كان هذا من الله صبرنا، وإن كان هذا من رسول الله استعتبناه.

وقال آخرون: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.

وعلّق بعضهم بقوله: والله إن هذا لهو العجب إن سيوفنا لتقطر من دمائهم، والغنائم تقسم فيهم.

وقال بعض آخر: إذا كانت شديدة فنحن ندعى، ويعطي الغنيمة غيرنا.

فدخل سعد بن عبادة، سيد الخزرج، على رسول الله ﷺ، وأبلغه ما يجد الأنصار في نفوسهم، بسبب ما أعطى من غنائم لسادات قريش، وزعماء القبائل الأخرى. فقال سعد: إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب،

ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء؟

قال رسول الله ﷺ: فأين أنت من ذلك يا سعد؟

فقال سعد: ما أنا إلا كواحد من قومي، وإنا لنحب أن نعلم من أين هذا؟

حوار مع الأنصار

تجاه هذا الموقف لم يستخدم رسول الله ﷺ منطق الفرض، باعتباره مارس صلاحياته المشروعة، كنبي يجب قبول أمره، وكقائد يجب أن يطاع، وهو إنما تصرف في الحصة التي وكلها الله إليه، خمس الغنيمة. وبذلك من حقه هو ﷺ أن يعاتب المعترضين، ويوبخّهم على تشكيكهم في قراراته، ويدعوهم إلى التوبة والاستغفار.

لكنه ﷺ التزم نهجه النبوي القائم على أساس الحوار والإقناع، لإيضاح الموقف أمام الأنصار المعترضين، وتبيين المبررات الكفيلة بإقناعهم، وإرضاء نفوسهم.

لقد طلب ﷺ من سعد بن عبادة أن يجمع له الأنصار وحدهم، دون أن يحضر أحد من المهاجرين، فاجتمعوا في خيمة كبيرة، فدخل عليهم ﷺ، وألقى كلمة قال فيها: يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضُلّالًا فهداكم الله؟! وعالة فأغناكم الله؟! وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟!

قالوا: بلى. الله ورسوله أمنُّ وأفضل.

قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟

قالوا: وماذا نجيبك يا رسول الله، ولرسول الله المنُّ والفضل؟

قال: والله لو شئتم قلتم فصدقتم: أتيتنا مكذَّبًا فصدّقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك.

وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار لشيء من الدنيا تألّفت به قومًا أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام؟

أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟

إن قريشًا حديثو عهد بجاهلية ومصيبة، وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله إلى بيوتكم؟

فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا، وسلكت الأنصار شعبًا، لسلكت شعب الأنصار، الأنصار شعار والناس دثار.

اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، فبكى القوم حتى اخضلّت لحاهم، وقالوا: رضينا يا رسول الله حظًا وقسمًا[1].

هكذا عالج رسول الله ﷺ الموقف، بالتخاطب معهم، وشرح مبررات قراره، وبالاعتراف لهم بالفضل والمكانة، وإلفاتهم إلى المكسب السياسي والمعنوي الكبير لتثبيت المدينة عاصمة للكيان الإسلامي، حيث لم يرجع الرسول ﷺ إلى مكة بعد فتحها ليتخذها مقرًا له، رغم أنها بلده، ورغم حنينه إليها، ووجود الكعبة فيها.

المنهج السليم

ومن يقرأ سيرة المصطفى ﷺ يرى أن الحوار كان منهجه في الدعوة إلى الله تعالى، استجابة لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[سورة النحل: آية ١٢٥].

ودراسة هذا المنهج من خلال السيرة النبوية، تبرز جانبًا من عظمة شخصية رسول الله ﷺ، وتعطينا أروع الدروس فيما يجب أن نلتزم به من أسلوب الدعوة إلى الله، فبعض الدعاة يسيئون إلى الدعوة، بفظاظتهم وقسوة خطابهم، وهم ينفّرون الناس من الدين، بدل أن يستقطبوهم إليه.

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى، ج٩ ، غزوة حنين، ص١٧٠، ١٨١.

وفي هذه الأيام وحيث نواجه حملة إعلامية ثقافية على المستوى العالمي، لتشويه سمعة الإسلام، واتهامه بالعنف والإرهاب، فإننا بحاجة إلى عرض مفاهيم الدين وحقائقه، من خلال سيرة رسول الله ﷺ، والتذكير بالمعالم المشرقة من حضارة الإسلام.

حقوق الإنسان في التربية النبوية

في زمن أهدرت فيه إنسانية الإنسان، وفي عالم كان يسيطر فيه الأقوياء ويسحق الضعفاء، وفي مجتمع سادته العصبية القبلية والعنصرية العرقية، وفي قوم كانوا يحقّرون المرأة ويضطهدونها، جاء النبي محمد ﷺ برسالة إلهية عنوانها كرامة الإنسان، ومحور تشريعاتها إقرار حقوق الإنسان وتأكيد حمايتها.

وقد انتهج رسول الله ﷺ مسلكين لتغيير ذلك الواقع الاجتماعي الجائر، ولبناء مجتمع إنساني جديد تُحترم فيه حقوق الإنسان، وتُصان حرمته وكرامته:

المسلك الأول: تأسيس ثقافة إنسانية

التأسيس لثقافة إنسانية في أذهان أبناء المجتمع، تنطلق من إعلاء قيمة الإنسان كإنسان، بغضّ النظر عن جنسه ولغته وعرقه ولونه وانتمائه الديني والاجتماعي، وحالته المادية.

ذلك أنّ التصورات العنصرية، وروح التعالي والكبر، هي أرضية العدوان بين بني البشر، وهي التي تصنع المبررات والدوافع لانتهاك حقوق الإنسان.

إنّ اعتقاد الرجل بأفضليته على المرأة، وأنّها دونه في الرتبة الإنسانية، وأنّها خلقت لاستمتاعه وخدمته، هو ما يسوّغ له اضطهادها وتهميشها.

وإنّ تصور أبناء عرق معيّن، أو قومية معينة، تفوقهم في أصل خلقتهم وتكوينهم، على أعراق وقوميات أخرى، وأنّهم شعب الله المختار، هو ما يدفعهم للهيمنة على الآخرين، واستعمارهم، ومصادرة إرادتهم.

وإنّ شعور الإنسان بالتعالي والكبر لانتمائه الديني، أو لثرائه الاقتصادي، هو ما يدفعه لتحقير الآخرين والاستهانة بحقوقهم.

لقد عانت البشرية طوال عهودها من انتشار مثل هذه التصورات، التي تدّعي التفوق والتميز التكويني لفئة من الناس، وتحطّ من شأن وقدر من سواهم، مما يؤسس لتبرير العدوان، وانتهاك الحقوق والحرمات.

فالنازية التي أطلق حركتها هتلر، كانت تبشّر بتفوق العرق الآري، وأنّ اليهود والسلافيين والأقليات الأخرى هي في مرتبة دنيا، ويقضي ذلك بإبعاد غير الآريين عن وظائف الدولة، وبمنع الزيجات المختلطة، وبتعقيم المعاقين والمتخلفين عقليًّا، وبمحاربة كلّ عرق غير آري[١].

واليهود والنصارى كانت تسود في أوساطهم نظرية الشعب المختار، التي تبرر ازدراء بقية الشعوب، والتجاوز على حقوقها، كما تحدث عن ذلك القرآن الكريم. يقول تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾[سورة المائدة، آية: ١٨].

كما كان اليهود لا يحترمون أموال غير اليهود، باعتبارهم أميين، لا إثم في

(١) عبدالوهاب كيالي، موسوعة السياسة، ج٦، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص٥٤٦.

مصادرة حقوقهم، كما يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[سورة آل عمران، الآية: ٧٥].

ولا تزال هذه الروح العنصرية تعكس آثارها على سلوك الحاملين لها، والمتلبسين بها، في عصرنا الحاضر، ففي أكثر الدول تقدّمًا وإظهارًا للاهتمام بحقوق الإنسان، وهي الولايات المتحدة الأمريكية، شاهد العالم في ٢٥ مايو ٢٠٢٠م صورة الشرطي الذي يجثو بركبته على رقبة الشاب ذي البشرة السوداء (جورج فلويد – George Floyd) الذي كان يصرخ: لا أستطيع التنفس، قبل أن يموت اختناقًا. هذه الحادثة التي كشفت عن عمق واتساع الحالة العنصرية، حيث سبقتها ولحقتها حوادث كثيرة، تجاوز عددها في عام ٢٠١٩م (١٠٣٨) حالة قتل شبيهة. إلى جانب الممارسات العنصرية المختلفة.

ففي مقالة نشرتها «النيويورك تايمز» في ٢٠/ ١/ ٢٠٢٠م تحت عنوان: «كم من العنصرية تواجه في كلّ يوم؟» قام باحثون من جامعة (روتغرز) بطرح هذا السؤال على ١٠١ مراهق أفرو-أمريكي. وقد ردّ هؤلاء بسرد نحو ٥٦٠٠ تجربة عنصرية تعرّضوا لها خلال أسبوعين فقط؛ أي ما يعادل خمسة أفعال عنصرية (بالكلام المباشر أو الإيحاء أو التنمر أو العنف الجسدي أو الحرمان من حقٍّ أو ميزة إلخ)، يوميًّا لكلّ مراهق واحد[1].

وانطلقت على إثر هذه الحوادث حركة احتجاجية في مختلف ولايات أمريكا تحت عنوان (حياة السود مهمة) شارك فيها أكثر من ٢٠ مليون شخص، وترددت أصداؤها في عدد من الدول والمجتمعات، بمظاهرات تحمل نفس الشعار والعنوان.

الحرب على العنصرية

لقد أعلن رسول الله ﷺ الحرب على كلّ تلك الأفكار الظلامية العنصرية،

(١) جريدة الخليج، العنصرية في أمريكا بالأرقام، بتاريخ ١٩ يونيو ٢٠٢٠.

والتصورات القائمة على الأوهام، وضخَّ ثقافة جديدة، تؤكد على وحدة الأصل والنوع الإنساني، ذكورًا وإناثًا، ومن مختلف الأعراق والألوان، والانتماءات والطبقات.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [سورة النساء، الآية: ١].

أما اختلاف الأعراق والألوان بين بني البشر، وتنوع القوميات واللغات، فتلك مشيئة الله، لإظهار قدرته وإبداعه في الخلق والوجود.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [سورة الروم، الآية: ١٧].

وهذا الاختلاف والتنوّع بين بني البشر، لا يبرّر ادّعاء التفاضل والتمايز، بل هو مدعاة للتعارف، والاستفادة المتبادلة، من خبرات وتجارب الحياة.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّـهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٦].

إنّ الكرامة منحة إلهية لبني البشر، بمختلف انتماءاتهم، لا تجوز مصادرتها من أحد منهم، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧٠].

فكلّ فرد من بني آدم هو مصداق لهذا العنوان الشامل، الذي لم تحصره الآية الكريمة في أبناء عرقٍ أو دينٍ معيّن.

وعلى نسق هذا الشمول في الآية الكريمة، جاء ما روي عن رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِن ابْنِ آدَمَ»[1].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ خُطْبَةَ

(١) علاء الدين علي المتقى بن حسام الدين الهندي، كنز العمال، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، حديث ٣٤٦٢١.

الْوَدَاعِ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ»[1].

ولأهمية هذا المبدأ ومحوريته، يؤكده رسول الله ﷺ في أهمّ موقف دعوي تبليغي، ضمن أداء مناسك الحج، في وسط أيام التشريق (١١- ١٢-١٣ من شهر ذي الحجة) وبعد أن يبيّن هذا المبدأ بوضوح، يستجوب السامعين عن وصوله إلى أذهانهم: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟»، وحين يُقرّون بذلك، يكلّفهم بالتبشير بهذا المبدأ الإنساني العظيم، وإيصاله للآخرين «فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ».

إدانة الممارسات العنصرية

كان رسول الله ﷺ يخوض معركة التغيير، ومواجهة الروح العنصرية، واقتلاع آثارها المترسبة في النفوس، ليس عبر الخطاب التوعوي التثقيفي فقط، بل كان يراقب المظاهر والممارسات الخطأ، التي تُمثّل انتهاكًا لحقوق الإنسان، فيتّخذَ منها موقف الإدانة الحاسم، والرفض الشديد، حتى لو كانت تلك الممارسة على مستوى كلمة جارحة، أو تصرف يوحي بازدراء وتحقير.

أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: «عَيَّرَ أَبُو ذَرٍّ بِلالًا بِأُمِّهِ، فَقَالَ: يَا ابْنَ السَّوْدَاءِ، وَإِنَّ بِلالًا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ فَغَضِبَ، فَجَاءَ أَبُو ذَرٍّ وَلَمْ يَشْعُرْ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَا أَعْرَضَكَ عَنِّي إِلا شَيْءٌ بَلَغَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَنْتَ الَّذِي تُعَيِّرُ بِلالًا بِأُمِّهِ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَالَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى مُحَمَّدٍ، أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَحْلِفَ، مَا لأَحَدٍ عَلَيَّ فَضْلٌ إِلا بِعَمَلٍ، إِنْ أَنْتُمْ

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث٢٧٠٠.

إِلا كَطَفِّ الصَّاعِ»[١].

وعَنْ أَبِي عَبْدِاَللَّهِ جعفر الصادق عليه السلام قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ مُوسِرٌ إِلَى رَسُولِ اَللَّهِ صلى الله عليه وآله، نَقِيُّ اَلثَّوْبِ، فَجَلَسَ إِلَى رَسُولِ اَللَّهِ صلى الله عليه وآله، فَجَاءَ رَجُلٌ مُعْسِرٌ، دَرِنُ اَلثَّوْبِ، فَجَلَسَ إِلَى جَنْبِ اَلْمُوسِرِ، فَقَبَضَ اَلْمُوسِرُ ثِيَابَهُ مِنْ تَحْتِ فَخِذَيْهِ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اَللَّهِ صلى الله عليه وآله: أَخِفْتَ أَنْ يَمَسَّكَ مِنْ فَقْرِهِ شَيْءٌ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَخِفْتَ أَنْ يُصِيبَهُ مِنْ غِنَاكَ شَيْءٌ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَخِفْتَ أَنْ يُوَسِّخَ ثِيَابَكَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اَللَّهِ، إِنَّ لِي قَرِينًا يُزَيِّنُ لِي كُلَّ قَبِيحٍ، وَيُقَبِّحُ لِي كُلَّ حَسَنٍ، وَقَدْ جَعَلْتُ لَهُ نِصْفَ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صلى الله عليه وآله لِلْمُعْسِرِ: أَتَقْبَلُ؟ قَالَ: لَا، فَقَالَ لَهُ اَلرَّجُلُ: وَلِمَ؟ قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَدْخُلَنِي مَا دَخَلَكَ»[٢].

المسلك الثاني: إيقاظ الضمير والوجدان

من أجل بناء مجتمع إنساني حقوقي، انتهج رسول الله صلى الله عليه وآله أسلوبًا مهمًّا، وهو إيقاظ الضمير الإنساني، وتنمية الوجدان الأخلاقي، وتحفيز الحساسية والنفور في أعماق نفس الإنسان تجاه نزعات الظلم، والاعتداء على حقوق الآخرين.

وهذا هو جوهر الدين الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله، وعمل على ترسيخه في نفوس الناس وسلوكهم.

إنّ الدين ليس مجرّد فكرة يؤمن بها العقل، أو عقيدة ينطوي عليها القلب، ولا مجرّد عبادات وطقوس يؤديها الإنسان، بل هو فوق ذلك وأعمق من ذلك، إنه الورع الذي يحجز الإنسان عن محارم الله، وانتهاك حقوق عباده.

الدين يتمثل في يقظة الضمير، ورهافة الأحاسيس والمشاعر تجاه خلق الله، انطلاقًا من الإيمان بالله، والاعتقاد باطلاعه ورقابته على ما يختلج في نفس الإنسان

(١) أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ، مكتبة الرشد، الرياض، حديث٤٧٧٢.

(٢) الكافي، ج٢، ص٢٦٢، حديث١١.

من مشاعر، وما يصدر عنه من ممارسة وسلوك، وأنّ هناك حسابًا دقيقًا أمام الله، وجزاءً وعقابًا صارمًا تجاه أيّ عدوان وظلم للأبرياء. وأنه تعالى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [سورة غافر، الآية: ١٩]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [سورة الزلزلة، الآية: ٧-٨].

مشاهد تربوية حقوقية

نجد في السيرة النبوية، أنّ رسول الله ﷺ كان يعطي الأولوية لإثارة الوجدان الداخلي في الإنسان، ولتذكيره بالمسؤولية أمام الله سبحانه وتعالى، في مجال تعامله مع الآخرين، حيث كان ﷺ لا يدع فرصة، ولا يترك مناسبة، إلّا ويستثمرها على هذا الصعيد التربوي، لحماية حقوق الإنسان المادية والمعنوية.

ونلتقط من تلك المشاهد بعض النماذج والصور:

١. عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: «بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ، إِذْ جَاءَ صَبِيٌّ حَتَّى انْتَهَى إِلَى أَبِيهِ فِي نَاحِيَةِ الْقَوْمِ، فَمَسَحَ رَأْسَهُ، وَأَقْعَدَهُ عَلَى فَخِذِهِ الْيُمْنَى، قَالَ: فَلَبِثَ قَلِيلًا فَجَاءَتِ ابْنَةٌ لَهُ، حَتَّى انْتَهَتْ إِلَيْهِ، فَمَسَحَ رَأْسَهَا وَأَقْعَدَهَا فِي الْأَرْضِ، فَقَالَ رَسُولُ ﷺ: فَهَلَّا عَلَى فَخِذِكَ الْأُخْرَى؟ فَحَمَلَهَا عَلَى فَخِذِهِ الْأُخْرَى فَقَالَ ﷺ: الْآنَ عَدَلْتَ»[1].

لاحظوا: إنّ رسول الله ﷺ يعتبر التمييز في إغداق مشاعر الحب والحنان بين الولد والبنت الصغيرين، باحتضان الأب لولده على فخذه، وإجلاس ابنته على الأرض، نوعًا من الظلم، فينهى عنه، وحين استجاب الأب لتوجيه رسول الله ﷺ، قال له: «الْآنَ عَدَلْتَ».

٢. عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ، قَالَ: «كُنْتُ أَضْرِبُ غُلامًا لِي، فَسَمِعْتُ مِنْ

(١) أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد (ابن أبي الدنيا)، كتاب العيال، باب النفقة على العيال، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، دار ابن القيم، الدمام، حديث ٣٦.

خَلْفِي صَوْتًا: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، لَلَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ حَرٌّ لِوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ: أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ، أَوْ قَالَ: لَمَسَّتْكَ النَّارُ»[١]، ووردت إضافة في الحديث في مسند ابن حنبل، قول أبي مسعود: فحلفت ألّا أضرب مملوكًا أبدًا[٢].

٣. عن هِشَام بن حكيمِ بن حزامٍ، عنه ﷺ: «إنَّ اللَّه يُعذِّبُ الذِينَ يُعذِّبُونَ النَّاس في الدُّنْيا»[٣].

٤. وعن ابن عباس قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لا يَقِفَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَوْقِفًا يُضْرَبُ فِيهِ أَحَدٌ ظُلْمًا، فَإِنَّ اللَّعْنَةَ تَنْزِلُ عَلَى مَنْ حَضَرَهُ حِينَ لَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ»[٤].

وهنا يحمّل رسول الله ﷺ المسؤولية لكلّ من شهد عدوانًا أو انتهاكًا لحقوق الإنسان، أن يدافع عن الضحايا وإلّا فهو شريك في العدوان ومستحق لغضب الله تعالى ولعنته.

٥. وروى سليمان بن صرد، عنه ﷺ أنه قال: «مَن كانَ يُؤمِنُ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ فَلا يُرَوِّعَنَّ مُسلِمًا»[٥].

٦. وعن عبدالرحمن بن أبي ليلى: حَدَّثَنا أصحابُ رَسولِ اللّهِ ﷺ، أَنَّهُم كانوا يَسيرونَ مَعَ رَسولِ اللّهِ ﷺ في مَسير، فَنامَ رَجُلٌ مِنهُم، فَانطَلَقَ بَعضُهُم إلى نَبلٍ مَعَهُ فَأَخَذَها، فَلَمَّا استَيقَظَ الرَّجُلُ فَزِعَ، فَضَحِكَ القَومُ، فَقالَ ﷺ: ما

(١) صحيح مسلم، حديث٣٥.
(٢) الإمام أحمد بن حنبل، مسند ابن حنبل، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، حديث٢٢٣٥٤ .
(٣) صحيح مسلم، حديث٢٦١٣.
(٤) المعجم الكبير، حديث١١٦٧٥ .
(٥) المصدر نفسه، حديث٦٤٨٧.

يُضحِكُكُم؟! فَقالوا: لا، إلّا أنّا أخَذنا نَبلَ هذا فَفَزِعَ، فَقالَ رَسولُ اللّهِ ﷺ: «لا يَحِلُّ لِمُسلِمٍ أن يُرَوِّعَ مُسلِمًا»(١).

إنّ رسول الله ﷺ يستنكر إيذاء مشاعر إنسان ولو على سبيل المزاح، ولبرهة قصيرة من الوقت.

٧. وعنه ﷺ: «فأَيُّ رَجُلٍ لَطَمَ امرَأَتَهُ لَطمَةً، أمَرَ اللّهُ عزّ وجلّ مالِكًا خازِنَ النّيرانِ فَيَلطِمُهُ عَلى حُرِّ وَجهِهِ سَبعينَ لَطمَةً في نارِ جَهَنَّمَ»(٢).

إنّ قوامة الرجل على زوجته، لا تسمح له انتهاك حقوقها وكرامتها، وممارسة العنف تجاهها، بل إنّ العقاب الإلهي شديد ومضاعف يوم القيامة، على من يقترف هذا الجرم.

٨. وعن علي عليه السلام عنه ﷺ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَن ظَلَمَ مَن لا يَجِدُ ناصِرًا غَيرَ اللّه»(٣).

إنّ ضعف الطرف الآخر، قد يغري من يكون في موقع القدرة على ظلمه، لكنّ ذلك موجب للغضب الشديد من قبل الله تعالى، فعلى الإنسان أن يكون أكثر حذرًا وحساسية تجاه حقوق الضعفاء.

٩. عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ»(٤).

فالظلم مرفوضٌ، وانتهاك حقوق أيّ إنسانٍ جرمٌ، ولو كان كافرًا مخالفًا في الدين، فإنّ الله يقبل شكواه ضدك، ودعوته عليك، دون أيّ مانع أو حجاب.

---

(١) مسند ابن حنبل، حديث٢٣١٢٦.

(٢) الميرزا حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي، مستدرك الوسائل، الطبعة الثالثة١٤١١هـ، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، حديث١٦٦١٩.

(٣) كنز العمال، حديث٧٦٠٥.

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث٧٦٧.

وبعد، فهذا غيض من فيض جهود رسول الله ﷺ، في التأسيس لثقافة حقوق الإنسان، وتعزيزها وحمايتها، وتربية المجتمع على احترامها والالتزام بها.

ونحن نحتفل مع العالم باليوم العالمي لحقوق الإنسان العاشر من ديسمبر، وهو اليوم الذي صدر فيه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان سنة ١٩٤٨م، أي بعد ١٤ قرنًا من تلك الجهود التأسيسية العظيمة التي قام بها رسول الله ﷺ، فإنّ علينا أن نكشف للعالم هذا الوجه الإنساني الحضاري المشرق من ديننا، ومن سيرة نبيّنا ﷺ. وهو أفضل جواب وردّ على المغرضين والمسيئين للإسلام، ولرسوله العظيم.

والأهم من ذلك أن نرتقي بواقعنا كمسلمين، لنكون أنموذجًا في الالتزام بحقوق الإنسان، في أوطاننا ومجتمعاتنا.

علينا أن نقاوم النزعات العنصرية البغيضة، في أفكارنا ومشاعرنا وسلوكنا، تجاه من يختلف معنا، في انتمائه العرقي أو القومي أو القبلي أو الديني أو المذهبي.

وألّا نتساهل تجاه أيّ انتهاك لحقوق الإنسان في حياتنا العائلية والاجتماعية.

الرعاية النبوية للفقراء

لا يحتاج الفقير إلى الدعم والعون المالي لتسيير أمور حياته فقط، بل يحتاج أيضًا إلى إظهار التعاطف والمساندة النفسية، حتى لا يشعر في نفسه بأيّ نقص بسبب فقره، لذلك ينهى الإسلام عن ممارسة أيّ نوع من التمييز الطبقي بين الناس، على أساس تفاوت قدراتهم الاقتصادية.

فلا يصح أن يُنظر للفقير بدونية، وأن يفرّق بينه وبين المتمكنين ماليًّا في التعامل والاحترام.

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «مَنِ اِسْتَخَفَّ بِفَقِيرٍ مُسْلِمٍ، فَقَدِ اِسْتَخَفَّ بِحَقِّ اَللَّهِ، وَاَللَّهُ يَسْتَخِفُّ بِهِ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ، إِلَّا أَنْ يَتُوبَ»[1].

وروي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَنِ اِسْتَذَلَّ مُؤْمِنًا، أَوْ حَقَّرَهُ لِفَقْرِهِ،

(١) وسائل الشيعة، حديث ١٦٢٦٩.

وَقِلَّةِ ذَاتِ يَدِهِ، شَهَرَهُ اَللَّهُ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ»[١].

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «مَنْ أَكْرَمَ فَقِيرًا مُسْلِمًا، لَقِيَ اَللَّهَ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ، أَلَا وَمَنْ أَكْرَمَ أَخَاهُ اَلْمُسْلِمَ فَإِنَّمَا يُكْرِمُ اَللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ»[٢].

لذلك فإنّ النبي صلى الله عليه وآله يقول في حديث روته مصادر السنة والشيعة: «أَمَرَني رَبّي بِسَبعِ خِصالٍ (ذكر منها): حُبِّ المَساكينِ وَالدُّنُوِّ مِنهُم»[٣]، في إشارة إلى تأكيد المشاعر الإيجابية تجاه الفقراء، وألّا يكون فقرهم سببًا لإقصائهم اجتماعيًّا.

ونجد في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله اهتمامه الكبير ورعايته المتميزة للفقراء والمساكين.

أهل الصُفَّة

ونتحدث عن تجربة بارزة في السيرة النبوية على هذا الصعيد، هي تجربة (أهل الصُفَّة).

والصُفَّة هي الظُلة، أي المكان الذي له سقف، وليس له جدران من كلّ جوانبه، كالمظلات أمام البيوت.

فحينما بنى رسول الله صلى الله عليه وآله المسجد الشريف في المدينة المنورة، بعد هجرته إليها، سقف الجزء الأمامي من جهته الشمالية، جهة القبلة نحو بيت المقدس بجريد النخل، والقسم الأكبر ظلّ مكشوفًا، فلما تحولت القبلة إلى الجهة الجنوبية باتجاه الكعبة، بقي هذا المكان المظلل شمالًا، وأصبح مؤخرة المسجد.

وحينما بدأ توافد المسلمين المهاجرين من مكة، والوافدين من مناطق أخرى، استوعب الأنصار من أهل المدينة أكثرهم في بيوتهم، لكنّ بعضهم لم يجد من

---

(١) وسائل الشيعة، حديث١٦٢٧١ .

(٢) المصدر نفسه، حديث١٦٢٧٠ .

(٣) الأصول الستّة عشر، ص٧٥، وفي مسند ابن حنبل حديث ٢١٤٧٢، والسنن الكبرى حديث ٢٠١٨٦ عن أبي ذر.

يستوعبه، ولم يكن له مال، ولم يتيسر له عمل كمصدر دخل، فكان رسول الله يسكنهم في هذا المكان من المسجد (الصُفَّة)، وعرفوا بأهل الصُفَّة.

جاء عن أبي هريرة: (أَهْلُ الصُّفَّةِ أَضْيَافُ الإِسْلامِ، لا يَأْوُونَ إِلَى أَهْلٍ، وَلا مَالٍ، وَلا عَلَى أَحَدٍ)[1].

وكان من ينزل في الصُفَّة يقيم فيها، حتى يجد له مكانًا أو عملًا فيغادرها.

لذلك كان عددهم يختلف من وقت إلى آخر. فربما اجتمعوا فكثروا، وربما تفرقوا لغزو أو سفر، أو استغناء فقلّوا. ويبدو أنّ متوسط عددهم كان حوالي السبعين يزيدون وينقصون. ومجمل عددهم بحدود أربعمئة، حسب ما ورد في كتب السيرة.

توفير متطلبات حياتهم

لم تكن هناك موارد ثابتة عند رسول الله ﷺ للصرف عليهم، فكان إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها، وأشركهم فيها.

وكان أصحاب حقول النخيل من أهل المدينة يساهمون في إطعامهم، فكان الرجل منهم يأتي بالقِنْو والقِنوين (القِنْو: العذق)، يضع ذلك في المسجد لأهل الصُفَّة.

وكان رجال من الأنصار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد لاستخداماتهم، ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء.

رعاية النبي لهم

ولم يكن النبي ﷺ يغفل عنهم مطلقًا، بل كانت حالتهم ماثلة أمامه، وقد طلب من ابنته فاطمة عليها السلام أن تتصدّق عليهم لما ولدت الحسن بوزن شعره من الفضة. وقد

(١) صحيح البخاري، حديث ٦٤٥٢.

جاءه مرة سبي، فسألته ابنته فاطمة ﷺ ومعها علي خادمًا، لأنها تعبت من كثرة أعمالها وكلّت، فأجابها ﷺ: «لَا أُعْطِيكُمْ، وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَلَوَّى بُطُونُهُمْ مِنَ الْجُوعِ»، وقال: «لَا أُخْدِمُكُمَا، وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَطْوَى»(١).

وقد أوصى النبي ﷺ الصحابة بالتصدق على أهل الصفة، فجعلوا يصلونهم بما استطاعوا من خير، فكان أغنياء قريش والأنصار يبعثون بالطعام إليهم، وكان النبي ﷺ يوزع أهل الصفة بين أصحابه بعد صلاة العشاء، ليتعشّوا عندهم، ويقول: «مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ، وَإِنْ أَرْبَعٌ فَخَامِسٌ، أَوْ سَادِسٌ،... فَانْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَشَرَةٍ»(٢). ويبدو أنّ الأمر كان كذلك في بداية الهجرة، فلما جاء الله بالغنى للمسلمين، لم تعد هناك حاجة لتوزيعهم على دور الصحابة.

لم يكن لأهل الصُفَّة من الملابس ما يقيهم البرد، أو يسترهم سترًا كاملًا، فليست لهم أردية، فمنهم من تغطّى بما يبلغ نصف الساقين، وأحيانًا قد لا يبلغ الركبتين. وسرعان ما كانت تتسخ ملابسهم، فجوانب الصُفَّة مكشوفة للهواء والتراب.

معاناة الجوع

كان جلّ طعامهم التمر، فكان النبي ﷺ يجري لكلٍّ رجلين منهم مدًّا من تمر في كلّ يوم، وقد اشتكوا من أكل التمر، وقالوا إنه أحرق بطونهم، لكنّ النبي ﷺ لم يستطع أن يوفر لهم طعامًا غيره، فصبّرهم وواساهم.

وكان كثيرًا ما يدعوهم إلى الطعام في بيته.

وكان ﷺ قد قدّم لهم مرة صحفة فيها صنيع من شعير، وقال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا أَمْسَى فِي آلِ مُحَمَّدٍ طَعَامٌ لَيْسَ شَيْئًا تَرَوْنَهُ»(٣).

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، مسند علي بن أبي طالب، حديث٥٨٢.
(٢) صحيح البخاري، باب السمر مع الضيف والأهل، حديث٥٧٠.
(٣) الطبقات الكبرى، ج١، ص١٩٧.

وفي بعض الأحيان ما كانوا يحصلون على ما يمسك رمقهم، فكان بعضهم يخرّ في صلاته لما به من الجوع.

وكان أبو هريرة يقول: (اللَّهِ الذي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنْ كُنْتُ لَأَعْتَمِدُ بكَبِدِي علَى الأَرْضِ مِنَ الجُوعِ، وإِنْ كُنْتُ لَأَشُدُّ الحَجَرَ علَى بَطْنِي مِنَ الجُوعِ، ولقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا علَى طَرِيقِهِمُ الذي يَخْرُجُونَ منه، فَمَرَّ أبو بَكْرٍ، فَسَأَلْتُهُ عن آيَةٍ مِن كِتَابِ اللَّهِ، ما سَأَلْتُهُ إِلَّا لِيُشْبِعَنِي، فَمَرَّ ولَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بي عُمَرُ، فَسَأَلْتُهُ عن آيَةٍ مِن كِتَابِ اللَّهِ، ما سَأَلْتُهُ إِلَّا لِيُشْبِعَنِي، فَمَرَّ فَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بي أبو القَاسِمِ ﷺ، فَتَبَسَّمَ حِينَ رَآنِي، وعَرَفَ ما في نَفْسِي وما في وجْهِي، ثُمَّ قالَ: يا أَبَا هِرٍّ، قُلتُ: لَبَّيْكَ يا رَسولَ اللَّهِ، قالَ: الحَقْ ومَضَى فَتَبِعْتُهُ، فَدَخَلَ، فَاسْتَأْذَنَ، فأذِنَ لِي، فَدَخَلَ، فَوَجَدَ لَبَنًا في قَدَحٍ، فَقالَ: مِن أَيْنَ هذا اللَّبَنُ؟ قالوا: أَهْدَاهُ لكَ فُلَانٌ أَوْ فُلَانَةُ، قالَ: أَبَا هِرٍّ قُلتُ: لَبَّيْكَ يا رَسولَ اللَّهِ، قالَ: الحَقْ إلى أَهْلِ الصُّفَّةِ فَادْعُهُمْ لي)[1].

وتتحدث الرواية عن مجيء من كان موجودًا من أهل الصُفَّة وشربهم من ذلك اللبن، وكان رسول الله ﷺ آخر من شرب.

برامج التأهيل

وقد أُلِف أهل الصفة الفقر والزهد، فكانوا دائمي الجلوس في المسجد، يُصلّون، ويتدارسون آيات القرآن، ويذكرون الله تعالى، ويتعلم بعضهم الكتابة، حتى أهدى أحدهم قوسه لعبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ لأنه كان يعلّمهم القرآن والكتابة.

وقد استفادوا من تواجدهم في المسجد النبوي، وحضورهم المكثف في مجلس رسول الله ﷺ، فكسبوا المعرفة الدينية، وأصبح بعضهم في مستوى من الفضل، ومن رواة حديث رسول الله، كما شاركوا في معارك الجهاد، وحظي بعضهم بالشهادة في سبيل الله.

---

(١) صحيح البخاري، حديث٦٤٥٢.

وكان التوجيه النبوي يدفعهم إلى العمل والكدح، وحينما تتوفر فرصة عمل لأحدهم كان ينتهزها.

تدوين تجربة أهل الصُفَّة

هناك كُتب ألفت حول الصُفَّة وأهلها، وأفردت لها فصول في بعض كتب السيرة والتاريخ، تتناول تجربة حياتهم الرائعة، باستقصاء عددهم، وتدوين أسمائهم، وجمع شتات أخبارهم، وأحوالهم، ومشاركاتهم.

وأقدم من أفرد كتابًا في أهل الصُفَّة، هو أبو عبدالرحمن محمد بن الحسين السلمي النيسابوري (ت ٤١٢هـ) في كتابه (تاريخ أهل الصفة)، وألّف تقي الدين السُّبكي (ت ٧٥٦هـ) كتابًا عنهم سمّاه: (التحفة في الكلام على أهل الصفة)، وألّف شمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢هـ) رسالة بعنوان «رجحان الكفة في أخبار أهل الصُفَّة». كما عقد نور الدين السمهودي (ت ٩١١هـ) مقالًا عن أهل الصفة، في كتابه (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى)، جمع فيه الروايات المتناثرة في كتب الحديث والتاريخ والجغرافية ومعاجم اللغة.

الدروس والعِبَر

ويهمّنا من قراءة هذه التجربة الفريدة في السيرة النبوية، أن نستلهم منها الدروس والعبر، ومن أهمها ما يلي:

١. أن نستحضر المعاناة الكبيرة التي تحمّلها النبي ﷺ وأصحابه، في تأسيس كيان الإسلام، وإقامة دعوته، فنقدّر تلك الجهود والتضحيات.

وقد أشار الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، في دعائه في الصلاة على أتباع الرسل، إلى هذه الجوانب من معاناة وتضحيات أصحاب رسول الله ﷺ، ومما جاء في هذا الدعاء من الصحيفة السجّادية الفقرات التالية:

اَللَّهُمَّ وَأَصْحَابُ مُحَمَّد خَاصَّةً الَّـذِينَ أَحْسَنُوا الصَّحَابَةَ، وَالَّذِينَ أَبْلَوْا الْبَلَاءَ الْحَسَنَ فِي نَصْرِهِ، وَكَانَفُوهُ وَأَسْرَعُوا إِلَى وِفَادَتِهِ وَسَابَقُوا إِلَى دَعْوَتِهِ واسْتَجَابُوا لَهُ حَيْثُ أَسْمَعَهُمْ حجَّةَ رِسَالَاتِهِ، وَفَارَقُوا الأَزْوَاجَ وَالأَولادَ فِي إِظْهَارِ كَلِمَتِهِ... وَاشكُرْهُمْ عَلَى هَجْرِهِمْ فِيْكَ دِيَارَ قَوْمِهِمْ، وَخُرُوجِهِمْ مِنْ سَعَةِ الْمَعَاشِ إِلَى ضِيْقِهِ»[1].

٢. إنّ اهتمام النبي ﷺ البالغ بأهل الصُفَّة، يشير إلى أنّ قيادة المجتمع يجب أن تحمل هَمَّ حياة الفقراء، وتجعله في طليعة اهتماماتها.

٣. إنّ توجيهات النبي ﷺ لأصحابه باستيعاب المهاجرين، واستضافة أهل الصُفَّة، وتقديم الطعام والخدمات لهم، في مختلف جوانب حياتهم، حسب الإمكانات المتاحة، تعني أنّ هذا هو النهج الذي يجب أن يلتزم به المجتمع الإسلامي، في كلّ عصر، بمواساة الفقراء والمحتاجين.

وأن تكون هناك ثقافة، تحفّز أبناء المجتمع لتحمّل مسؤولياتهم الإنسانية، تجاه الفقراء والمعوزين.

٤. إنّ التعامل باحترام وتقدير لأهل الصُفَّة من قبله ﷺ، وقوله إنّ الله أمره بحب المساكين والدنُوِّ منهم، يؤكد ضرورة المساندة النفسية للفقراء، وإشعارهم بالاحترام والتقدير.

٥. تناقص أعداد أهل الصُفَّة، بسبب وضع البرامج لتأهيلهم العملي، وتوفير الخبرات التعليمية والعملية لهم، كتعليم الكتابة، ورواية الحديث، والمشاركة في المعارك، بحيث تخرّج منهم رواة ومجاهدون، يشير إلى أهمية اعتماد برامج التأهيل للأسر الفقيرة.

---

(١) الصحيفة السجّادية، الدعاء رقم (٤)، كان من دعائه ﷺ في الصلاة على أتباع الرّسُلِ.

التأليف بين القلوب نهج نبوي

العداوة بين الناس تؤذي نفوسهم، وتستهلك جهدهم وطاقتهم في الصّراع، وتدفعهم إلى النزاع والاحتراب، مما يكلّفهم الأضرار والخسائر في النفوس والأموال والقدرات.

في المقابل، فإنّ التآلف بين الناس يريح نفوسهم، ويوفر جهدهم وطاقتهم للبناء والإنتاج، ويمكنهم من التعاون لخدمة مصالحهم المشتركة والعامة.

إنّ مستوى الوعي والالتزام الأخلاقي في أيّ مجتمع، هو الذي يرجّح أحد مساري العلاقة داخل المجتمع، نحو العداوة والنزاع أو التآلف والوئام.

كلّما كان المجتمع أكثر وعيًا وتمسّكًا بمكارم الأخلاق، كان أقرب إلى الوئام والانسجام، وكلّما انخفض مستوى الوعي الاجتماعي، والالتزام الأخلاقي، انزلق المجتمع إلى منحدر الصّراعات والخصومات.

صناعة التآلف

ولأنّ المجتمع العربي قبل الإسلام، كان يعيش جاهلية ينعدم فيها الوعي وتضعف فيها القيم الأخلاقية، فقد كان الحال السائد فيه هو الاحتراب والخصام والتقاتل والتنازع.

وجاء النبي محمد ﷺ برسالة الإسلام، ليعيد صياغة الأفكار، وبناء النفوس، فينقل ذلك المجتمع من حالة العداء والفرقة، إلى أجواء التآلف والوحدة.

وكان النجاح حليف رسول الله ﷺ في إنجاز هذه المهمة، بأعلى حدٍّ ممكن، في زمن قياسي بهر كلّ الباحثين في تاريخ المجتمعات البشرية، والتحولات الاجتماعية.

وقد عدّها القرآن الكريم من أهمّ مظاهر نعمة الله تعالى على ذلك المجتمع، حيث يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠٣].

إنّ التأليف بين القلوب نهج نبوي مارسه النبي ﷺ بسيرته وسياسته، وأكّده بتعاليمه وتوجيهاته.

والتأليف بين القلوب من الائتلاف مأخوذ من مادة (أَلَ ف) التي تدلّ على انضمام الشيء إلى الشيء، ومن ذلك الألف؛ لأنه انضمام العشرات والمئات إلى بعضها.

ومنه تأليف الكتاب، أي ضم أجزائه والمعلومات التي فيه إلى بعضها.

وأَلِف المكان أو الشيء بمعنى اعتاده، وأنس به.

ركائز التآلف

اعتمد النهج النبوي في التأليف بين القلوب على ركائز، أهمها:

١. تهذيب النزعة الذاتية لدى الإنسان، بتطهير نفسه من الأحقاد والأضغان والحسد والبغضاء، التي تسببها الأنانية المفرطة.

٢. تنمية النزعة الإنسانية في أعماقه بحب الخير للناس، وحسن الظنّ بهم، والرغبة في الإحسان إليهم.

فكلّما قويت النزعة الإنسانية في نفس الإنسان، كان أبعد عن كراهة الآخرين والإساءة إليهم، وأقرب إلى محبّتهم والإحسان إليهم، حتى لو كانوا خصومًا له.

٣. ترشيد السلوك وأخلاق التعامل، بالحث على حسن القول، يقول تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [سورة البقرة، الآية: ٨٣].

ويقول تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾[سورة الإسراء، الآية: ٥٣].

وبالتشجيع على حسن المعاشرة، فقد ورد عن رسول الله ﷺ: «أَحْسِنْ مُصَاحَبَةَ مَنْ صَاحَبَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا»(١).

وعن أنس عن رسول الله ﷺ: «لَا تَقَاطَعُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ»(٢).

وعنه ﷺ: «الْمُؤْمِنُ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ، وَلا خَيْرَ فِيمَنْ لا يَأْلَفُ وَلا يُؤْلَفُ»(٣).

وعنه ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقًا، الْمُوَطَّؤونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ الْمَشَّاؤونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ، الْمُلْتَمِسُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَنَت»(٤).

---

(١) الشيخ الصدوق، الأمالي، ج١، ص٢٠١.
(٢) صحيح الترمذي، حديث١٩٣٥.
(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث٤٢٥.
(٤) المصدر نفسه، حديث٣٧٨.

٤. تعزيز العلاقات الحسنة بين الناس، ومعالجة المشاكل والخلافات الطارئة، عبر تشجيع إصلاح ذات البين والدعوة للمحبة والتعاون.

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[سورة الأنفال، الآية: ١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[سورة الحجرات، الآية: ١٠].

وقال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[سورة النساء، الآية: ١١٤].

وردعن النبي محمد ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ»(١).

وجاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «صَدَقَةٌ يُحِبُّهَا اَللَّهُ إِصْلَاحٌ بَيْنِ اَلنَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا وَتَقَارُبٌ بَيْنِهِمْ إِذَا تَبَاعَدُوا»(٢).

وعنه عليه السلام: «إِذَا رَأَيْتَ بَيْنَ اِثْنَيْنِ مِنْ شِيعَتِنَا مُنَازَعَةً فَافْتَدِهَا مِنْ مَالِي»(٣).

دعوات القطيعة والتنافر

إنّ مجتمع المؤمنين يجب أن تسود فيه دعوات التآلف والوئام، وإنّ وجود توجهات تدعو إلى القطيعة والتباعد بين مكونات المجتمع، إنّما يعني نقض غرض الدين، ومخالفة النهج النبوي، والإضرار بمصالح المجتمع الإيماني.

ولا يجوز للواعين من أبناء المجتمع أن يسكتوا أمام هذه الدعوات والتوجهات، فإصلاح ذات البين واجب ديني اجتماعي، على نحو الوجوب الكفائي، ويندرج تحت عنوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إنّ من المؤسف أن تحصل بعض مظاهر النزاع والخلاف في مجتمع المؤمنين،

(١) الألباني: صحيح أبي داود، حديث ٤٩١٩.
(٢) الكافي، ج٢، ص٢٠٩، حديث١.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٠٩، حديث٣.

فلا يجد أحد نفسه معنيًّا بمواجهتها، والدعوة إلى معالجتها.

إنّ الضرر لن يقتصر على طرفي الخلاف والنزاع بل ستصيب آثاره السلبية كيان المجتمع كلّه.

الكذب في الإصلاح

ولمحاصرة أضرار الخلافات والنزاعات، أكّد الدين على بذل الجهود للتصدّي لها، وإطفاء نائرة أيّ خلاف، بالسّعي لإصلاح ذات البين، بين المتخاصمين أفرادًا أو جماعات، وأجاز الدين التوسّل بالكذب لإصلاح ذات البين إذا استلزم الأمر ذلك.

جاء في صحيح البخاري عن أم كلثوم بنت عقبة أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: (ليسَ الكَذَّابُ الذي يُصْلِحُ بيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيرًا، أوْ يقولُ خَيْرًا)[١].

وقد أفرد الشيخ الحرّ العاملي في كتاب وسائل الشيعة بابًا بعنوان: (باب جواز الكذب في الإصلاح دون الصدق في الإفساد).

وجاء فيه عن معاوية بن عمار عن الإمام جعفر الصادق ﷺ: «إِنَّ اَلْمُصْلِحَ لَيْسَ بِكَذَّابٍ»[٢].

وعنه ﷺ: «اَلْكَلاَمُ ثَلاَثَةٌ: صِدْقٌ، وَكَذِبٌ، وَإِصْلاَحٌ بَيْنَ اَلنَّاسِ، قَالَ: قِيلَ لَهُ جُعِلْتُ فِدَاكَ: مَا اَلْإِصْلاَحُ بَيْنَ اَلنَّاسِ؟ قَالَ: تَسْمَعُ مِنَ اَلرَّجُلِ كَلاَمًا يَبْلُغُهُ فَتَخْبُثُ نَفْسُهُ، فَتَقُولُ: سَمِعْتُ مِنْ فُلاَنٍ قَالَ فِيكَ مِنَ اَلْخَيْرِ كَذَا وَكَذَا خِلاَفَ مَا سَمِعْتَ مِنْهُ»[٣].

وعنه ﷺ: «كُلُّ كَذِبٍ مَسْؤُولٌ عَنْهُ صَاحِبُهُ يَوْمًا إِلَّا كَذِبًا فِي ثَلاَثَةٍ... أَوْ رَجُلٌ أَصْلَحَ بَيْنَ اِثْنَيْنِ يَلْقَى هَذَا بِغَيْرِ مَا يَلْقَى بِهِ هَذَا، يُرِيدُ بِذَلِكَ اَلْإِصْلاَحَ مَا بَيْنَهُمَا...»[٤].

---

(١) صحيح البخاري، حديث٢٦٩٢.
(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة (الإسلامية)، ج ١٣، ص ١٦٣.
(٣) الكافي، ج٢، ص٣٤١، حديث١٦.
(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٤٢، حديث١٨.

مصادرة شخصيّات الآخرين والموقف النبوي

كلّ إنسان في هذه الحياة تتشكل عنده قناعات، وتتكون له رغبات وتطلّعات، وقد منحه الله الإرادة والاختيار، ليعمل وفق قناعاته، ولتحقيق رغباته وتطلّعاته.

يقول تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾[سورة الإسراء، الآية: ٨٤]. أي على طبيعته وتوجّهه، ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «يَعْنِي عَلَى نِيَّتِهِ»[1].

لكنّ هناك حدّين يجد الإنسان نفسه معنيًّا بمراعاتهما في حركته وعمله، وهما حدّ الالتزام الديني، وحدّ النظام والقانون، فلا ينبغي له أن يخالف أحكام الدين والمبدأ الذي يدين به، ولا أن يتمرّد على النظام والقانون الذي تفرضه طبيعة الحياة الاجتماعية.

---

(١) الكافي، ج٢، ص١٦، حديث٤.

وفيما عدا هذين الحدّين، فهو يتمتع بحرّيته واختياره، في تسيير أمور حياته، وتلبية رغباته.

لكنّ الإنسان قد يجد تعويقًا وتقييدًا لحريته من قبل آخرين يصادرون شخصيته، ويمنعونه من تحقيق رغباته وتطلعاته، إمّا بممارسة القوة والقهر عليه، بحيث لا يتمكن من ممارسة حريته، أو بفرض الوصاية عليه، بأن يفكروا بديلًا عنه، ويتخذوا القرارات له خلافًا لرغبته، فيسلبونه أهلية اتخاذ القرار، أو يمنعونه من ممارسة ما يقرّر لنفسه، بدعوى أنّهم أعرف منه بمصلحته، وأولى بتحديد رغباته.

وهذا يصح بالنسبة للقاصر سنًّا أو عقلًا، من قبل من له الولاية عليه، في إطار مصلحته. أمّا بالنسبة للبالغ الرشيد، فلا ولاية لأحدٍ عليه، حتى لأقرب القريبين منه.

يصادرون شخصيات الآخرين

يحدث أنّ بعض القادة أو من يملكون قوة في الشخصية، يحاولون مصادرة شخصيات من حولهم، ويمنعونهم من تحقيق رغباتهم، ويسلبونهم حقّ القرار لأنفسهم، وقد يكون ذلك عبر الضغط النفسي والاجتماعي. وكما قيل: المأخوذ حياءً كالمأخوذ غصبًا، وهذا خطأ كبير من الناحية الشرعية، ومن الجانب الإنساني والتربوي.

إنه حرام من الناحية الشرعية؛ لأنه اعتداء على حقّ الغير، وسبب أذى له، أما في الجانب الإنساني والتربوي، فهو يضعف ثقة الآخر بنفسه، ويشعره بالضعف والمهانة، وينتج له عقدًا نفسية، وقد يربك حياته.

النموذج النبوي

وحين نقرأ السيرة النبوية نجد أنّ النبي ﷺ مع عظمة شخصيته، ومقام ولايته، حيث يقول تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٦]، إلّا أنه ﷺ لم يكن يمارس هذا المقام إلّا في مجال تطبيق الأحكام الشرعية، وشؤون

إدارة نظام المجتمع، ويترك لمن حوله فرصة اتخاذ القرارات الشخصية لأنفسهم، ولا يفرض قوة شخصيته عليهم.

وحتى في مجال تبليغ الرسالة، فإنّ الله قد حدّد لنبيّه ﷺ دور الدعوة والتذكير فقط، دون ممارسة الهيمنة والسيطرة على الآخرين، يقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [سورة الغاشية، الآيات: ٢١-٢٢].

ويقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٥٤].

ويقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٠٧].

وأمامنا بعض الأمثلة والنماذج:

١. ورد أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ أُتِيَ بشَرَابٍ فَشَرِبَ منه، وعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ [قيل إنه ابن عباس]، وعَنْ يَسَارِهِ الأَشْيَاخُ، فَقَالَ لِلْغُلَامِ: أَتَأْذَنُ لي أنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ الغُلَامُ: واللَّهِ يا رَسولَ اللَّهِ، لا أُوثِرُ بنَصِيبِي مِنْكَ أحَدًا، قَالَ: فَتَلَّهُ رَسولُ اللَّهِ ﷺ في يَدِهِ[1].

كانت رغبة رسول الله ﷺ أن يقدّم الشراب أولًا لكبار السنّ الذين كانوا عن يساره، لكنّ الاستحباب الشرعي يعطي الحقّ لمن يكون عن اليمين، ومع أنه كان غلامًا صغيرًا، لكنّ رسول الله ﷺ لم يصادر منه هذا الحقّ، بل استأذنه احترامًا واعترافًا له بحقّه، وحين أبدى الغلام تمسّكه بحقّه في التقدّم، استجاب له النبي ﷺ.

٢. استدان رسول الله ﷺ من رجل بعيرًا في سنّ معيّن، وقال له: إذا جاءت إبل الصدقة قضيناك، فلما جاءت إبل الصدقة، أمر النبي ﷺ أبا رافع أن يقضي الرجل دينه، فلم يجدوا فيها إلّا فوق سنّ بعيره، فأغْلَظَ الرجل في كلامه للنبي ﷺ، فَهَمَّ به أصْحَابُهُ، فَقَالَ ﷺ: دَعُوهُ، فإنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ

(١) صحيح البخاري، حديث ٥٦٢٠.

مَقَالًا، واشْتَرُوا له بَعِيرًا فأعْطُوهُ إيَّاهُ، وقالوا: لا نَجِدُ إلَّا أفْضَلَ مِن سِنِّهِ، قالَ: اشْتَرُوهُ، فأعْطُوهُ إيَّاهُ، فإنَّ خَيْرَكُمْ أحْسَنُكُمْ قَضَاءً[١].

٣. عن ابن عباس: أنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كانَ عَبْدًا يُقَالُ له مُغِيثٌ، كَأَنِّي أنْظُرُ إلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي ودُمُوعُهُ تَسِيلُ علَى لِحْيَتِهِ، فَقالَ النبيُّ ﷺ لِعبَّاسٍ: يا عَبَّاسُ، ألَا تَعْجَبُ مِن حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، ومِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا؟ فَقالَ النبيُّ ﷺ : لو رَاجَعْتِهِ، قالَتْ: يا رَسولَ اللَّهِ، تَأْمُرُنِي؟ قالَ: إنَّما أنَا أشْفَعُ، قالَتْ: لا حَاجَةَ لي فِيهِ[٢].

بريرة بنت صفوان نبطية أو قبطية، كانت جارية لناس من الأنصار، وزوّجوها عبدًا اسمه مغيث، وقد أعتقت فخيّرت في زوجها فاختارت نفسها، فهي قد أصبحت حرة، وزوجها لا يزال عبدًا، ومن حقّها أن تفسخ نكاحها منه، لكنه كان متعلقًا بها، فاستشفع برسول الله ﷺ إليها لتقبل البقاء زوجة له، وكلّمها رسول الله ﷺ في ذلك كشفاعة وليس أمرًا ملزمًا، لأنه لا يريد أن يصادر حقّها في القرار. وقد صنّف العلماء في قصّتها تصانيف، ذكروا فيها ما يستنبطونه من تلك القصة من فوائد وأحكام، وبعضهم أوصلها إلى ٤٠٠ فائدة.

الدرس الأخلاقي

إنّ الدرس الأخلاقي الذي يجب أن نأخذه من مثل هذه المواقف النبوية، هو ألّا نستغلّ موقعنا في مصادرة شخصيات من حولنا، ولا نعطي لأنفسنا الحقّ في التدخل في شؤون حياتهم الخاصة، نعم يمكننا تقديم المشورة والنصيحة والرأي لهم، دون ممارسة ضغط عليهم، يسلبهم حرية الإرادة والاختيار.

إنّ على الآباء والأمهات، أن يحترموا شخصيات أبنائهم البالغين الراشدين، فلا يتدخلوا في قراراتهم إلّا ضمن حدود النصيحة.

(١) المصدر نفسه، حديث ٢٣٩٠.
(٢) صحيح البخاري، حديث ٥٢٨٣.

عَنِ اِبْنِ أَبِي يَعْفُورٍ عَنْ أَبِي عَبْدِاَللَّهِ عَلَيْهِ اَلسَّلاَمُ قَالَ: قُلْتُ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتَزَوَّجَ اِمْرَأَةً وَإِنَّ أَبَوَيَّ أَرَادَا غَيْرَهَا، قَالَ «تَزَوَّجِ اَلَّتِي هَوِيتَ وَدَعِ اَلَّتِي هَوِيَ أَبَوَاكَ»[١].

يقول السيد أبو القاسم الخوئي (١٣١٧ ـ ١٤١٣هـ): «لم ينهض دليل على وجوب إطاعة الوالدين على سبيل الإطلاق، على حدّ إطاعة العبد لسيِّده.

نعم، تجب المعاشرة الحسنة، والمصاحبة بالمعروف، على ما نطقت به الآية المباركة، فلا يجوز العداء والإيذاء، وأمّا الوجوب والتحريم بمجرّد الأمر والنهي، فضلًا عن لزوم الاستئذان في كافّة الأفعال، وإن لم يترتّب على تركه الإيذاء، خصوصًا لو صدر من غير اطّلاع منهما أصلًا، فهو عارٍ عن الدليل.

أجل قد ورد في بعض النصوص: أنه إنْ أمراك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل، ولكن أحدًا لا يستريب في أنّ هذا حكم أخلاقي، وليس بتكليف شرعيّ كما هو واضح جدًّا»[٢].

ويقول السيد محمد الشيرازي (١٣٤٧ ـ ١٤٢٢هـ): «إنّ القدر المتيقّن من الأدلة حرمة المخالفة التي تؤدي إلى أذيتهما فيما لا يتضرّر به الولد، فالأذية مع تضرّره أيضًا لا دليل على حرمتها»[٣].

وبين الزوجين على كلٍّ منهما أن يحترم خصوصيات الآخر. ولا يصادر أحدهما شخصية الآخر.

ونجد أنّ هناك توجيهًا نبويًّا حول مراعاة رغبات الأهل في الطعام والشراب، وتقديمها على الرغبات الذاتية، حيث ورد عن رسول اللّه ﷺ: «اَلْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ بِشَهْوَةِ

---

(١) محمد بن الحسن الطوسي، تهذيب الأحكام، طبعة ١٤٠٥هـ، دار الكتب الإسلامية، طهران، ج٧، ص٣٩٢.

(٢) السيد أبو القاسم الخوئي. مستند العروة الوثقى، كتاب الصلاة. ج٨، ص١٠٦.

(٣) السيد محمد الحسيني الشيرازي، الفقه، كتاب الصلاة، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ، دار العلوم للتحقيق والنشر، بيروت، ج٢٨، ص١٠٣.

أَهْلِهِ وَاَلْمُنَافِقُ يَأْكُلُ أَهْلَهُ بِشَهْوَتِهِ»[١].

وعلى الصعيد الاجتماعي فإنّ الشخصية الاجتماعية ذات النفوذ كعالم الدين، عليه أن يقتدي بالنبي ﷺ في احترام شخصيات من حوله وعدم مصادرة شخصياتهم.

ومن يدير أيّ مؤسسة رسمية أو أهلية، عليه أن يحترم شخصيات الموظفين والعاملين معه، ويحفظ لهم حقوقهم الشخصية المادية والمعنوية.

(١) الكافي، ج٤، ص١٢، حديث٦.

الشورى وصناعة القرار النبوي

الإسلام مشروع حضاري، يستهدف بناء مجتمع إنساني على قاعدة الحرية والعدل والكرامة، ولهذا المجتمع رسالة هي إعمار الأرض، وتطوير الحياة، ونشر القيم الفاضلة.

هذا المشروع يراد إنجازه وتحقيقه بجهود إنسانية بشرية، وليس عن طريق الغيب والتدخل الإلهي المباشر، ولو أراد الله تعالى تحقيق أهداف رسالاته وأنبيائه عن طريق الغيب، لكان أمرًا ميسورًا، ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، فلا حاجة لأن يتحمّل الأنبياء عناءً، ولا أن يقدّم المؤمنون تضحيات.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [سورة يونس، الآية: ٩٩].

﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّـهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [سورة محمد، الآية: ٤].

فقد شاءت حكمته أن يمارس الإنسان حريته واختياره في هذه الحياة، وأن يحقق إعمار الأرض، وإقامة العدل بجهوده وطاقاته، على ضوء الهدي الإلهي.

إعمار الأرض وظيفة الإنسان

إنّ إعمار الحياة مهمة مطلوبة من الإنسان، فقد منحه الله تعالى عقلًا يفكر ويخطط به، ومنحه طاقات نفسية، وقدرات عملية، وهيأ وسخّر له الكون، فكلّما استخدم عقله، واستنهض طاقته، وعمل بجهده، حقّق خطوات على طريق تطوير الحياة وإعمارها. يقول تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، ويقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [سورة الملك، الآية: ١٥].

كما أنّ إقامة العدل وظيفة إنسانية يأمر بها الله، ﴿إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾، ومطلوب من المجتمع الإنساني إقامة العدل، وليس مفروضًا عليه ذلك بالقهر والهيمنة الغيبية، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [سورة الحديد، الآية: ٢٥].

والنبي ليس بديلًا عن الناس في إقامة العدل، ومكافحة الظلم، وحينما فكّر بنو إسرائيل بهذه العقلية، وقالوا لنبيّهم موسى عليه السلام: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ كان الجواب الإلهي: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢٦].

الشورى استنهاض العقول

انطلاقًا من هذه الرؤية، فإنّ النبي ﷺ لم يأتِ بقوةٍ غيبيةٍ إعجازيةٍ لإقامة مشروع دعوته ورسالته، وإنّما جاء ليثير عقول الناس، ويستنهض قدراتهم، ليتحمّلوا هَمّ تحقيق المشروع وإقامته.

وفي هذا السياق كان من الطبيعي أن يأمره الله تعالى باستشارة من حوله،

ليستوعبوا المشروع بعقولهم، وتتفاعل معه أفكارهم ومشاعرهم.

يقول تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ وهو كل أمرٍ يهمّ المجتمع، أي أمر الشأن العام.

والمشاورة طلب الرأي من الغير: أي اطلب منهم رأيهم في الشأن العام، في غير الأحكام وما نزل به الوحي.

وهو أمر صريح طبّقه رسول الله ﷺ وعمل به. بغضّ النظر عن اختلاف العلماء، حول وجوب الشورى عليه أو استحبابها. فهل الأمر في هذه الآية للوجوب أو للندب، وهل هو أمر خاص بالنبي أو عام لكلّ قائد ووالٍ في الأمة؟

ومن غرائب الآراء ما نقله ابن عاشور: (ومن السلف من ذهب إلى اختصاص الوجوب بالنبي)[١].

ومن يقرأ السيرة النبوية، يرى بوضوح كيف اعتمد رسول الله ﷺ منهجية الشورى، مع أصحابه في مختلف الشؤون. وكان يكرّر في مواقف كثيرة، قولته المشهورة: (أَشِيرُوا عَلَيَّ).

وروى عروة عن زوج رسول الله ﷺ عائشة أنّها قالت: مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَكْثَرَ اسْتِشَارَةً لِلرِّجَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ[٢] ﷺ.

وعن أبي هريرة: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ مَشُورَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ[٣].

وإذا كان رسول الله ﷺ يريد بناء مجتمع إيماني، فإنّ من أبرز ملامح صفات ذلك المجتمع، هو سيادة الشورى. وفي القرآن سورة باسم (الشورى). يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

(١) تفسير التحرير والتنوير، ج٣، ص٢٦٩.

(٢) الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ج٢، ص١٢٤.

(٣) صحيح ابن حبان، ج١١، ص٢١٧.

﴿يُنفِقُونَ﴾ [سورة الشورى، الآية: ٣٨].

لقد جاء وصف المجتمع بالتشاور، بعد وصفه بإقامة الصلاة، وقبل وصفه بأداء الزكاة، ليعطي لصفة التشاور صبغتها الدينية، وموقعها بين أهم الفرائض والواجبات.

فالشورى وصف يجب أن يكون ثابتًا للمؤمنين كالصلاة، فلا يمكن لمجتمع مسلم أن يتخلى عن الصلاة، وكذلك لا يجوز أن يتخلى عن الشورى في الأمور العامة.

استشارات نبوية

ولنذكر بعض العينات والنماذج، من مشاهد الشورى، ودورها في صناعة القرار النبوي:

١. في أحداث غزوة بدر، خرج النبي ﷺ وأصحابه من المدينة، لاعتراض قافلة قريش التجارية، وهبطوا في وادي (ذفران)، ينتظرون مرورها، فبلغهم خبر مسير قريش باتجاه المدينة لحماية قافلتهم التجارية، وأنّ جيشها وصل إلى مشارف المنطقة التي يتواجد فيها رسول الله ﷺ وأصحابه.

فوجد النبي ﷺ نفسه بين خيارين: إما أن يقاتل أو يرجع إلى المدينة، وكلاهما صعب.

فجمع أصحابه وقال: أشيروا عليَّ، فبعضهم رأى العودة إلى المدينة. وبعضهم رأى مواجهة قريش.

فكان رأي الأكثرية مواجهة قريش، وعدم العودة إلى المدينة، وهذا ما عزم عليه ﷺ.

٢. حين ورد النبي ﷺ بدرًا، اختار موقعًا لمعسكره، وهنا تقدّم الحبّاب بن

منذر، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ أَمَنْزِلًا أَنْزَلَكَهُ اللَّهُ لَيْسَ لَنَا أن نتقدّمه ولا نتأخر عَنْهُ، أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟

قَالَ ﷺ: بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ.

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فإنَّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ، فَامْضِ بِالنَّاسِ حَتَّى نَأْتِيَ أَدْنَى مَاءٍ مِنَ الْقَوْمِ، فَنَنْزِلَهُ، ثُمَّ نُغَوِّرَ [أي ندفن العين] مَا وَرَاءَهُ مِنَ الْقُلُبِ، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه مَاءً، ثُمَّ نُقَاتِلَ الْقَوْمَ فَنَشْرَبَ وَلَا يَشْرَبُونَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ»[١].

٣. في واقعة أحد حيث تحرّك جيش قريش باتجاه المدينة، واقترب من سفوح جبل أحد، وقف ﷺ في أصحابه وقال بصوت عالٍ: (أشيروا عليَّ). فأشار بعضهم بالتحصن في المدينة، وقتال من يهاجمهم فيها، وكان هذا رأي الأكابر من الأصحاب، ومال رسول الله ﷺ إلى رأيهم، إلّا أنّ الشباب والفتيان، وكانوا يشكّلون الأغلبية رفضوا هذا الرأي، وطلبوا الخروج إلى العدو.

فأخذ ﷺ برأي الأكثرية، ودخل بيته ولبس لامة حربه، ثم بدأ المتحمّسون يعاتب بعضهم بعضًا، بأنّهم أصرّوا عليه بالخروج، وخشوا أنّهم قد استكرهوه، فقالوا معتذرين: يا رسول الله، ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك. فقال ﷺ: مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ[٢].

٤. في غزوة الخندق، أراد ﷺ أن يصنع اختراقًا في معسكر العدو، فبعث إلى عيينة بن حصن، وإلى الحارث بن عوف، قائد غطفان، فأعطاهما ثلث

(١) البداية والنهاية، ج٣، ص٣٢٧.

(٢) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٢، ص١٩٠.

ثمار المدينة، على أن يرجعا، حتى كتبوا الكتاب، وقبل إمضائه بعث ﷺ إلى سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه؟

فقالا له: يا رسول الله، أمرًا نحبّه فنصنعه، أم شيئًا أمرك الله به، أم شيئًا تصنعه لنا؟

قال ﷺ: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلّا لأنّني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة.

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنّا نحن وهؤلاء القوم على الشِّرك بالله، وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلّا قِرًى أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزّنا بك وبه، نعطيهم أموالنا!

قال ﷺ: فأنت وذاك. فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب[١].

٥. اتّخاذ خاتم للتوقيع: حينما أراد ﷺ أن يرسل رسائل إلى الملوك، يدعوهم فيها للإسلام، قيل له: يا رسول الله، إنّ الملوك لا يقرؤون كتابًا إلّا مختومًا، فاتخذ الرسول ﷺ يومئذٍ خاتمًا من فضة، نقشه ثلاثة أسطر (محمد رسول الله) وختم به الكتب[٢].

٦. جاء في طبقات ابن سعد: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ فِي الْمَسْجِدِ قَائِمًا فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الْقِيَامَ قَدْ شَقَّ عَلَيَّ». فَقَالَ لَهُ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ: أَلا أَعْمَلُ لَكَ مِنْبَرًا كَمَا رَأَيْتُ يُصْنَعُ بِالشَّامِ؟ فَشَاوَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ فَرَأَوْا أَنْ يَتَّخِذَهُ[٣].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص٢٢٣.
(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص٢٥٨.
(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٢٥٠.

٧. في حادثة الإفك، وعندما أخذ المنافقون يشيعون اتّهامًا باطلًا تجاه زوج رسول الله ﷺ، تلك الحادثة التي سجّلها القرآن الكريم في (سورة النور) يقول تعالى: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَـٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة النور، الآية: ١٢].

هنا استشار رسول الله ﷺ بعض أصحابه عن الموقف الأفضل للتعامل مع هذه الحادثة النكراء، التي استهدفت عِرضَه وأسرته.

إنّ المشاهد والموارد كثيرة في السيرة النبوية عن ممارسة الرسول ﷺ لنهج الشورى.

كتب اللواء مَحمُود شيْت خَطَّابْ كتابًا جمع فيه مشاهد استشارات الرسول ﷺ في المعارك الحربية بعنوان: (الشورى العسكرية في عهد الرسالة)، فوثق فيه إحدى وعشرين استشارة عسكرية نبوية، ذكرها المؤرخون وكُتّاب السيرة النبوية.

فلا بُدّ أن يكون عدد آخر إضافيًّا لم يسجّل، أو لم يتناقله الرواة.

وإذا كانت أكثر موارد الاستشارات النبوية قد جاءت في سياق الغزوات والمعارك، فلأنّ اهتمام العرب بأخبار المعارك والحروب كان هو الأكثر، حتى إنّ بداية روايات السيرة النبوية تمحورت حول أخبار المغازي، والمصدر الأساس للسيرة الذي ألّفه محمد بن إسحاق (ت: ١٥٠هـ) عنوانه: (المبدأ والمبعث والمغازي).

الشورى نهج ومسلك

إنّ الشورى نهج يجب أن يسلكه المسلمون في إدارة شؤونهم العامة السياسية والاجتماعية، وأخصّ بالذكر هنا الجانب الاجتماعي، في مؤسساتنا الاجتماعية والدينية، والأندية الرياضية، والجمعيات الخيرية، والأوقاف والمساجد، والحسينيات، والمواكب، واللجان والأنشطة المختلفة، ينبغي أن تسود فيها قيمة الشورى، وروح العمل الجمعي، وذلك يقتضي احترام رأي الآخرين، والإصغاء

لوجهات نظرهم، ومناقشتهم، ثم التوافق على القرار بروح رياضية، واستعداد للتنازل عن الرأي.

فإذا كان رسول الله ﷺ على عظمته وصلته بالوحي يستشير الآخرين، ويقبل اعتراضهم، ويتنازل عن رأيه لرأيهم، حينما يرى المصلحة في الأخذ بذلك الرأي فإنّ علينا أن نتأسّى به، ونقتدي بنهجه.

ورد عنه ﷺ: «الْحَزْمُ مُشَاوَرَةُ ذَوِي الرَّأْيِ وَاتِّبَاعُهُمْ»(١).

وعنه ﷺ: «مَا تَشَاوَرَ قَوْمٌ قطّ إِلَّا هُدُوا وأُرْشِدَ أَمْرُهُمْ»(٢).

ينبغي تسليط الأضواء على ممارسة رسول الله ﷺ للشورى، لتتعزّز ثقافة الشورى بين أبناء أمته، ولنشر هذه الصورة عن سيرته على المستوى العالمي الإنساني، حتى يعرف العالم الصورة الحقيقية لشخصية رسول الله ﷺ، في مقابل الصورة السلبية التي يروجها المغرضون.

(١) بحار الأنوار، ج٩١، ص٢٥٤، حديث٥.

(٢) جلال الدين السيوطي، الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، طبعة ١٤٣٢هـ، دار الفكر، بيروت، ج٧، ص٣٥٧.

التشاور في العمل الجمعي

أهمّ ما يجب أن يتوفر في العمل الجمعي، هو التشاور لإنضاج الرأي، والوصول للقرار الأفضل.

ومهمة قائد العمل الجمعي، تحفيز من حوله على التفكير، وإبداء الرأي، ليستفيد من عصارة عقولهم وأفكارهم. وليتحمّلوا معه مسؤولية القرار الذي يُتخذ.

وهذا يستلزم أن يتحلّى القائد بصفات تؤهله للقيام بهذا الدور.

ومن أبرزها التواضع والتقدير لمن حوله.

فإذا كان القائد والمدير يعيش حالة استعلاء، ويرى نفسه مدركًا وفاهمًا لكلّ جوانب العمل، وأنّ العاملين معه ليس لديهم ما يقدّمونه من رأي ونظر، فإنه لن يهتم باستكشاف آرائهم.

تحدثت مرة مع رئيس لجنة أهلية، وسألته عن موضوع

طرحه: هل تناقشت مع مجلس الإدارة حوله؟ فأجاب: إنّهم مساكين من أهل الله!.

إنّ الشعور بالاستعلاء، والاستهانة بمستوى الآخرين، خلق ذميم، يحرم الإنسان من فرص الاستفادة من آراء الآخرين، ويمنعه من إدراك نواقصه، ونقاط ضعف رأيه، وينفّر الآخرين منه.

ورد عن علي عليه السلام: «إعْجابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ بُرْهانُ نَقْصِهِ، وَعُنْوانُ ضَعْفِ عَقْلِهِ»(١).

إنه مهما كان مستوى الإنسان من المعرفة والخبرة، فإنه لا يستغني عن الاستفادة من آراء الآخرين، كما ورد عن علي عليه السلام: «لا يَسْتَغْنِي العاقِلُ عَنِ المُشاوَرَةِ»(٢).

فقد يلفته أحد إلى فكرة لم ترد على ذهنه، وقد ينبّهه إلى ثغرة لم يكن منتبهًا لها، لأنه قد تسيطر فكرة على ذهنه فينحاز لها، وتخفى عليه سلبياتها. وقد يضيف الآخر إلى رأيه ما يكمله، لذلك ورد عن علي عليه السلام: «إنَّما حُضَّ عَلَى المُشاوَرَةِ لأنَّ رَأْيَ المُشيرِ صِرفٌ، وَرَأيَ المُسْتَشيرِ مَشُوبٌ بِالهَوى»(٣).

وعنه عليه السلام: «مَنِ اِسْتَقْبَلَ وُجُوهَ اَلْآرَاءِ عَرَفَ مَوَاقِعَ اَلْخَطَأ»(٤).

الاهتمام بالرأي الآخر

هناك صفة مهمة أخرى يحتاجها القائد في مجال الاستشارة، هي مرونته في التعامل مع الآراء المخالفة لرأيه، واستعداده للتنازل عن رأيه لصالح الرأي الأفضل والأنسب.

إنّ بعض الأشخاص يرغب في أن يوافقه الآخرون فيما يطرح من رأي، وينزعج من أيّ معارضة لرأيه، وبعضهم يصعب عليه التراجع عن رأيه وفكرته، وكأنّ ذلك

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة ٢٠٠٧.
(٢) المصدر نفسه، حكمة ٢٥٦.
(٣) المصدر نفسه، حكمة ٣٩٠٨.
(٤) الكافي، ج٨، ص٢٢، حديث٤.

يكشف عن ضعفه أمام الآخرين. وهذا خطأ كبير. إنّ الله يصف عباده العقلاء الصالحين بأنّهم ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّـهُ وَأُولَـٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[سورة الزمر، الآية: ١٨].

ورد عن علي عليه السلام: «وَلاَ تَظُنُّوا بِي اِسْتِثْقَالًا فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَلاَ اِلْتِمَاسَ إِعْظَام لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ اِسْتَثْقَلَ اَلْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ، أَوِ اَلْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ اَلْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ، فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ»[1].

وقد يكون من المصلحة أن يتنازل القائد عن رأيه، وإن كان مقتنعًا بصوابه، وخطأ الرأي الآخر، إذا كان يمثل رأي الأكثرية، أو لغرض تربوي، أو لاقتضاء الظروف.

درس من الاستشارات النبوية

وتقدّم لنا السيرة النبوية أروع مثل ونموذج، حول الشورى والاستشارة.

فالنبي محمد صلى الله عليه وآله ـ كما نعتقد ـ هو أكمل الناس عقلًا، وأفضلهم معرفة، وأدقّهم نظرًا في الأمور، وهو متصل بالوحي الإلهي، ويحظى بالرعاية والتسديد من قبل الله تعالى. ومع ذلك فإنّ الله يأمره باستشارة من حوله. حيث خاطبه تعالى بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّـهِ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٥٩].

وكان صلى الله عليه وآله كما ورد في سيرته كثير الاستشارة لأصحابه، وقد أَلِف الأصحاب منه قوله لهم: (أَشِيرُوا عَلَيَّ).

ومعلوم أنّ استشارته لأصحابه لم تكن في مجال الأحكام الشرعية، ولا الأوامر الوحيانية، وإنّما في مجال إدارة الأمور، واعتماد السياسات والقرارات، فيما لم ينزل فيه وحي، أو في طريقة تنفيذ وتطبيق أوامر الوحي.

وقد جاء في سيرته صلى الله عليه وآله، أنه ربما تراجع عن رأيه لصالح أصحابه، كما حصل ذلك

---

(١) نهج البلاغة، ومن خطبة له عليه السلام خطبها بصفين، خطبة ٢١٦.

في موارد عديدة.

لماذا يستشير النبي أصحابه؟

وهنا ناقش علماء المسلمين: هل كانت استشارات الرسول ﷺ لأصحابه لأغراض تربوية واجتماعية فقط؟ أم أنّ لهذه الاستشارات هدفًا واقعيًّا، هو إنضاج الرأي، والوصول للقرار الأفضل؟

الرأي الذي يتبنّاه معظم العلماء والمفسرين: أنّ النبي ﷺ إنّما كان يستشير أصحابه لتربيتهم على نهج الشورى، ولتعزيز هذا النهج في الأمة، ومن أجل أن يتحمّلوا مسؤولية القرار حين يشاركون في صناعته، ولتأكيد الثقة في نفوسهم. وليس الهدف من استشارته لهم الاستعانة بهم على إنضاج الرأي، والوصول إلى القرار الأفضل؛ لأنه ﷺ غني عن ذلك باتصاله بالوحي، وبكمال عقله.

ورووا في هذا السياق حديثًا عن ابن عباس قال: لما نزلت الآية الكريمة: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أما إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَغَنِيَّانِ عَنْها، وَلكِنْ جَعَلَهَا اللَّهُ رَحْمَةً لِأُمَّتي، فَمَنِ اسْتَشارَ مِنْهُمْ لَمْ يُقْدِمْ إِلَّا رُشْدًا، وَمَنْ تَرَكَها لَمْ يُقْدِمْ إِلَّا غَيًّا»[1].

وقال الحسن البصري، وسفيان بن عيينة: أنّ الرسول ﷺ إنّما أمر بالمشاورة؛ ليقتدي به غيره، ويصير طريقة متبعة في أمته.

لكنّ بعض محقّقي العلماء خالف هذا الرأي، وذهب إلى أنّ استشارة النبي ﷺ لأصحابه، كان لها غرض حقيقي، إلى جانب آثارها وثمراتها التربوية والاجتماعية، وممن ذهب إلى هذا الرأي أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص (ت: ٣٧٠هـ) حيث قال ما نصّه: (وَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ بِالْمُشَاوَرَةِ عَلَى جِهَةِ تطييب نُفُوسِهِمْ، وَرَفْعِ أَقْدَارِهِمْ، وَلِتَقْتَدِيَ الْأُمَّةُ بِهِ فِي مِثْلِهِ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مَعْلُومًا عِنْدَهُمْ، أَنَّهُمْ إذا

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج ٢، ص ٩٠.

استفرغوا مجهودهم، في استنباط ما شاوروا فِيهِ، وَصَوَابِ الرَّأْيِ فِيمَا سُئِلُوا عَنْهُ، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَعْمُولًا عَلَيْهِ، وَلَا مُتَلَقًّى مِنْهُ بِالْقَبُولِ بِوَجْهٍ، لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ تَطْيِيبِ نُفُوسِهِمْ، وَلَا رَفْعٌ لِأَقْدَارِهِمْ، بَلْ فِيهِ إيحَاشُهُمْ، وإعلامهم بِأَنَّ آرَاءَهُمْ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ، وَلَا مَعْمُولٌ عَلَيْهَا[١].

ويوافقه على هذا الرأي الشيخ ابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ)، حيث جاء في تفسيره التحرير والتنوير ما نصّه: (وَظَاهِرُ الْأَمْرِ، أَنَّ الْمُرَادَ الْمُشَاوَرَةُ الْحَقِيقِيَّةُ، الَّتِي يُقْصَدُ مِنْهَا الِاسْتِعَانَةُ بِرَأْيِ الْمُسْتَشَارِينَ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ عَقِبَهُ: ﴿فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾)[٢].

بين الغيب والخبرة البشرية

ومن يرى أنّ الاستشارة ليس المطلوب منها هدفًا واقعيًّا، وإنّما مجرد التربية، ينطلق من مسألة عقدية، ترتبط بمستوى علم النبي ﷺ المستمدّ من الله سبحانه وتعالى، فهو مطّلع على كلّ الأمور والمصالح، وتنكشف له كلّ الحقائق، فلا يحتاج إلى أيّ رأي أو خبرة بشرية.

وهناك اتجاه يناقش هذا المعتقد، يقول الشيخ المفيد: (وليس من شرط الأنبياء ﷺ، أن يحيطوا بكلّ علم، ولا أن يقفوا على باطن كلّ ظاهر. وقد كان نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله، أفضل النبيين، وأعلم المرسلين، ولم يكن محيطًا بعلم النجوم، ولا متعرّضًا لذلك، ولا يتأتى منه قول الشعر، ولا ينبغي له. وكان أميًّا بنص التنزيل، ولم يتعاطَ معرفة الصنائع، ولما أراد المدينة، استأجر دليلًا على سنن الطريق. وكان يسأل عن الأخبار، ويخفى عليه منها ما لم يأتِ به إليه صادق من الناس)[٣].

وقال الشريف المرتضى: (والمراد بالآية: ﴿وَمٰا أَدْرِي مٰا يُفْعَلُ بِي وَلٰا بِكُمْ﴾،

---

(١) أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، أحكام القرآن، طبعة ١٤٠٥هـ.، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص١٩٢.

(٢) التحرير والتنوير، ج٣، ص٢٦٧.

(٣) الشيخ المفيد، المسائل العكبرية، المؤتمر العالمي بمناسبة الذكرى الألفية لوفاة الشيخ المفيد، ص٣٤.

أنني لا أدري ما يفعل بي ولا بكم من المنافع والمضار الدنيوية، كالصحة والمرض، والغنى والفقر، والخصب والجدب، وهذا وجه صحيح واضح لا شبهه فيه)[١].

وبغضّ النظر عن هذا النقاش، فإنّ من المتفق عليه، أنّ النبي ﷺ يمارس حياته، ويدير الأمور، فيما لم ينزل به وحي، ضمن الحالة البشرية الطبيعية، وليس ضمن المعادلات الغيبية، حتى ولو كان عالمًا بها.

لذلك ورد عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْأَيْمَانِ، وَبَعْضُكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ مَالِ أَخِيهِ شَيْئًا، فَإِنَّمَا قَطَعْتُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»[٢].

وفي رواية البخاري، عن أم سلمة، أَنَّ رَسُول اللَّه ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ؛ فأَقْضِي لَهُ بِنحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بحَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»[٣].

إنّ الدرس الذي يجب أن نأخذه من الاستشارات النبوية، هو اعتماد هذا النهج النبوي، والاستفادة من آراء من حولنا، وأن نتحلّى بالتواضع، وتقدير آراء الآخرين، وألّا ننحاز أو نتعصب لآرائنا على حساب الحقّ والصواب.

---

(١) رسائل الشريف المرتضى، دار القرآن الكريم، قم، ج٣، ص١٠٥.
(٢) الكافي، ج٧، ص٤١٤، حديث١.
(٣) صحيح البخاري، حديث٧١٦٩.

الفصل الرابع

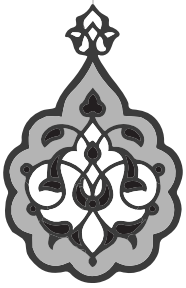

الارتقاء بالمجتمع

مرجعية الضمير في التوجيه النبوي

من أجلى النعم والميزات التي منحها الله تعالى للإنسان، القدرة على التمييز بين الخير والشر، بين الحسن والقبح. حيث أعطى الله تعالى للإنسان في هذه الحياة حرية اختيار طريقه نحو الخير أو باتجاه الشر، وحرية أداء أعماله التي يقرّرها حسنة أو سيئة.

فلا بُدّ وأن يمتلك قدرة التمييز والتشخيص، ليمارس حرية الاختيار عن معرفة وقصد.

يقول تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾[سورة الأنفال، الآية: ٤٢].

لذلك زوّده الله تعالى بالعقل كقوة إدراك وتفكير، ليتأمل ما يواجهه من خيارات، ويستبين به الأمور، كما أودع في نفسه الضمير والوجدان، لتحفيزه نحو الخير، وتحذيره من الشر.

من هنا فإنّ بني البشر، في جميع الأزمان والعصور، ومن مختلف الانتماءات، يتفقون على تمجيد مكارم الأخلاق، وعلى تقبيح الرذائل والمساوئ. وذلك من وحي إدراك عقولهم وفطرتهم، فلا يحتاج الإنسان إلى تعلّم، حتى يدرك حسن العدل والأمانة والصدق، وقبح الظلم والخيانة والكذب، وأمثال ذلك.

إنّ أصول الأخلاق لها جذور في عمق الإنسان وطبيعته، وبما أنّ الفطرة الإنسانية واحدة في جميع الظروف، فإنّ أصول الأخلاق النابعة منها ثابتة لا تتغير.

قد تختلف بعض مصاديق الخير والشر، والحسن والقبح، باختلاف ثقافات الناس وتقاليدهم، وبتطور الحياة الاجتماعية. لكنّ المبادئ والأصول تكون ثابتة.

إلهام وهداية من الله

وهذا ما يؤكد عليه القرآن الكريم في عدد من آياته، كقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [سورة الشمس، الآيتان: ٧-٨].

إنه تعالى يقسم بالنفس الإنسانية، وخلقه لها سويّة متقنة الخلق والوجود، ثم يردف ذكر خلقه النفس وتسويتها، بذكر منحه لهذه النفس قدرة التمييز بين الخير والشر، على نحو الإلهام.

والإلهام: مشتقٌّ من اللهم، وهو البلع دفعة، ويقصد به إلقاء الشيء في روع الإنسان من قبل الله تعالى، فهو يطلق على حدوث علم في النفس بدون تعلّم ولا تجربة، كالانسياق إلى المعلومات الضرورية والوجدانية.

وتعني الآية: أنّ الله سبحانه أودع في نفس الإنسان معرفة أمري الفجور والتقوى، أي الشر والخير.

يقول تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [سورة البلد، الآية: ١٠]. أي طريقي الخير والشر، والهداية الدلالة على الطريق.

والنَّجد: هو المكان المرتفع، فكلا الطريقين يحتاج سلوكه إلى جهد وتحمّل، كتسلّق المكان المرتفع.

فهناك صعوبات قد تعترض سالك طريق الخير، ونتائج وخيمة تصيب سالك طريق الشر.

ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّمَا هُمَا نَجْدَانِ: نَجْدُ خَيْرٍ، وَنَجْدُ شَرٍّ، فَمَا جَعَلَ نَجْدَ الشَّرّ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ نَجْدِ الخَيْر»[1].

وربما يقال: إنّ التعبير بالنجدين، إشارة إلى ظهور طريق الخير والشر وبروزهما، كبروز الأرض المرتفعة.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [سورة الإنسان، الآية: ٣].

معرفة مصاديق الخير والشر

إنّ الإنسان يدرك بعقله وفطرته أصول المبادئ الأخلاقية، والمعالم الرئيسة لها، وليس كلّ الجوانب والتفاصيل والتطبيقات، التي قد يخفى عليه بعضها، ويقصر عن معرفتها، فإدراك الإنسان للخير والشر والحسن والقبح، هو على نحو الموجبة الجزئية، وليس الكلية، على حدّ تعبير المناطقة.

وللإحاطة بأمور الخير والشر، والحسن والقبح، ومعرفة التفاصيل والتطبيقات، وموارد التزاحم والتعارض، يحتاج إلى الشرائع الإلهية، والتخصصات العلمية، والخبرات والتجارب، وكلّها أمور يسّر الله تعالى للإنسان سبلها، لتتكامل هدايته ومعرفته.

وقد يجد الإنسان نفسه أمام حالة التباس، في تحديد بعض الموارد والمواقف، فتختلط عليه الأوراق، إما لانشداده نفسيًّا، بدافع الرغبة والمصلحة، تجاه بعض الخيارات، أو لوجود أجواء اجتماعية، تؤثر على اختياره لهذا المورد أو ذاك.

---

(١) تحف العقول، ص٤١٣، وتفسير الطبري، تفسير سورة البلد.

وهنا على الإنسان أن يرجع إلى ضميره ووجدانه، ويأخذ بما يرشده إليه ويمليه عليه.

وهذا ما نجد التأكيد عليه في التوجيهات النبوية الشريفة.

ورد عَنِ الإمام علي اَلرِّضَا عليه السلام عَنْ أَبِيهِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: إِنَّ وَابِصَةَ بْنَ مَعْبَدٍ اَلْأَسَدِيَّ أَتَاهُ [أي رسول الله صلى الله عليه وآله] فَقَالَ لاَ أَدَعُ مِنَ اَلْبِرِّ وَاَلْإِثْمِ شَيْئًا إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ، فَلَمَّا أَتَاهُ، قَالَ لَهُ اَلنَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: أَتَسْأَلُ عَمَّا جِئْتَ لَهُ أَوْ أُخْبِرُكَ؟ قَالَ: أَخْبِرْنِي. قَالَ صلى الله عليه وآله: جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ اَلْبِرِّ وَاَلْإِثْمِ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى صَدْرِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا وَابِصَةُ، اَلْبِرُّ مَا اِطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ اَلنَّفْسُ، وَاَلْبِرُّ مَا اِطْمَأَنَّ بِهِ اَلصَّدْرُ، وَاَلْإِثْمُ مَا تَرَدَّدَ فِي اَلصَّدْرِ، وَجَالَ فِي اَلْقَلْبِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ اَلنَّاسُ وَأَفْتَوْكَ»[١].

وعنه صلى الله عليه وآله: «البِرُّ ما سَكَنَتْ إليهِ النَّفْسُ، واطْمَأنَّ إليهِ القلبُ، والإِثْمُ ما لمْ تَسْكُنْ إليهِ النَّفْسُ، ولمْ يَطْمَئِنَّ إليهِ القلبُ، وإنْ أَفْتَاكَ المُفْتُون»[٢].

وعنه صلى الله عليه وآله: «إِذَا سَمِعْتُمْ الْحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ، وَتَلِينُ لَهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ، فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ الْحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ، وَتَنْفِرُ مِنْهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ، فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ»[٣].

وعنه صلى الله عليه وآله: «مَا أَنْكَرَ قَلْبُكَ، فَدَعْهُ»[٤].

وعَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الباقر عليه السلام: «مَا وَرَدَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَدِيثِ آلِ مُحَمَّدٍ فَلَانَتْ لَهُ قُلُوبُكُمْ وعَرَفْتُمُوهُ، فَاقْبَلُوهُ؛ ومَا اشْمَأَزَّتْ مِنْهُ قُلُوبُكُمْ وأَنْكَرْتُمُوهُ، فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وإِلَى الرَّسُولِ وإِلَى الْعَالِمِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ»[٥].

---

(١) وسائل الشيعة، حديث٣٣٥٠٢.

(٢) محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، الطبعة الأولى١٤٢١هـ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، حديث١٧٣٥.

(٣) مسند أحمد بن حنبل، حديث٢٤٠٠٥.

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث٢٢٣٠.

(٥) الكافي، ج١، ص٤٠١، حديث١.

مغالطة الضمير

إنّ بعض الناس قد يغالط ضميره، ويلتفّ على وجدانه، بالقيام بممارسات خطأ لا يقبلها ضميره ووجدانه، اعتمادًا على مبررات من خارج ذاته، كالاستناد إلى بعض الفتاوى والقوانين، وهنا لا بُدّ من استحضار رقابة الله ومعرفته بما تخفي الصدور.

وهل هناك أعظم من أن يصدر حكم قضائي من النبي محمد ﷺ، لكنّ الإنسان إذا كان يعلم أنه ليس صاحب حقّ، فإنّ الحكم النبوي لا يعفيه من المسؤولية أمام الله تعالى، ولا يحميه من عقابه.

مبررات للالتفاف على الضمير

فقد ورد في حديث صحيح من طرق الفريقين السنة والشيعة، كما في الكافي بسنده عَنْ أَبِي عَبْدِاَللَّهِ جعفر الصادق عليه السلام قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ: إِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَاَلْأَيْمَانِ، وَبَعْضُكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ مَالِ أَخِيهِ شَيْئًا، فَإِنَّمَا قَطَعْتُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ اَلنَّارِ»[1].

وفي صحيح البخاري بسنده عن أمِّ سلمة، أنّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ، فَلَا يَأْخُذْهَا»[2].

وفي تراثنا الإسلامي، وجدنا أنّ هناك من يستند إلى تصرف مزاجي، أو قول هزلي لأحد الفقهاء، لتبرير الإساءة والعدوان، فقد نقلوا عن الأعمش ـ المحدِّث المشهور، (ت ١٤٧هـ) ـ وهو صاحب نوادر، وكان في خُلُقه شراسة، فحكوا أنه أراد الحج فخرج مع جَمّال، وخرج معه بعضُ طلاب الحديث، يرجون أن يسمعوا منه الحديث، فكان الجمّال يؤذيهم، على عادة الجَمّالين من غِلَظ الطباع وسوء التعامل،

(١) الكافي، ج٧، ص٤١٤، حديث١.
(٢) صحيح البخاري، باب من أقام البينة بعد اليمين، حديث٢٤٩٦.

فاجتمعوا يومًا في خيمة، فجاء إليهم الجَمّال يؤذيهم، فقام إليه الأعمش بعمود الخيمة فضربه وشجّ رأسه! فقال له أصحابه: يا أبا محمد، تَشُجّ رأسه وأنت مُحْرِم؟! فقال: إن مِن سُنّة الإحرام ضربُ الجَمّال[١]!

إنّ كلّ من عرف شخصية الأعمش، واطّلع على نوادره المروية في تراجم المحدثين وكتب الأدب، يمكنه سريعًا تصنيف هذه العبارة في أبواب النوادر الأدبية، ولا تلتبس عليه بأبواب الجِد، خصوصًا أنه لا عاقل يقول بظاهر هذا الحكم الذي تلفّظ به الأعمش، ومع هذا نجد ابنَ مُفْلح ـ الفقيه الحنبلي الشهير (ت ٧٦٣هـ) ـ ينصّ في إحدى مسائل الحج على قوله: «وَلَيْسَ مِنْ تَمَامِ الْحَجِّ ضَرْبُ الْجَمَّالِينَ، خِلَافًا لِلْأَعْمَشِ، وَحَمَلَ ابْنُ حَزْمٍ قَوْلَهُ عَلَى الْفَسَقَةِ مِنْهُمْ»[٢].

بل ربط بعضُ الشرّاح تصرف الأعمش بالحديث المروي عن أسماء بنت أبي بكر وفيه: (خرجنا مع رسول الله ﷺ حُجّاجًا... وكان أبو بكر ينتظر أن يطّلع عليه غلامه ببعيره، فطلع وليس معه البعير، فقال له أبو بكر: أين بعيرك؟! فقال: أَضْلَلْتُه البارحة، فقال أبو بكر: بعيرٌ واحدٌ تُضِلّه؟! فطَفِقَ يضربه، ورسولُ الله يتبسم ويقول: «انظروا إلى هذا المُحْرِم ما يصنع»! فوجّه بعضُ متأخري الشرّاح تصرفَ الأعمش وعبارته على ضوء تصرف أبي بكر مع الفارق بينهما)[٣].

إنّ على الإنسان أن يصغي دائمًا لصوت ضميره، ونداء وجدانه، وخاصة في مجال علاقاته مع الآخرين، قريبين أو بعيدين، حتى لا يتورّط في ممارسة الظلم والجور على أحد، ولا تلتبس عليه الأمور، ولا يقع في فخ التبرير للخطأ والانحراف.

---

(١) أبو نعيم أحمد بن عبدالله الإصفهاني الشافعي (ت ٤٣٠هـ)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دراسة وتحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٥، ص٦٢.

(٢) محمد بن مفلح الحنبلي (ت ٧٦٣هـ) المحقق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، كتاب الفروع، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج٦، ص٧٤.

(٣) د. خالد الغامدي، مقال (النكتةُ حين تُدلِّس!)، جريدة الرياض ١٥ رجب ١٤٤٢هـ الموافق ٢٧ فبراير ٢٠٢١.

يُسر الدين في المنهج النبوي

للتَّشريعات الدينيَّة والأحكام الشرعيَّة غرضان أساسان:

الأول: تعزيز العبوديَّة لله، والخضوع لأمره في نفس الإنسان.

قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [سورة البينة، الآية: ٥].

الثاني: تحقيق المصلحة للإنسان في بُعدِه المادِّي والمعنوي، وفي حياته الدنيويَّة والأخرويَّة، وفي الجانب الفرديِّ والاجتماعيِّ.

ولا مصلحة لله تعالى في شيءٍ من التَّشريعات والأحكام. يقول تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[سورة الزمر، الآية: ٧].

ورد عن علي عليه السلام: «إِنَّ اَللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ اَلْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيًّا عَنْ طَاعَتِهِمْ آمِنًا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ؛ لِأَنَّهُ لاَ تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ

مَنْ عَصَاهُ وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ»[١].

ولأنّ مصلحة الإنسان منظورة في التَّشريع، فهو يأخذ وضعه وواقعه بعين الاعتبار، ولا يفرض عليه ما ينافي طبيعته، ويتجاوز طاقته، ويسبّب له حرجًا في حياته.

يقول تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

ويقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

ويقول تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

وفي حديث القرآن الكريم عن بعض التَّكاليف الشرعيَّة، يشير إلى أنّ المطلوب منها هو المقدار المتيسَّر للإنسان، الذي لا يسبِّب له عسرًا ولا حرجًا.

يقول تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾.

ويقول تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

سيرة النبيِّ في تبيين الأحكام

سيرة النبي ﷺ في تبيين الأحكام وتطبيقها قائمة على اليُسر، ويؤكِّد على ذلك ما ورد في صحيح أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي نَصْرٍ البيزنطي قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ اَلثَّانِي [الجواد] عَلَيْهِ اَلسَّلَامُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِنَا رَمَى اَلْجَمْرَةَ يَوْمَ اَلنَّحْرِ وَحَلَقَ قَبْلَ أَنْ يَذْبَحَ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا كَانَ يَوْمُ اَلنَّحْرِ أَتَاهُ طَوَائِفُ مِنَ اَلْمُسْلِمِينَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اَللَّهِ، ذَبَحْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ نَرْمِيَ، وَحَلَقْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذْبَحَ، وَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مِمَّا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يُقَدِّمُوهُ إِلَّا أَخَّرُوهُ، وَلاَ شَيْءٌ مِمَّا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يُؤَخِّرُوهُ إِلَّا قَدَّمُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: لاَ حَرَجَ، لاَ حَرَجَ»[٢].

ومثله ما ورد في صحيح البخاري عن عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ

(١) نهج البلاغة، من خطبة له ﷺ يصف فيها المتقين، خطبة ١٩٣.
(٢) الكافي، ج٤، ص٥٠٤، حديث٢.

اللَّهِ ﷺ وَقَفَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ بِمِنًى لِلنَّاسِ يَسْأَلُونَهُ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: لَمْ أَشْعُرْ فَحَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ. فَقَالَ: (اذْبَحْ وَلاَ حَرَجَ). فَجَاءَ آخَرُ فَقَالَ: لَمْ أَشْعُرْ، فَنَحَرْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ. قَالَ: (ارْمِ وَلاَ حَرَجَ). فَمَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ قُدِّمَ وَلاَ أُخِّرَ إِلَّا، قَالَ: افْعَلْ وَلاَ حَرَجَ[١].

اليُسر في تطبيق الأحكام الشرعيَّة

وروي أنَّ أعْرَابِيًّا بَالَ في المَسْجِدِ، فَثَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ ليَقَعُوا به، فَقالَ لهمْ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: دَعُوهُ، وأَهْرِيقُوا علَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِن مَاءٍ -أوْ سَجْلًا مِن مَاءٍ- فإنَّما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ ولَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ[٢].

وعن جابر بن عبدالله، أنَّ معاذًا كانَ يُصَلِّي مع النَّبيِّ ﷺ، ثُمَّ يَأْتي قَوْمَهُ فيُصَلِّي بهِمُ الصَّلَاةَ، فَقَرَأَ بهِمُ البَقَرَةَ، قالَ: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّى صَلَاةً خَفِيفَةً، فَبَلَغَ ذلكَ مُعَاذًا، فَقالَ: إنَّه مُنَافِقٌ، فَبَلَغَ ذلكَ الرَّجُلَ، فأتَى النَّبيَّ ﷺ فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، إنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بأَيْدِينَا، ونَسْقِي بنَوَاضِحِنَا، وإنَّ مُعَاذًا صَلَّى بنَا البَارِحَةَ، فَقَرَأَ البَقَرَةَ، فَتَجَوَّزْتُ، فَزَعَمَ أنِّي مُنَافِقٌ، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: يا مُعَاذُ، أفَتَّانٌ أنْتَ؟! -ثَلَاثًا- اقْرَأْ: والشَّمْسِ وضُحَاهَا، وسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعْلَى، ونَحْوَهَا[٣].

وجاء عنه ﷺ: إنَّ خيرَ دِينِكُمْ أيسَرُه، ثلاثًا[٤].

وعن ابن عباس عنه ﷺ: علِّمُوا، ويسِّروا ولَا تُعَسِّروا[٥].

وعنه ﷺ: «إنِّي لَأَقُومُ إلى الصَّلَاةِ وأَنَا أُرِيدُ أنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فأسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ،

---

(١) صحيح البخاري (حديث٨٣) وصحيح مسلم (حديث١٣٠٦).
(٢) المصدر نفسه، حديث٦١٢٨.
(٣) المصدر نفسه، حديث ٦١٠٦.
(٤) صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، ص١٣٨.
(٥) سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث١٣٧٥.

فأتَجَوَّزُ في صَلَاتي كَرَاهيةَ أنْ أشُقَّ علَى أُمِّهِ»[١].

وعن أنس، قال: ما صَلَّيْتُ وراءَ إمَامٍ قَطُّ أَخَفَّ صَلَاةً، ولَا أَتَمَّ مِنَ النبيِّ ﷺ، وإنْ كانَ لَيَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فيُخَفِّفُ مَخَافَةً أَنْ تُفْتَنَ أُمُّهُ[٢].

وعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الإمام محمد الباقر عليه السلام قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ: إِنَّ هَذَا اَلدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُكَرِّهُوا عِبَادَةَ اَللَّهِ إِلَى عِبَادِ اَللَّهِ، فَتَكُونُوا كَالرَّاكِبِ اَلْمُنْبَتِّ، اَلَّذِي لاَ سَفَرًا قَطَعَ، وَلاَ ظَهْرًا أَبْقَى»[٣].

الفقه المعاصر والتَّيسير على الناس

وإذا كان البعض يجد شيئًا من الحرج في بعض الأحكام والتَّشريعات الدينيَّة في هذا العصر، فإنَّ ذلك بسبب وجود مشكلات في الممارسة الفقهيَّة.

فَلِبُعْدِ عصر النَّص، والملابسات التي تكتنف النُّصوص الشَّرعية الواردة في سندها، أو في اختلاف فهمها، صار الفقيه يواجه مشكلة في وضوح بعض الأحكام الشَّرعيَّة أمامه. ولا يريد أن يفتي الناس بما لم يتأكَّد منه. وهنا يتشدَّد بعض الفقهاء في بعض الأحكام الشَّرعيَّة، وتكثر الاحتياطات عند بعضهم.

والملاحظ أنه في الكتب الفقهية القديمة تقلُّ الاحتياطات. أما مصطلح الاحتياط الوجوبي فلم يظهر في الكتب والفتاوى إلَّا في القرنين الأخيرين.

وفي هذا السِّياق ينقل المرجع السيد موسى الزَّنجاني عن صاحب الجواهر، أنه قبيل وفاته استدعى الشيخ مرتضى الأنصاري وقال له: يا شيخ، قلِّل من الاحتياطات، فإنَّ الشَّريعة سهلة[٤].

---

(١) صحيح البخاري، حديث ٨٦٨.

(٢) المصدر نفسه، حديث ٧٠٨.

(٣) الكافي، ج٢، ص٨٦، حديث١.

(٤) الشيخ محسن آل مبارك، من سيرة العلماء على لسان السيد موسى الزنجاني، الطبعة الأولى١٤٤١هـ، منشورات شرق، بيروت، ص٩١.

إنَّه ينبغي فتح المخارج والرُّخص الشَّرعية أمام النَّاس، بالرجوع إلى سائر الفقهاء في الاحتياطات الوجوبيَّة.

وكذلك توضيح مسألة إمكان الرجوع إلى فقيه آخر حتى في الفتوى، وليس في الاحتياطات الوجوبيَّة فقط، جاء في فتاوى السَّيد السِّيستاني: إذا اختلف المجتهدون في الفتوى وجب الرجوع إلى الأعلم، ولو تساووا في العلم أو لم يحرز وجود الأعلم بينهم كان المكلَّف مخيَّرًا في تطبيق عمله على فتوى أيٍّ منهم[1].

(١) السيد السيستاني، منهاج الصالحين، ج١، ص٢٣، مسألة ٨.

الارتقاء بوعي الناس

ظهر في التاريخ الإنساني، كثير من القادة الذين تبوؤوا مواقع الزعامة في مجتمعاتهم، والتفَّ حولهم جمهور الأتباع.

ويمكن تصنيف هؤلاء القادة إلى صنفين رئيسين:

الصنف الأول: القادة الإلهيون، الذين يحملون رسالة الله تعالى إلى عباده، وهم الأنبياء، والأئمة، ومن يسير على دربهم، ويتمسّك بهديهم.

الصنف الثاني: الزعامات التي تنطلق من طموحات ذاتية، أو تطلّعات اجتماعية، كالسياسيين، وشيوخ القبائل، وقادة الحركات الفكرية والاجتماعية.

ومن أهم الفوارق المائزة بين الصنفين، أنّ القادة الإلهيين يلتزمون بقيم الرسالة الإلهية التي يحملونها، ويجتهدون في الارتقاء بوعي الناس إلى مستوى تلك القيم والمبادئ، أما

الزعامات الأخرى فإنّها غالبًا ما تتبنّى ما يجذب إليها جمهور الناس، من أفكار وشعارات ومواقف، وإن كانت مجانبة للحقّ والصّواب.

طبيعة الجمهور

إنّ الطبيعة السّائدة في جمهور الناس، هي النزوع نحو الانفعال العاطفي، على حساب التفكير العقلاني، والانشداد لعصبية الانتماء القبلي والعرقي والقومي والمناطقي والطائفي، والتمسّك بالأعراف والتقاليد الموروثة، والنزوع نحو الحسية أكثر من الأفكار النظرية التجريدية، والقبول بالأفكار السّاذجة والبسيطة، على حساب الأفكار العلمية العميقة.

وحين تتبنّى أيّ جهة ما يتماهى مع توجهات الجمهور وميوله، فإنّها تكسب ولاء الجمهور وقبوله. وهذا ما تجيده الزعامات المصلحية، وتوظّفه في تحقيق زعامتها، وتوسيع قاعدتها الشعبية.

إنّ هذا النوع من القيادات تبحث عمّا يحرّك مشاعر الجمهور ويجذبه باتجاهها، حقًّا كان أو باطلًا، فهي قد تطرح ما لا تؤمن به، لكنّها تتظاهر بالتلبّس به أمام الجمهور، وقد تحدّث نابليون أمام مجلس الدولة الفرنسي ليقول لهم بصراحة: (لم أستطع إنهاء حرب الفاندي إلّا بعد أن تظاهرت بأنّي كاثوليكي حقيقي، ولم أستطع الاستقرار في مصر إلّا بعد أن تظاهرت بأنّي مسلم تقي، وعندما تظاهرت بأنّي بابوي متطرّف استطعت أن أكسب ثقة الكهنة في إيطاليا، ولو أنه أتيح لي أن أحكم شعبًا من اليهود لأعدت من جديد معبد سليمان)[1].

وقد سلّط علم النفس الاجتماعي الأضواء على خصائص الطبيعة الجماهيرية، ومن أهم مفكريه العالم الفرنسي (غوستاف لوبون، ١٨٤١- ١٩٣١م) وله كتاب مرجعي في هذا العلم، هو (سيكولوجية الجماهير، صدر عام ١٨٩٥م).

(١) غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ترجمة هاشم صالح، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، دار الساقي، بيروت، ص٨٨.

وقد انطلق غوستاف لوبون من دراسته للحركات الجماهيرية في أوروبا، وخاصّة في القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين.

ومن الأفكار التي يؤكدها (لوبون) في كتابه: إنّ من خصائص الجماهير: سرعة الانفعال، والسّذاجة، والتأثّر السّريع، وهيمنة النّزعة العاطفية، والميل للعواطف المتطرفة، وهي غير ميالة كثيرًا للتأمل والمحاكمة العقلية، وقد تنتقل من النقيض إلى النقيض بسرعة البرق، وذلك تحت تأثير المحرّض.

وإذا كانت بعض أفكاره محلّ جدل وأخذ وردٍّ، حيث بادر معاصره (غابرييل تارد) إلى الرّد عليه، وإصدار كتابه (الرأي والجمهور) عام ١٩٠١م، أي بعد ست سنوات من صدور كتاب (سيكولوجية الجماهير).

إلّا أنّ جوهر فكرة الكتاب يصدقها التاريخ الإنساني في مختلف عصوره، وحتى في عصرنا الحاضر، مع تقدّم العلم، واتساع مساحة المعرفة عند أبناء المجتمعات، وتوفر أدوات العلم ووسائل المعرفة والاطّلاع، إلّا أنّ ذلك لم يضعف تأثير معظم تلك الخصائص التي تحدّث عنها (لوبون) على الجماهير المعاصرة. مما أعطى للإعلام ووسائط التواصل الحديثة دورًا كبيرًا في التأثير على الرأي العام، في مختلف المجتمعات، من خلال الاستفادة من تلك الخصائص.

معاناة الأنبياء

من هنا كانت الصّعوبة بالغة في حركة الأنبياء والرّسل؛ لأنّهم يريدون الارتقاء بوعي الناس، وليس الاستجابة لرغباتهم وتوجهاتهم العاطفية الانفعالية.

إنّ الله تعالى بعث الأنبياء لإنقاذ الناس من الجهل، ومن هيمنة الخرافات والأساطير على عقولهم ونفوسهم، ولتحصينهم من تأثير الانفعالات العاطفية، ولا يمكن للأنبياء أن يتلوّنوا بغير صبغة رسالتهم الإلهية، ولا أن يجاروا الناس في ضلالهم وانحرافهم ليتمكّنوا من قيادتهم.

يقول تعالى: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٧٠].

حيث يخوض الأنبياء صراعًا ومعارك مستمرّة، ضدّ النزعات السّلبية التي تظهر في جمهور مجتمعاتهم، حتى بعد قبولهم للدين الإلهي، كالنزوع إلى الميل العاطفي، وسطحية التفكير، وقبول الأساطير والخرافات، وروح العصبية، والمبالغة في ردود الفعل.

إنّ القرآن الكريم يتحدّث عن بني إسرائيل، أنّهم بعد أن نصرهم الله على فرعون، وأغرقه وجيشه، طلبوا من نبي الله موسى أن ينصب لهم أصنامًا يتوسّلون ويتبركون بها كحال المشركين، يقول تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ * وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآيات: ١٣٧-١٤٠].

إنّ فكرة الإيمان بالإله المتعالي عن إدراك الحواس، الذي لا يحدّه زمان ولا مكان، عسيرة الهضم على من أَلِفُوا التصوّرات السّطحية السّاذجة، لذلك يطلبون من نبيّهم أن يضع لهم أصنامًا تجسّد فكرة الإله.

وقد واجه النبي محمد ﷺ المشكلة نفسها، حيث طلب منه بعض أصحابه أمرًا مشابهًا لطلب بني إسرائيل، فقد روي أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمَّا خرَجَ إلى خَيبرَ، مَرَّ بشجرةٍ للمشركينَ يُقالُ لها: ذاتُ أَنْواطٍ، يُعلِّقونَ عليها أسلحتَهم، تبركًا بها وطلبًا للنصر، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، اجعَلْ لنا ذاتَ أَنْواطٍ كما لهم ذاتُ أَنْواطٍ، فقال النبيُّ ﷺ: «سُبحانَ اللهِ! هذا كما قال قَومُ موسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٣٨]، والذي نَفْسي بيدِه، لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَن كان قَبلَكم»[1].

(١) صحيح الترمذي، حديث ٢١٨٠.

ضغوط ومحاولات للتأثير على النبي

وقد واجه نبيّنا محمد ﷺ كثيرًا من المعاناة في دعوته إلى الله، وتبشيره بالقيم الإلهية، فقد كانوا يضغطون على النبي ﷺ لكي يهبط وينحدر إلى مستوى أوهامهم وخرافاتهم، حتى يقبلوا دعوته. لكنّه بتسديد الله تعالى له كان يرفض الاستجابة إلى ضغوطهم. وكانت الضّغوط شديدة بحيث لو لا التسديد الإلهي، لكان استجاب لهم بدرجة أو بأخرى.

يقول تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [سورة الإسراء، الآيات: ٧٣-٧٥].

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٩].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة يونس، الآية: ١٥].

طلبات غريبة

ونقرأ في السّيرة النبوية وما نقلته كتب الحديث، أنّ بعض المسلمين كانوا يطرحون على رسول الله ﷺ بعض الطّلبات النابعة من العواطف السّاذجة، والمخالفة للقيم الإلهية، فمثلًا:

روى أبو داود السّجستاني بإسناده إلى قيس بن سعد قال: (أتيتُ الحيرَةَ، فرأيتُهم يسجدونَ لِمَرْزبانٍ لهم، فقلْتُ: رسولُ اللهِ أحقُّ أنْ يُسْجَدَ لَهُ، قال فأتيتُ النبيَّ ﷺ فقُلْتُ: إِنِّي أتيتُ الحيرةَ فرأيتُهم يسجدونَ لمرزبانٍ لهم، فأنتَ يا رسولَ اللهِ أحقُّ أنْ

نسجدَ لكَ)[١].

ونقرأ في الخبر عن معاذ بن جبل (أنه أتى الشّام فرأى النّصارى يسجدون لأحبارهم وعلمائهم وفقهائهم، فقال: لأيّ شيءٍ تفعلون هذا؟ قالوا: هذه تحيّة الأنبياء، قلنا فنحن أحقّ أن نصنع بنبيّنا ﷺ، فلما قدم على النبي ﷺ سجد، فقال ﷺ: ما هذا يا معاذ؟ قال: إنّي أتيت الشّام فرأيت النصارى يسجدون لأساقفتهم وقسّيسيهم ورهبانهم وبطارقتهم، ورأيت اليهود يسجدون لأحبارهم وفقهائهم وعلمائهم، فقلت: أيّ شيءٍ تصنعون هذا؟ وتفعلون هذا؟ قالوا: هذه تحيّة الأنبياء، قلت: فنحن أحقّ أن نصنع بنبيّنا، فقال نبي الله ﷺ: إنّهم كذبوا على أنبيائهم، كما حرّفوا كتابهم)[٢].

ومن هذه الأخبار ما روي أَنَّ رَجُلًا قالَ: يا رَسُولَ اللَّهِ، نُسَلِّمُ عَلَيْكَ كَما يُسَلِّمُ بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ، أَفَلا نَسْجُدُ لَكَ؟ قالَ ﷺ: «لَا، وَلَكِنْ أَكْرِمُوا نَبِيَّكُمْ، وَاعْرِفُوا الْحَقَّ لِأَهْلِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُسْجَدَ لِأَحَدٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ»[٣].

الرّسالة والدّرس

حينما يتحدّث القرآن عن مثل هذه المواقف، فإنّ من أغراضه تحذير حملة الرسالة وقادة الدين في كلّ عصر من الوقوع في هذا المطب.

فإنّ الجمهور قد تظهر فيه توجّهات انفعالية عاطفية، وتكون الفرصة سانحة لمن يريد ركوب الموج، لكنّ الدّعاة المخلصين الصّادقين هم من يلجؤون إلى عون الله، وتثبيته لنفوسهم حتى لا يخضعوا لهذه الضّغوط، ولو بعنوان ثانوي من أجل الاستقطاب والجذب، فإنه لا يطاع الله من حيث يعصى.

---

(١) صحيح أبي داوود، حديث ٢١٤٠.

(٢) مجمع الزوائد، ج٤، ص٣٠٩.

(٣) محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ دار ابن كثير، دار الكلم الطيب ـ دمشق، بيروت، ج١، ص٤٠٨.

النَّبي ومواجهة الخرافات

الخرافة: هي المعتقد الذي ليس له أساس علمي أو ديني.

وفي كتب اللغة عرفت بأنّها: الحديث المستملح من الكذب. وقالوا: حديث خرافة، ذكر ابن الكلبي أنه نسبة إلى شخص اسمه خرافة من بني عُذْرَة، أو من قبيلة جُهينة، قالوا: اختطفته الجنّ، ثم رجع إلى قومه يحدّث بأحاديث مما رأى، يعجب منها الناس، فكذّبوه، فجرى على ألسن الناس على كلّ ما يكذبونه من الأحاديث.

وقد يكون مشتقًّا من الخَرَف: وهو فساد العقل من الكبر، يقولون: خَرِف الرجل: أي فسد عقله من الكِبَر.

وكلما كان المجتمع بعيدًا عن العلم والمعرفة، وعن التفكير العقلاني، انتشرت في أوساطه الخرافات والمعتقدات التي لا أساس لها.

وقد تنتشر بعض الخرافات في بعض أوساط المجتمعات المتقدمة، كالتشاؤم من بعض الأشياء والأرقام، كالرقم (١٣)، أو تحديد وقت لنهاية العالم.

ولأنّ المجتمع العربي زمن بعثة النبي ﷺ، كان يعيش الجهل والتخلّف، فمن الطبيعي أن يصبح مرتعًا للخرافات والمعتقدات الفاسدة.

ومن أفسدها عبادة الأصنام، التي كانوا يصنعونها بأيديهم، من حجر أو خشب أو غيره، ثم يخرّون لها ساجدين، ويقدّسونها، ويعتقدون بها.

وهناك كثير من الخرافات كانت تسود المجتمع الجاهلي، فجاء رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى استخدام عقولهم، والتخلّص من هذه الخرافات.

لذلك تركز آيات القرآن الكريم على استثارة العقل، واستخدام الفكر، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ويؤكّد القرآن الكريم على مرجعية العلم في كلّ ما يتبنّاه الإنسان، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.

وفي خطبة للإمام علي عليه السلام تحدث فيها عن بعثة الأنبياء، فذكر أن من مهماتهم ووظائفهم في المجتمعات الإنسانية،: «وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ»[1].

خرافات تفسير الظواهر الكونية

إنّ أمور الكون، وشؤون الحياة، تجري حسب أنظمة وسنن إلهية، يقول تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، وعلى الإنسان أن يكتشف أنظمة الكون والحياة، ليستفيد من ذلك في تطوير حياته، واستثمار خيرات الكون. لكنّ الجهل يدفع بعض البشر لتفسير

(١) نهج البلاغة، من خطبة له عليه السلام يذكر فيها ابتداءَ خلق السماءِ والأرض، وخلق آدم، الخطبة ١.

الظواهر الكونية بالأوهام والخرافات.

ولتعزيز التفكير العقلاني، ومنع نفوذ الخرافات في المجتمع المسلم، واجه النبي ﷺ ما أشاعه البعض عند وفاة ابنه إبراهيم، حينما صادف انكساف الشمس، كما ورد عن عَلِيِّ بْنِ عَبْدِاَللَّهِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا اَلْحَسَنِ الإمام مُوسَى بن جعفر الكاظم عليه السلام يَقُولُ: إِنَّهُ لَمَّا قُبِضَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ رَسُولِ اَللَّهِ ﷺ، اِنْكَسَفَتِ اَلشَّمْسُ، فَقَالَ اَلنَّاسُ: اِنْكَسَفَتِ اَلشَّمْسُ لِفَقْدِ اِبْنِ رَسُولِ اَللَّهِ ﷺ، فَصَعِدَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ اَلْمِنْبَرَ، فَحَمِدَ اَللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَيُّهَا اَلنَّاسُ، إِنَّ اَلشَّمْسَ وَاَلْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اَللَّهِ، تَجْرِيَانِ بِأَمْرِهِ، مُطِيعَانِ لَهُ، لَا تَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا اِنْكَسَفَتَا، أَوْ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا، فَصَلُّوا»، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى بِالنَّاسِ صَلاَةَ اَلْكُسُوفِ)[1]. وورد مثله في صحيح البخاري عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ[2].

إنّ بعض الزّعامات قد تشجع على اختلاق الادّعاءات والأساطير حولها، لتحيط نفسها بهالة من القداسة والتعظيم، أو أن تسكت على ما يختلقه المتملّقون في تمجيدها، لكنّ النبي ﷺ لم يسكت على هذا التفسير الوهمي، لتوافق الكسوف مع موت ابنه. لأنه ﷺ جاء لإنقاذ الناس من سيطرة الجهل والخرافة.

وكان من السّائد في أوساط بعض عرب الجاهلية، أنّهم حينما يعانون من الجفاف، وينقطع عنهم المطر، يربطون أغصانًا سريعة الاحتراق في ذيل الأبقار، أعلى الجبال، ويضرمون النار في تلك الأغصان، فتنزل البقر تركض وتركل وتنعر، محدثة صوتًا شبيهًا بصوت الرعد والبرق، وهو ما يغري السّماء بإرسال غيثها كما يزعمون.

لكنّ النبي ﷺ أبطل تلك الخرافات، وشرّع صلاة الاستسقاء، وهي دعاء وطلب من الله تعالى بأن يغيث عباده.

---

(١) الكافي، ج٣، ص٤٦٣، حديث١.

(٢) صحيح البخاري، باب: الصلاة في كسوف الشمس، حديث (١٠٤٣).

خرافات في مواجهة الأخطار

وكانوا يستخدمون التمائم، جمع تميمة، وهي خرزات من أسنان الثعالب والقطط، كان الأعراب يعلّقونها على أعناق الأطفال، لحفظهم من الجنّ والعفاريت، وينفون بها العين والخطر والمرض. وقد نهى رسول الله ﷺ عنها.

جاء عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْبَلَ إِلَيْهِ رَهْطٌ، فَبَايَعَ تِسْعَةً وَأَمْسَكَ عَنْ وَاحِدٍ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَايَعْتَ تِسْعَةً وَتَرَكْتَ هَذَا؟ قَالَ ﷺ: «إِنَّ عَلَيْهِ تَمِيمَةً»، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فَقَطَعَهَا، فَبَايَعَهُ، وَقَالَ ﷺ: «مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»[١]. وذلك حين يعتقد بتأثير شيء في أمور الكون غير الله تعالى.

وروت أم قيس بنت محصن قالت: دَخَلْتُ بابْنٍ لي علَى رَسولِ اللَّهِ ﷺ، وقدْ أعْلَقْتُ عليه مِنَ العُذْرَةِ [قرحة تخرج بين الأنف والحلق، وقيل هي ما تعرف بالتهاب اللوز]، فَقَالَ: علَى ما تَدْغَرْنَ أوْلَادَكُنَّ بهذا العِلَاقِ، عَلَيْكُنَّ بهذا العُودِ الهِنْدِيِّ[٢].

حيث أمرها ﷺ باستخدام دواءٍ كان متاحًا آنذاك، كوسيلة لعلاج المرض، وليس تعليق تميمة على عنق الطفل تثقله.

وروي عن حليمة السعدية مرضعة النبي ﷺ، أنّها قالت: عَلَّقْتُ فِي عُنُقِهِ ـ أي رسول الله ـ خَيْطًا فِيهِ جَزْعٌ يَمَانِيَّةٌ، فَنَزَعَهَا، ثُمَّ قَالَ لِي: «مَهْلًا يَا أُمَّاهْ، فَإِنَّ مَعِي مَنْ يَحْفَظُنِي»[٣].

خرافة التطيّر والتشاؤم

وكان ينتشر بينهم التطيّر من الطِيَرة: بكسر الطّاء وفتح الياء. وهو التشاؤم بالشيء، ببعض الأيام، أو الطيور، أو الأسماء.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث٤٩٢.
(٢) صحيح البخاري، حديث٥٧١٣.
(٣) بحار الأنوار، ج١٥، ص٣٩٢، حديث٢٥.

فنهى ﷺ عن ذلك، كما ورد عن عبدالله بن مسعود، عنه ﷺ: الطِّيرةُ شِركٌ، الطِّيرةُ شِركٌ، ثلاثًا[١].

وجاء عَنِ الإمام مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ الكاظم ﷺ وهو يتحدّث عن بعض الإشاعات الخرافية التشاؤمية السّائدة، وضرورة مواجهتها بالوعي الإيماني، قَالَ: اَلشُّؤْمُ لِلْمُسَافِرِ فِي طَرِيقِهِ فِي خَمْسَةٍ: اَلْغُرَابِ اَلنَّاعِقِ عَنْ يَمِينِهِ، وَاَلْكَلْبِ اَلنَّاشِرِ لِذَنَبِهِ، وَاَلذِّئْبِ اَلْعَاوِي اَلَّذِي يَعْوِي فِي وَجْهِ اَلرَّجُلِ وَهُوَ مُقْعٍ عَلَى ذَنَبِهِ ثُمَّ يَعْوِي ثُمَّ يَرْتَفِعُ ثُمَّ يَنْخَفِضُ ثَلاَثًا، وَاَلظَّبْيِ اَلسَّانِحِ مِنْ يَمِينٍ إِلَى شِمَالٍ، وَاَلْبُومَةِ اَلصَّارِخَةِ، وَاَلْمَرْأَةِ اَلشَّمْطَاءِ، وَاَلْأَتَانِ اَلْعَضْبَاءِ، يَعْنِي اَلْجَدْعَاءَ، فَمَنْ أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ مِنْهُنَّ شَيْئًا، فَلْيَقُلْ: اِعْتَصَمْتُ بِكَ يَا رَبِّ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ فِي نَفْسِي فَاعْصِمْنِي مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: فَيُعْصَمُ مِنْ ذَلِكَ»[٢].

وعن عروة بن عامر قال: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ وَلَا حَوْلَ وَقُوَّةَ إِلَّا بِكَ»[٣].

وعن الإمام جعفر الصادق ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كَفَّارَةُ اَلطِّيَرَةِ، اَلتَّوَكُّلُ»[٤].

أي أن يتوكل الإنسان على الله، ولا يبالي بتلك الأوهام التي تحدث في نفسه بتأثير الخرافات السّائدة.

فعَنِ اَلنَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا تَطَيَّرْتَ فَامْضِ»[٥].

وعن محمد بن علي بن الحسين قال: كتب بعض البغداديين إلى أبي الحسن

---

(١) صحيح سنن أبي داود، حديث ٣٩١٠.
(٢) الكافي، ج٨، ص٣١٤، حديث ٤٩٣.
(٣) سنن أبو داوود، حديث٣٩١٩.
(٤) الكافي، ج٨، ص١٩٨، حديث ٢٣٦.
(٥) تحف العقول، ص٥٠.

الثاني ـ الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ـ يَسْأَلُهُ عَنِ اَلْخُرُوجِ يَوْمَ اَلْأَرْبِعَاءِ لاَ يَدُورُ [أي آخر أربعاء من كل شهر]، فَكَتَبَ عليه السلام: «مَنْ خَرَجَ يَوْمَ اَلْأَرْبِعَاءِ لاَ يَدُورُ، خِلاَفًا عَلَى أَهْلِ اَلطِّيَرَةِ، وُقِيَ مِنْ كُلِّ آفَةٍ، وَعُوفِيَ مِنْ كُلِّ عَاهَةٍ، وَقَضَى اَللَّهُ لَهُ حَاجَتَهُ»[1].

تسرّب الخرافات إلى المجتمع الإسلامي

لقد حارب النبي صلى الله عليه وآله الخرافات، ليؤسّس مجتمعًا إيمانيًّا عقلانيًّا، يعتمد مرجعية العلم في فهم الدين وإدارة الحياة.

لكنّ كثيرًا من الخرافات تسرّبت وانتشرت في أوساط المجتمعات الإسلامية، وأسوؤها ما ينسب إلى الدين، حيث أصبح في بعض الأوساط غطاءً ومصدرًا للخرافات، وممارسات الشّعوذة.

لقد استغلّت بعض الجهات موجة الإقبال على الدّين، لتسويق الخرافات، مستندة إلى ما في التراث الإسلامي من أحاديث موضوعة أو ضعيفة، وإلى أقوال تعبّر عن اجتهادات متأثرة بأجواء التخلّف والانحطاط.

وهناك فضائيات ومنابر تبيع الأوهام على الناس، لعلاج أمراضهم، وحلّ مشاكلهم، باسم الرُّقْية بآيات القرآن الكريم، والتوسّل بالنبي والأئمة والأولياء، بطريقة غير شرعية، وبما يخالف النهج القرآني، الذي يؤكّد على حاكمية السنن الإلهية في الكون والحياة، وضرورة العمل والسّعي لتحصيل المكاسب، ومواجهة الأخطار، مع التوكل على الله، وطلب رحمته وفضله.

ولا يزال هناك من يروّج للتطيّر بالأيام، فيقسّمها إلى أيام سعود، وأيام نحوس، تراعى في أمثال مناسبات الزواج، وذلك لم يثبت عليه دليل من الشّرع والعقل.

إنّ واجب العلماء الواعين، والدّعاة المخلصين، تحذير أبناء الأمة من الخرافات، وكشف توجهات الغلوّ والتطرّف والشّعوذة، وتعزيز الفهم الديني العقلاني.

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٢٦٦.

اهتمام النبي ﷺ بالتعليم

تشير أكثر من آية قرآنية إلى أنّ التعليم من وظائف النبوة، فالنبي ﷺ جاء ليهدي الناس إلى طريق العلم، ويبيّن لهم معارف دينهم، وإدارة أمور دنياهم.

يقول تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٥١].

ويقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[سورة الجمعة، الآية: ٢].

وقد أكد القرآن الكريم على قيمة العلم وأهميته، ويكفي أنّ الله سبحانه يأمر نبيّه ﷺ أن يطلب من الله الزيادة في العلم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، فإذا كان النبي ﷺ مع غزارة علمه وسعة معرفته وارتباطه بالوحي مأمورًا بطلب زيادة العلم من ربه إلى

آخر عمره، فسائر الناس أحوج إلى هذا التطلع والطلب على مساحة العمر كلّه، وكما ورد في الأثر: «اطلبوا العِلْمَ مِنَ الْمَهْدِ إِلَى اللَّحْـد»، وربما نسب إلى رسول الله ﷺ لكنه لم يرد في مصادر الحديث.

وأكد رسول الله ﷺ كثيرًا على قيمة العلم ودوره في حياة الإنسان، حتى جعل طلبه فريضة، حيث ورد عنه ﷺ: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلى كُلِّ مُسْلِمٍ»[١].

واعتبر مستوى العلم مقياسًا لقيمة الإنسان. جاء عنه ﷺ: «أكثَرُ النّاسِ قيمَةً أكثَرُهُمْ عِلمًا، وأقَلُّ النّاسِ قيمَةً أقَلُّهُم عِلْمًا»[٢].

وعنه ﷺ: «خَيْرُ اَلدُّنْيَا وَاَلْآخِرَةِ مَعَ اَلْعِلْمِ، وَشَرُّ اَلدُّنْيَا وَاَلْآخِرَةِ مَعَ اَلْجَهْلِ»[٣].

تعليم الكتابة واللغات الأخرى

وإلى جانب الدور الذي كان ﷺ يقوم به في تعليم الناس المعارف الإلهية، فإنه كان يحث على تعليم وتعلم مختلف المعارف المفيدة.

ففي سنن الترمذي وسنن أبي داود عن زيد بن ثابت: «أمَرَني رَسولُ اللَّهِ ﷺ أن أتَعَلَّمَ لَهُ كِتابَ يَهودَ. قالَ: إنّي وَاللَّهِ ما آمَنُ يَهودَ عَلى كِتابٍ». قالَ: فَما مَرَّ بي نِصفُ شَهرٍ حَتّى تَعَلَّمتُهُ لَهُ. قالَ: «فَلَمّا تَعَلَّمتُهُ كانَ إذا كَتَبَ إلى يَهودَ كَتَبتُ إلَيهِم، وإذا كَتَبوا إلَيهِ قَرَأتُ لَهُ كِتابَهُم»[٤].

أي إنه ﷺ أمره بتعلّم اللغة العبرية لغة اليهود قراءة وكتابة.

وورد عن عبدالله بن سعيد بن العاص «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَهُ أَنْ يُعَلِّمَ النَّاسَ الْكِتَابَةَ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَ كَاتِبًا مُحْسِنًا»[٥].

---

(١) الكافي، ج١، ص٣٠، حديث١.
(٢) محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (الشيخ الصدوق)، من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٣٩٥.
(٣) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج١، ص٢٠٤.
(٤) محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي، حديث ٢٧١٥-أبوداود، حديث ٣٦٤٥.
(٥) أبو الحسن عز الدين ابن الأثير، أسد الغابة، ج٣، ص٢٦٣، رقم ٢٩٨٠.

وفي الطبقات الكبرى عن عامر قال: «أَسَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ سَبْعِينَ أَسِيرًا. وَكَانَ يُفَادِي بِهِمْ عَلَى قَدْرِ أَمْوَالِهِمْ. وَكَانَ أَهْلُ مَكَّةَ يَكْتُبُونَ وَأَهْلُ الْمَدِينَةِ لا يَكْتُبُونَ. فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِدَاءٌ دَفَعَ إِلَيْهِ عَشَرَةَ غِلْمَانٍ مِنْ غِلْمَانِ الْمَدِينَةِ فَعَلَّمَهُمْ. فَإِذَا حَذَقُوا فَهُوَ فِدَاؤُهُ»[١].

وقد حمّل رسول الله ﷺ الآباء مسؤولية تعليم أبنائهم حيث ورد عنه ﷺ: «حقُّ الولدِ على الوالدِ أن يعلِّمَهُ الكتابةَ والسِّباحةَ والرَّميَ»[٢].

وهذا يعني أنّ النّبي ﷺ كان يسعى لنشر تعليم القراءة والكتابة في ذلك المجتمع الذي كانت تسوده الأميّة.

(١) محمد بن سعد بن منيع الهاشمي (ابن سعد)، الطبقات الكبرى، ج٢، ص٢٢.
(٢) كنز العمال، حديث ٤٥٣٤٠.

تعليم الحكمة من وظائف النبوة

تؤكد آيات القرآن الكريم في حديثها عن وظائف البعثة النبوية، على وظيفة تعليم الحكمة، فمن المهام الرئيسة للنبي ﷺ، أن يعلّم الناس الحكمة، كما يعلّمهم القرآن الكريم.

وقد جاء ذلك في أكثر من عشر آيات في سور مختلفة من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٥١].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّـهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٦٤].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن

قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الجمعة، الآية: ٢].

وقد تكررت كلمة الحكمة في القرآن الكريم عشرين مرة، وجاءت صفة لله تعالى بأنه حكيم إحدى وتسعين مرة.

معنى الحكمة

ذكر المفسّرون للحكمة معانيَ كثيرة، معظمها مصاديق وتجلّيات لمعنى الحكمة.

لكنّ الأصل في معنى الحكمة لغة: هي الإحكام والإتقان، في علم أو عمل أو قول، تقول: أحكمت الشيء فاستحكم: أي صار محكمًا. والأمر المحكم: المتقن الذي لا يوجد فيه ثغرة ولا خلل.

وقالوا: الحكمة وضع الشيء في موضعه. والحكيم: الذي يُحكم الأشياء ويُتقنها ويضعها في مواضعها.

قال الفراهيدي: وكلّ شيء منعته من الفساد فقد حكمته وأحكمته.

وجاء في كتاب (الفروق اللغوية): الحكمة وجود الفعل على جهة الصواب.

وفي نهاية ابن الأثير: الحكيم: الذي يُحكم الأشياء ويتقنها، ويقال لمن يُحسن دقائق الصناعات ويتقنها: الحكيم.

وبموجب هذه التفاسير اللغوية للكلمة، يتضح أنّ من مهام النبي ﷺ أنه يعلّم الأمة الإتقان في القول والعمل، والامتناع عمّا يجب الامتناع عنه، ويرجع ذلك إلى مقولة حسن الأداء، وجودة الفعل، وصواب العمل.

فوظيفة النبي ﷺ إلى جانب تلاوة آيات الله تعالى على الناس، وإرشادهم إلى تزكية أنفسهم، وتعليمهم القرآن، تعليمهم نهج الحكمة في إدارة حياتهم، فالحكمة حسن إدارة الذات، وإدارة الحياة.

ومما يؤيّد أنّ الحكمة تعني حسن إدارة الحياة، وتحقيق جودتها، أنّ رسول

الله ﷺ دعا إلى طلب الحكمة، وأخذها من أيّ مصدر كانت.

فقد ورد عنه ﷺ: «الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا»(١).

وورد عن علي عليه السلام: «الحِكمَةُ ضالَّةُ المُؤمِنِ؛ فَاطلُبوها ـ ولَو عِندَ المُشرِكِ ـ تَكونوا أحَقَّ بِها وأهلِها»(٢).

وعنه عليه السلام: «الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَخُذِ الْحِكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ»(٣).

ومعلوم أنّ الأمور الدينية، من المعتقدات والتشريعات، لا تؤخذ ولا تطلب إلّا من المصادر والجهات المعتمدة. أما الأمور المرتبطة بإدارة شؤون الحياة، فيمكن استفادتها، وأخذ النافع منها من تجارب البشر وخبراتهم، بغض النظر عن توجهاتهم الدينية والسلوكية، وبهذا يتضح أنّ الحكمة التي هي ضالة المؤمن في هذه النصوص، هي ما يرتبط بإدارة الحياة.

الحكمة جودة الحياة والإنتاج

فالحكمة في مجال العمل تعني أمرين: اختيار العمل ثم إتقان أدائه، والمجتمعات والحضارات في هذا العصر تتنافس في الإنتاج وفي الإتقان، وتتفاوت قيمة المنتجات والبضائع والخدمات تبعًا لمستوى الإتقان والجودة.

وهذا ما نجده في كلام (ديكارت) عن الحكمة، حيث يقول: (لا يقصد بالحكمة التحوط في تدبير الأمور فحسب، بل يقصد منها معرفة كاملة لكل ما يستطيع الإنسان أن يعرفه، إما لتدبير حياته، أو لحفظ صحته، أو لاستكشاف الفنون جميعها)(٤).

إننا حين نتأمل أنماط سلوك الناس، وطريقة إدارتهم لأمور حياتهم، نجد نمطين

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الحكمة، حديث ٤١٦٩.
(٢) عيون الحكم والمواعظ، ص٢٢.
(٣) نهج البلاغة، حكمة ٨٠.
(٤) ديكارت. مبادئ الفلسفة، ترجمة الدكتور عثمان أمين، طبعة ١٩٧٥م، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ص٣٠.

مختلفين:

فهناك من يؤدي أعماله كيفما اتفق، بطريقة استرسالية، من وحي ما تعوّد عليه، أو ينطلق في مواقفه وتصرفاته من حالة مزاجية انفعالية، دون أن يبذل جهدًا في التفكير ودراسة الأمور، ودون أن يهتم بطريقة الأداء وإتقان العمل.

ففي مجال الآراء والأفكار، لا يرجع إلى معايير ومقاييس في قبول فكرة أو رفض أخرى، بل يتأثر بالأجواء، ومدى تفاعله العاطفي مع أيّ فكرة.

وفي مجال الكلام ينطلق لسانه بما يرد على خاطره، ويتحدث من وحي انفعالاته، دون أن يحسب حسابًا لألفاظه وتعبيراته.

وفي تصرفاته وممارساته العملية قد يكون متسرعًا، أو متساهلًا، أو متكاسلًا، أو غير جاد في أداء ما يقوم به من عمل.

وفي مواجهة المشاكل قد يكون مرتبكًا أو متشنجًا. وهذا النمط تمثله الأكثرية من الناس، مع تفاوت في الدرجات والمجالات.

وهناك نمط آخر من الناس، ينطلق في سلوكه من التفكير في الأمور، واعتماد مرجعية في دراستها، ثم الاجتهاد في إتقان أدائها على أفضل وجه ممكن. وهذا هو نهج الحكمة الذي جاء النبي ﷺ ليعلمه الناس.

ففي المجال النظري والمعرفي: كان النبي ﷺ يحث الناس على التفكير والتأمل، وتقليب الآراء وإنضاجها بالمشورة، والتحصن من تأثير الأهواء والرغبات على الفكر، وقبول الرأي السليم. وذلك ما يقرره القرآن الكريم، وتؤكد عليه أحاديث النبي ﷺ.

وفي المجال العملي: كان ﷺ يعلّم الناس ويربّيهم على حسن إدارة شؤون حياتهم، في مختلف المجالات، ويمكن استخدام المصطلح الحديث (جودة الحياة).

فليست المسألة أن تعيش فقط، وإنّما أن تختار الطريقة الأفضل للعيش، يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[سورة النحل، الآية: ٩٧].

وليست المسألة أن تعمل وأن تنتج فقط، بل أن يكون عملك وإنتاجك في المستوى الأفضل والأحسن. يقول تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة الملك، الآية: ٢].

ورد عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»(١).

وعنه ﷺ: «إنَّ اللّه َتَعالى يُحِبُّ مِنَ العامِلِ إذا عَمِلَ أن يُحسِنَ»(٢).

النبي معلّم الحكمة

في الحديث والسيرة النبوية مساحة واسعة يطلق عليها (السنن والآداب)، وقد أفرد لها المرجع الراحل السيد محمد الشيرازي أربعة مجلدات في موسوعة الفقه، تقع فيما يقارب (١٨٠٠) صفحة.

وتحتوي السنن النبوية على تعاليم لتحسين جودة الحياة في مختلف مجالاتها.

وحين نقرأ سيرة رسول الله ﷺ، نرى الجهد الكبير الذي صرفه في تعليم الناس الحكمة في إدارة شؤون حياتهم، من خلال الأحاديث والسنن الواردة في مختلف جوانب أمور الحياة.

بدءًا من آداب الطعام والشراب، وآداب النوم واليقظة، وآداب التخلي وقضاء الحاجة، وأحكام الأسرة، وإدارة الحياة الزوجية، وتدبير المعيشة، وأساليب العمل والكسب الاقتصادي، وتعليم إدارة الحروب والمعارك، والعلاقات الاجتماعية والإنسانية، وانتهاءً بالسنن والأحكام المتعلقة بمراسيم الموت والدفن.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث١١١٣.

(٢) صحيح الجامع الصغير، حديث ١٨٩١.

شواهد من السيرة النبوية

ونقتبس بعض الشواهد من السيرة النبوية في تعليم الحكمة، وحسن إدارة الحياة، فعن جابر: «أنّ النبي ﷺ رَأَى رَجُلًا وَسِخَةً ثِيَابُهُ، فَقَالَ: أَمَا وَجَدَ هَذَا مَا يُنَقِّي ثِيَابَهُ؟»(١).

وعن جابر: أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَرَأَى رَجُلًا شَعِثًا قَدْ تَفَرَّقَ شَعْرُهُ، فَقَالَ ﷺ: «أَمَا كَانَ يَجِدُ هَذَا مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ؟»(٢).

وعن جابر قال: أَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ نُوكِيَ ـ نشدّ أو نربط ـ أَسْقِيَتَنَا وَنُغَطِّيَ آنِيَتَنَا(٣).

وعن أبي سعيد الخدري: أنّ رسول الله ﷺ نَهَى عَنْ النَّفْخِ فِي الشَّرَابِ. فَقَالَ رَجُلٌ: الْقَذَاةَ(٤) أَرَاهَا فِي الإِنَاءِ. قَالَ ﷺ: «أَهْرِقْهَا»(٥).

وورد عن الإمام علي عليه السلام: «أَمَرَنَا رَسُولُ اَللَّهِ بِدَفْنِ أَرْبَعَةٍ: اَلشَّعْرِ وَاَلسِّنِّ وَاَلظُّفُرِ وَاَلدَّمِ»(٦).

وعن عمر بن أبي سلمة: أَكَلْتُ يَوْمًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَعَامًا، فَجَعَلْتُ آكُلُ مِنْ نَوَاحِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلْ مِمَّا يَلِيكَ»(٧).

وروي أَنَّهُ ﷺ نَظَرَ إِلَى رَجُلٍ لَهُ اِبْنَانِ، فَقَبَّلَ أَحَدَهُمَا وَتَرَكَ اَلْآخَرَ، فَقَالَ اَلنَّبِيُّ ﷺ: «فَهَلاَّ سَاوَيْتَ بَيْنَهُمَا»(٨).

---

(١) أبو يعلى أحمد بن علي بن هلال التميمي، مسند أبي يعلى، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، دار القبلة، جدة، حديث ٢٠٢٦.
(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث ٤٩٣.
(٣) سنن ابن ماجة، حديث٣٦٠.
(٤) ما يقعُ في العين والشراب والماء من ترابٍ وغير ذلك.
(٥) صحيح الترمذي، حديث١٨٨٧.
(٦) محمد بن علي ابن بابويه القمّي، الخصال، ج١، ص٢٥١.
(٧) صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب الأَكْلِ مِمَّا يَلِيهِ، حديث٥٤٣١.
(٨) مكارم الأخلاق، ص٢٢٠.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «نَهَى رَسُولُ اَللَّهِ صلى الله عليه وآله أَنْ يُبَاتَ عَلَى سَطْحٍ غَيْرِ مُحَجَّرٍ»[١].

وعنه عليه السلام: «نَهَى رَسُولُ اَللَّهِ صلى الله عليه وآله أَنْ يَدْخُلَ بَيْتًا مُظْلِمًا إِلَّا بِمِصْبَاحٍ»[٢].

وروي أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صلى الله عليه وآله نَزَلَ حَتَّى لَحَدَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، وَسَوَّى اَللَّبِنَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ يَقُولُ نَاوِلْنِي حَجَرًا، نَاوِلْنِي تُرَابًا رَطْبًا، يَسُدُّ بِهِ مَا بَيْنَ اَللَّبِنِ، فَلَمَّا أَنْ فَرَغَ وَحَثَا اَلتُّرَابَ عَلَيْهِ وَسَوَّى قَبْرَهُ، قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صلى الله عليه وآله: «إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَبْلَى، وَيَصِلُ إِلَيْهِ اَلْبَلاَءُ، وَلَكِنَّ اَللَّهَ يُحِبُّ عَبْدًا إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَحْكَمَهُ»[٣].

(١) الكافي، ج٦، ص٥٣٠، حديث١.
(٢) المصدر نفسه، ج٦، ص٥٣١، حديث٩.
(٣) وسائل الشيعة، حديث ٣٤٨٤.

الانفتاح في العلاقات نهج نبوي

جاء النبي ﷺ برسالة التوحيد، في مجتمع وثني يعبد الأصنام، وكان هناك وجود لأتباع الشرائع الدينية السابقة، من اليهود والنصارى، فكيف كانت علاقة النبي ﷺ مع من لم يقبل دعوته من هذه الجهات؟

إنّه من الطّبيعي أن يواجه النَّبيُّ ﷺ من أعلن الحرب على دعوته ودينه، فيردّ عدوانهم، وينتصر لدين الله تعالى، وهذا ما تحكيه ملاحم الغزوات والمعارك، والمواجهات بألوانها المختلفة في السيرة النبوية.

لكنّ السؤال هنا، هو عن العلاقة مع المشركين واليهود والنصارى، خارج إطار الحرب والعدوان، فهل كان النبي ﷺ يقبل ويرحّب بالعلاقة مع غير المؤمنين بدينه، والمستجيبين لدعوته، أم كان يقاطعهم، ويتجنّب كلّ ألوان العلاقة معهم، في المحيط الاجتماعي؟

حين نقرأ السيرة النبوية، نجد أنّ النبي ﷺ كان يحرص ما أمكنه على إقامة العلاقة الإنسانية، في أفضل صورها، مع الآخرين، ممن هم على خلاف دينه وشريعته، وإنّما كان يواجه ويعادي من يبدأ المواجهة والعدوان.

وكان ﷺ يربّي أمّته على هذا النهج، وفق التوجيه الإلهي، حيث يقول تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة الممتحنة، الآيتان: ٨-٩].

وقد ورد في شأن نزول هذه الآيات، أنّ زوج أبي بكر المطلّقة منه أتت من مكة إلى المدينة، بهدايا لابنتها أسماء بنت أبي بكر، إلّا أنّ ابنتها امتنعت عن قبول هداياها، بل امتنعت حتى من السماح لأمّها بدخول بيتها، جاء في الرواية عن أسماء: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وهي مُشْرِكَةٌ في عَهْدِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ، قُلتُ: وهي رَاغِبَةٌ، أفَأَصِلُ أُمِّي؟ قالَ ﷺ: نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ[1].

شواهد من السيرة النبوية

١. ورد أنّه ﷺ في يوم من الأيام التفت إلى حسّان بن ثابت، وهو شاعر ويحفظ الشعر، وقال له ﷺ: يا حسّان، أنشدني شيئًا من شعر الجاهلية، فَأَنْشَدَهُ قَصِيدَةً هَجَا بِهَا الأَعْشَى عَلْقَمَةَ بْنَ عُلاثَةَ، وقد اختار حسّان إنشادها لقوتها ورصانتها أدبيًّا، لكنّ النبي ﷺ لما عرف أنّها في هجاء هذا الشخص، قال له ﷺ: «يَا حَسَّانُ، لا تَعُدْ تُنْشِدُنِي هَذِهِ الْقَصِيدَةَ بَعْدَ مَجْلِسِي هَذَا»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، تَنْهَانِي عَنْ مُشْرِكٍ مُقِيمٍ عِنْدَ قَيْصَرَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا حَسَّانُ، أَشْكَرُ النَّاسِ لِلنَّاسِ أَشْكَرُهُمْ للهِ، وَإِنَّ قَيْصَرَ سَأَلَ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ عَنِّي، فَتَنَاوَلَ مِنِّي، وَقَالَ وَقَالَ، وَسَأَلَ هَذَا عَنِّي

(١) روح البيان، ج٩، ص٤٨١. وصحيح البخاري، حديث٢٦٢٠، وصحيح مسلم، حديث١٠٠٣.

فَأَحْسَنَ الْقَوْلَ»[١].

لقد حفظ رسول الله هذا الموقف لرجل لا يؤمن به، اللهم إلّا لكلمة حسنة قالها ذلك الرجل عنه.

٢. كان ﷺ يكافئ من أحسن إلى أصحابه، كما فعل مع وفد النجاشي القادم من الحبشة، إذ قام يخدمهم بنفسه. فقال له أصحابه: نكفيك يا رسول الله. فقال: إنّهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإني أحبّ أن أكافيهم[٢].

٣. في غزوة بدر، حذّر رسول الله ﷺ المسلمين أن يقتلوا بضعة أشخاص من المشركين، حتى ولو كانوا في صفوف العدو، وممن نهى عن قتلهم أبو البختري بن هشام بن الحارث، حيث قال ﷺ: «مَنْ لَقِيَ أَبَا الْبَخْتَرِيِّ بْنَ هِشَامِ بْنِ الْحَارِثِ ابْنِ أَسَدٍ فَلَا يَقْتُلْهُ»[٣]. وإنّما نهى ﷺ عن قتله؛ لأنّه كان أكفَّ القوم عنه بمكة[٤]. هو لم يحسن لرسول الله ﷺ لكنّ رسول الله ﷺ يحفظ له أنه لم يؤذه كما فعل سائر مشركي قريش من أقرانه.

٤. أصابت قُرَيْشًا في مكة سِنَةٌ شَدِيدَةٌ، ـ (أي أزمة اقتصادية بسبب قحط المطر)، بعد هجرة النبي إلى المدينة ـ فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ بِحِمْلِ نَوًى مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: «اقْسِمْهُ فِي قَوْمِكَ»، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى أَبِي سُفْيَانَ قَالَ: أَبَى مُحَمَّدٌ إِلَّا صِلَةَ الرَّحِمِ[٥].

٥. عن عبدالله بن علقمة بن أبي الفغواء الخزاعي، عن أبيه، قال: بعثني النبي بمالٍ إلى أبي سفيان بن حرب، يُقسِّمه في فقراء قريش وهم مشركون

(١) تاريخ مدينة دمشق، ج٤١، ص١٤٧.
(٢) البداية والنهاية، ج٣، ص٨٤.
(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٣٤٨.
(٤) تاريخ الطبري، ج٢، ص١٥١.
(٥) أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، مكارم الأخلاق، مكتبة القرآن، القاهرة، حديث٤٠١.

يتآلفهم، فلما قدمت مكة دفعت المال إلى أبي سفيان، فجعل أبو سفيان يقول: ما رأيت أبرَّ من هذا ولا أوصل، يعني النبي ﷺ، إنّا نجاهده ونطلب دمه وهو يبعث إلينا بالصِّلات يبرّنا بها[١].

٦. وردعن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه ﷺ تُوُفِّيَ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ[٢].

٧. كان ﷺ يقبل هدية اليهود حيث: «أَتَاهُ نَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ بِجَفْنَةٍ مِنْ ثَرِيدٍ. فَقَالَ: هَدِيَّةٌ أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَقَالُوا: هَدِيَّةٌ. فَأَكَلَ»[٣].

٨. جاء عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ أبوه: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»[٤].

٩. وورد عن الإمام علي عليه السلام «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَادَ يَهُودِيًّا فِي مَرَضِهِ»[٥]. وفي مكارم الأخلاق: عاد جارًا له يهوديًا[٦].

مكاسب الانفتاح على الآخر

حينما ينفتح المسلم على الآخرين، ويحسن التعامل معهم، ويبدي الإحسان إليهم، فإنّه ينمّي المشاعر الإنسانية الإيجابية في نفسه، ويُقدّم بأخلاقه وسلوكه أنموذجًا جاذبًا لدينه ومجتمعه، ويعزّز حالة التعايش بين الناس، وهو مقصد شرعي.

وفيما ينقله التاريخ، ويحكيه الواقع المعاصر، فإنّ كثيرًا ممن أقبلوا على الدين،

---

(١) المصدر نفسه، ص١٢٠، حديث ٤٠٠.
(٢) بحار الأنوار، ج١٦، ص٢١٩، حديث٨.
(٣) الطبقات الكبرى، ج١، ص٢٩٦.
(٤) صحيح البخاري، حديث١٢٩٠.
(٥) مستدرك الوسائل، ج٢، ص٧٧، حديث ١٤٦٢.
(٦) مكارم الأخلاق، ص٣٥٩.

كانوا متأثّرين بحسن أخلاق وتعامل من تعرّفوا عليهم من المتديّنين.

وفي المقابل، فإنّ ما يمارسه بعض المتديّنين من تشدّد وسوء تعامل، أوجب نفورًا من الدّين وتشويهًا لسمعته.

ومع الأسف الشّديد، فإنّ بعض المتديّنين يسيئون إلى دينهم بجفاف أخلاقهم، وخشونة تعاملهم مع المختلفين معهم في الدين أو المذهب، وحتى مع المختلفين في الرأي معهم داخل مذهبهم.

فيقاطع بعضهم أقرباءه، أو جيرانه، أو زملاءه؛ لاختلافهم معه في بعض الآراء الدينية، أو لانتمائهم لبعض المرجعيات والرّموز الدينية التي لا يقبلها.

إنّ ذلك يكشف عن ضيق أفق، وسوء فهم للدين، وخلل نفسي، وانحراف أخلاقي.

إنّنا بحاجة لاستحضار النهج النبوي في الانفتاح في العلاقات الاجتماعية مع بني البشر.

القيم الإنسانية في حروب النبي

السّلام شعار الإسلام، وقد جعل التحية الرسمية لأبنائه قول (السّلام عليكم).

والسلم هو نهج العلاقة الذي يجب أن يكون بين بني البشر، أفرادًا وجماعات وأممًا، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٠٨].

وقد دعا النبي ﷺ الناس إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يمارس عنفًا، ولم تصدر منه إساءة، لكنّ المشركين في مكة واجهوه وأتباعه بصنوف الأذى، من اتهام له بالكذب والسحر والجنون، والتنكيل بمن آمن به واتبعه، حتى اضطرَّ بعضهم للهجرة إلى الحبشة، ثم فرضوا حصارًا ظالمًا على النبي ﷺ وأسرته من بني هاشم، في شعب أبي طالب، وتآمروا أخيرًا على قتل رسول الله ﷺ على فراشه، حيث أمره الله بالهجرة

إلى المدينة. بينما تواصل إيذاؤهم للمسلمين في مكة، وكانوا يمنعونهم عن الهجرة، ويصادرون أموال المهاجرين.

وكان رسول الله ﷺ يواجه كلّ هذا الأذى والعدوان بالصبر والتحمّل، ويأمر المسلمين بذلك، وحين يستأذنونه للدفاع عن أنفسهم وردّ الظلم والعدوان، يقول لهم: (اصْبِرُوا، فَإِنِّي لَمْ أُؤْمَرْ بِالْقِتَالِ)[1].

حتى نزلت الآية الكريمة، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، لتعطي المسلمين إشارة المواجهة لظلم المشركين وعدوانهم، وهي تحمل الإذن بالدفاع، وتبيّن السبب والفلسفة لتشريع الجهاد، وتقدّم لهم الأمل في النصر.

معركة بدر الكبرى

كانت معركة بدر الكبرى أولى معارك الإسلام الحاسمة، في السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، ويوافق ذلك السابع عشر من شهر مارس سنة ٦٢٤م.

سمّيت هذه المعركة باسم المنطقة التي وقع فيها القتال، وهي جنوب غرب المدينة المنورة على مسافة ١٥٤ كم تقريبًا.

وكانت البداية أنّ رسول الله ﷺ خرج لتعقّب قافلة تجارية لقريش قادمة من الشام، بقيادة أبي سُفيان، ردعًا لممارسات قريش الظالمة ضدّ المسلمين. لكنّ القافلة أفلتت، وغضبت قريش، فجهّزت جيشًا للزحف على المدينة، فكانت

(١) الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ج٧، ص١٥٦، وتفسير البغوي، ج٣، ص٣٤٣.

المواجهة في بدر.

كان المسلمون محدودي العدد والعدّة، قياسًا للمشركين، فكان عددهم ثلاث مئة وثلاثة عشر، وقيل بأنّهم ثلاث مئة وتسعة عشر رجلًا.

وكان للمسلمين فَرَسَان، و٧٠ من الإبل، يعتقّب كلّ واحدة منها الرجلان والثلاثة والأربعة. وكان رسول الله ﷺ مع علي عليه السلام ومَرْثَد بن أبي مَرْثَد يعتقّبون جملًا واحدًا.

بينما كان تعدادُ جيش قريش ألفَ رجلٍ، معهم أربع مئة فرس.

لكنّ المسلمين حققوا النصر بمعنوياتهم الرفيعة، وبصدقهم وتضحياتهم، ودعم الله تعالى لهم، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٢٦].

وتوالت بعد غزوة بدر المعارك والغزوات مع المشركين واليهود، ومناوئي الدولة الإسلامية الناشئة.

ويهمّنا أن نشير إلى أنّ هذه المعارك والغزوات كانت تحكمها القيم الإنسانية، والأخلاق الإسلامية، فلم تكن حروب إبادة وانتقام، ولا تفنّنًا في ممارسة العنف والقتل. لذلك لم يتجاوز عدد القتلى في تلك الحروب ألفًا وبضعة أشخاص، حسب تقديرات الباحثين في التاريخ الإسلامي، وبعضهم رفع العدد إلى ألف وأربع مئة من الطرفين.

وحين نتأمل موارد تجسيد هذه القيم الإنسانية في السيرة النبوية، نجد أنّها تنتظم في ثلاث مجموعات، الأولى منها ترتبط بما قبل المعركة والحرب، والثانية تتعلّق بطريقة إدارة المعركة، والثالثة في نهج التعامل مع العدو بعد الحرب.

قبل المعركة

أولًا: كانت هذه الحروب في مجملها دفاعية، فلم يقاتل المسلمون من لم يعتدِ

عليهم، ويقرّر القرآن الكريم هذا المبدأ بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٩٠].

وكان النبي ﷺ يوصي أصحابه في المعارك بقوله: «لاَ تَبْدَؤوهُمْ بِالْقِتَالِ»(١).

ثانيًا: كان ﷺ يبذل جهده لتلافي الدخول في أيّ معركة ما وجد إلى ذلك سبيلًا، ويقبل أيّ مبادرة للصلح والسّلام، كما هو أمر القرآن الكريم ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٦١].

ومن أجل حقن الدماء، كان ﷺ يقول قبل صلح الحديبية: «والذي نَفْسِي بيَدِهِ، لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»(٢).

وعندما وصل ﷺ إلى تبوك، وعلم أن الرّوم قد انسحبوا منها إلى داخل بلادهم، آثر ﷺ الانسحاب، وكان بإمكانه مطاردتهم، وإيقاع الخسائر في صفوفهم، لكنّه تلافيًا للدخول في الحرب تركهم ورجع إلى المدينة.

ثالثًا: كان رسول الله ﷺ يتجنّب كلّ ما قد يؤدي إلى الحرب، كقتل الرسل: فقد بعث مسيلمة الكذاب رجلين أتيا النبي ﷺ، فسألهما ﷺ: ما تقولانِ أنتما؟ قالا: نقولُ كما قال، قال ﷺ: أمَا واللهِ لولا أنَّ الرُّسلَ لا تُقتَلُ لضربتُ أعناقَكُما»(٣)، وفي رواية أخرى: «لَوْ كُنْتُ قَاتِلاً رَسُولاً لَقَتَلْتُكُمَا»(٤).

---

(١) بحار الأنوار، ج١٩، ص٢٥١، حديث٣.
(٢) صحيح البخاري، حديث٢٧٠٠.
(٣) محمد ناصر الدين الألباني، صحيح أبي داوود، حديث ٢٧٦١.
(٤) أحمد بن حنبل، حديث ٣٧٦١.

إدارة المعركة

أولًا: نهى ﷺ عن استخدام وسائل الإبادة والفتك بالناس. كما ورد عن الإمام علي: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُلْقَى السَّمُّ فِي بِلَادِ الْمُشْرِكِينَ»[١].

ثانيًا: لم يستخدم رسول الله ﷺ أسلوب المباغتة ليلًا، بل كان يواجه العدو نهارًا، كما ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «مَا بَيَّتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَدُوًّا قَطُّ»[٢].

وعن أنس: أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذَا غزَا بنَا قَوْمًا، لَمْ يَكُنْ يَغْزُو بنَا حتَّى يُصْبِحَ[٣].

ثالثًا: كان ﷺ يؤكد على التزام القيم والأخلاق في الحروب، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً، دَعَا بِأَمِيرِهَا، فَأَجْلَسَهُ إِلَى جَنْبِهِ، وَأَجْلَسَ أَصْحَابَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: سِيرُوا بِسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَا تَغْدِرُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْطَعُوا شَجَرَةً إِلَّا أَنْ تُضْطَرُّوا إِلَيْهَا، وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا امْرَأَةً، وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أَدْنَى الْمُسْلِمِينَ وَأَفْضَلِهِمْ نَظَرَ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَهُوَ جَارٌ، حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ، فَإِذَا سَمِعَ كَلَامَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنْ تَبِعَكُمْ فَأَخُوكُمْ فِي دِينِكُمْ، وَإِنْ أَبَى فَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِ وَأَبْلِغُوهُ مَأْمَنَهُ[٤].

وبعث ﷺ رجلًا لخالد بن الوليد في إحدى الغزوات، وقال له: «الْحَقْ خَالِدًا، فَقُلْ لَهُ: لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلَا عَسِيفًا»، وَالْعَسِيفُ: هُوَ الأَجِيرُ.

ما بعد الحرب

أولًا: منع رسول الله ﷺ قتل الأسرى. وكان يأخذ الفدية مالًا أو غيره، أو يمنّ

(١) الكافي، ج٥، ص٢٨، حديث٢.
(٢) المصدر نفسه، حديث٣.
(٣) صحيح البخاري، حديث٢٧٨٤.
(٤) الكافي، ج٥، ص٣٠، حديث٩.

بإطلاقهم، يقول تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [سورة محمد، الآية: ٤].

ففي واقعة بدر كان عدد الأسرى من المشركين يقارب السبعين شخصًا، فأمر ﷺ أن يأخذوا من غنيّهم الفداء أربعة آلاف درهم، وثلاثة آلاف، وألفين، وألف، كلٌّ حسب قدرته ويساره، وقد جعل فداء بعضهم من الذين يعرفون القراءة والكتابة، تعليم عشرة من صبيان المسلمين[١]، وقد منّ على بعضهم بغير فداء[٢]، وأثناء الأسر كان ﷺ يؤكد على الإحسان للأسرى، كما ورد عنه ﷺ: «استَوْصُوا بالأُسَارَى خيرًا»[٣].

ولما فتح رسول الله ﷺ حصن ابن أبي الحقيق اليهودي، وكان هناك سبي، فمرّ بلال بامرأتين من اليهود على موقع جثث القتلى، وبّخه رسول الله ﷺ قائلًا: «أَنُزِعَتْ مِنْكَ الرَّحْمَةُ يَا بِلَالُ، حِينَ تَمُرُّ بِامْرَأَتَيْنِ عَلَى قَتْلَى رِجَالِهِمَا؟»[٤].

ثانيًا: كان ﷺ يرفض التمثيل وتشويه أجسام الأعداء، ورد عنه ﷺ: «لَا تَغُلُّوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَغْدِرُوا»[٥].

وحينما اقترح بعض المسلمين عليه ﷺ أن ينزع ثنيتي سهيل بن عمرو من خطباء قريش، وكان من أسرى بدر، وذلك لإساءته للنبي ﷺ قال ﷺ: «لا أُمثِّلُ به؛ فيُمثِّلَ اللهُ بي وإنْ كنتُ نبيًّا»[٦].

وعن الإمام علي عليه السلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ

---

(١) الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٦.
(٢) الدكتور محمد عبده يماني، بدر الكبرى المدينة والغزوة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ص٣٤١.
(٣) تاريخ الإسلام، ج٢، ص١١٩.
(٤) تاريخ الطبري، ج ٣، ص١٣، سيرة ابن هشام، ج ٣، ص٣٥٠.
(٥) تهذيب الأحكام، ج٦، ص١٣٨.
(٦) البداية والنهاية، ج٣، ص٣١١.

بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ»[١].

ولم يأخذ مالًا على الجثث[٢] وكان يعطي جثث القتلى لأصحابهم، أو يدفنهم، ولا يأخذ مالًا مقابل الجثث.

ففي يوم الخندق عرضوا على النبي ﷺ عشرة آلاف في مقابل جثة عمرو بن عبد ودّ العامري. فقال ﷺ: «هُوَ لَكُمْ، لَا نَأْكُلُ ثَمَنَ الْمَوْتَى»[٣].

(١) نهج البلاغة، من وصية له للحسنين عليهما السلام، رقم ٤٧.

(٢) مسند أحمد بن حنبل، حديث ٢٢٣٠.

(٣) أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، دلائل النبوة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٣، ص٤٣٥.

الفصل الخامس

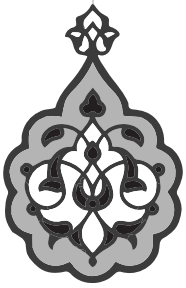

السياسة النبوية ودولة اللاعنف

دولة اللاعنف

قد يحلو لأي قائد أن يحظى بالولاء المطلق ممن حوله، وأن تكون استجابتهم كاملة لآرائه وأوامره، فلا ينشغل باله برأي مخالف، ولا يُعرقل شيئًا من خططه وبرامجه موقف معارض.

لكن ذلك مما يستحيل حصوله عادة في المجتمعات البشرية، فمن يتصدى للقيادة والزعامة ـ دينية أو سياسية ـ، لا يعدم مناوئًا أو مخالفًا أو منافسًا، والامتحان الحقيقي لأي قيادة هو في التعامل مع مثل هذه الحالات.

إن النهج السائد المتبع عند الزعامات السياسية والدينية في المجتمعات غير الديمقراطية، هو رفض هذه الحالات وقمعها، بمختلف العناوين والمبررات، كالحكم عليها بالكفر والمروق، أو إدانتها بالخيانة والانشقاق، أو اتهامها بالإفساد والتخريب.

وينبثق هذا النهج من عقلية الاستبداد، وتضخّم الذات، وحب الهيمنة والاستحواذ، ويؤدي إلى تهميش المجتمع، ووأد طاقاته

وكفاءاته، كما يؤسس لحالات الانقسام والمواجهة والصراع.

والنبي ﷺ كقيادة دينية سياسية، واجه هذه الحالات داخل مجتمعه الذي أسسه وكان يقوده، فكيف كان منهج تعامله معها؟

إن الحديث ليس عن الأعداء المناوئين من خارج المجتمع الإسلامي، كاليهود والكفار، فمعاناة النبي ﷺ منهم، ومواجهته لهم، وحروبه معهم، معروفة واضحة.

إنما الحديث عن التيارات المناوئة، والعناصر المخالفة، داخل المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة.

حيث تشير آيات القرآن الكريم، وأحاديث السنة الشريفة، وروايات السيرة النبوية، إلى وجود مثل تلك التيارات والعناصر.

إن الخطاب الإسلامي غالبًا ما يركز على صور الاستجابة والإذعان من قبل الصحابة لرسول الله ﷺ، وهي بلا شك صور رائعة مشرقة، تدّل على عمق محبة رسول الله ﷺ في قلوب أتباعه، وصدق إيمانهم به، وشدة تأثرهم بشخصيته، حتى قال أبوسفيان بن حرب وهو في موقع المناوأة والمواجهة لرسول الله ﷺ: «ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا»[1].

لكن هذا ينطبق على الصحابة الصادقين المخلصين، وليس على كل أفراد المجتمع المحيط برسول الله ﷺ، حيث يؤكد القرآن الكريم وجود تيار داخل المجتمع الإسلامي يضمر العداء للإسلام، ويثير المتاعب في وجه رسول الله ﷺ، هو تيار المنافقين. يقول تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾[سورة التوبة: آية ١٠١].

والصادقون في إسلامهم مع رسول الله ﷺ لم يكونوا ملائكة، ولا معصومين، لا تصدر من أحد منهم مخالفة أو معارضة، بل كانوا بشرًا معرّضين لحالات الجهل

(١) السيرة النبوية، ج٣، ص١٩١.

والغفلة، وسيطرة الانفعالات العاطفية، والاندفاعات المصلحية، خاصة وأنهم حديثو عهد بالانتماء إلى الدين، ومن الطبيعي أن تبقى في النفوس رواسب وآثار من الحقبة الجاهلية.

لكل ذلك واجه رسول الله ﷺ من بعضهم مواقف مخالفة، وتصرفات مزعجة، وذاك أمر متوقع، ويهمنا في هذا البحث أن نتعرف على منهج رسول الله ﷺ في التعاطي مع حالات المعارضة والخلاف، سواء كانت ناتجة عن توجه عدائي مناوئ للدعوة، كما هو حال المنافقين، أو عن خطأ وسوء تصرف من قبل بعض المسلمين.

المنافقون والدور الخطير

استقطب الإسلام أبناء قبيلتي الأوس والخزرج في المدينة، والتفوا حول رسول الله ﷺ حينما هاجر إليهم، وخضعوا لقيادته، ثم التحق بهم المسلمون من أبناء مكة وغيرهم، فتأسس في المدينة مجتمع جديد، بقيادة جديدة، خارج نسق الانتماءات القبلية.

لكن بعض العناصر وخاصة من طبقة الأثرياء والنافذين، لم تذعن قلوبهم للإسلام، ورأوا في قيادته وتعاليمه إلغاءً لنفوذهم، وتحجيمًا لمصالحهم، في ذات الوقت لم يكونوا قادرين على الوقوف أمام التيار الكاسح، فأظهروا الولاء للإسلام والخضوع لقيادته، بينما كانوا يضمرون غير ذلك.

وأطلق القرآن الكريم على هذه الازدواجية عنوان (النفاق)، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به. كما يقول ابن منظور في لسان العرب.

والنفاق مأخوذ من النَفَق وهو: سَرَب في الأرض مشتق إلى موضع آخر.

وفي التهذيب: له مخلص إلى مكان آخر.

قال أبوعبيد: سمي المنافق منافقًا للنفق وهو السرب في الأرض، يدخل في الإسلام ثم يخرج منه من غير الوجه الذي دخل فيه.

وقيل إنه مأخوذ من السرب باعتبار الاستتار فيه لستره كفره[1].

وكلا الاعتبارين متوفر في حال النفاق، فهو إظهار الإسلام كغطاء وستار لواقع الكفر، يشبه استتار النفق تحت الأرض، وهو اتخاذ الإسلام معبرًا وطريقًا وليس قصدًا وغاية، كاستخدام النفق للولوج فيه من جهة والخروج من الجهة الأخرى.

كانت هذه العناصر تنتمي إلى قبائل المدينة، وبعضها من قبائل البادية المحيطة بالمدينة، كما يذكر القرآن الكريم: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنْ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾، وإذا كان المنافقون من قبائل الأعراب في البادية يمارسون نفاقهم بشيء من البساطة، فإن منافقي المدينة قد تكرست عندهم خبرة النفاق ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي مرنوا عليه ودربوا به، ومنه الشيطان المارد في الشيطنة.

وأغلب المنافقين كانوا من ذوي الثروة والنفوذ، أو الطامحين للزعامة والمواقع، كما يظهر من حديث القرآن الكريم عنهم (إن الآيات الواردة في حق المنافقين ومرضى القلوب، تلهم روحًا أو مضمونًا، أو روحًا ومضمونًا في آن واحد، أن حركة النفاق إنما قام بها وتولى كبرها أفراد من البارزين في قومهم وعشائرهم قليلًا أو كثيرًا، بل إننا لنكاد نقول استلهامًا من روح الآيات ومضمونها إن معظم أفراد هذه الفئة من تلك الطبقة، وإنه إذا كان اندمج فيها أناس من طبقة السواد أو العامة فإنهم لم يكونوا كثيرين وإنّما انساقوا فيها بتأثير أولئك، من ناحية زعامتهم وعصبية الأرحام

(١) ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، ج٦، ص٦٩٤.

التي تربط بينهم، أو من ناحية الإغراء والمنفعة)[١]، ومن أبرزهم عبدالله ابُن أبي بن سلول الخزرجي، وكان مرشحًا لتولي زعامة المدينة قبل الإسلام، وكذلك الجدّ بن قيس وكان زعيمًا في قومه بني سلمة.

هذه العناصر بمكانتها القبلية، ولتسترها بالإسلام، واستغلالها للمشاعر العاطفية، وآثار العهد الجاهلي ورواسبه في النفوس، امتلكت مساحة من التأثير في المجتمع، ويشير قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾[سورة النساء: آية ٨٨] إلى انقسام الرأي في المجتمع الإسلامي حول المنافقين ومواقفهم، فهناك من كان يحسن الظن بهم، ويدافع عنهم، انطلاقًا من العصبية الاجتماعية والمصالح المشتركة، أو من وحي البساطة والانخداع، وطلب مزيد من الفرصة لهم للهداية والإصلاح.

ويكفي لمعرفة حجم تأثيرهم ما ينقله التاريخ من أن زعيمهم عبدالله بن أبي حينما انسحب من جيش المسلمين في الطريق إلى أحد، انسحب معه ثلاثمائة مقاتل، أي حوالي ثلث الجيش الإسلامي، وكاد أن يؤثر على بني حارثة من الأوس، وبني سلمة من الخزرج، لينسحبوا معه.

وحصل مثل ذلك في غزوة تبوك حيث انسحب عبدالله بنُ أبي ومعه عدد غير قليل من مؤيديه، حتى قال ابن إسحاق إن المعسكر الذي انسحب مع ابن أبي ليس بأقل العسكرين[٢]، أي إنه يوازي المعسكر الذي قاده رسول الله ﷺ، ولعل في هذه الرواية شيئًا من المبالغة، لكنها تعبّر عن حجم هذا التيار.

بَيدَ أنّ الأهم إدراك مدى خطورة هذا التيار على مسيرة الدعوة وبناء المجتمع الإسلامي، فقد لعب دورًا خطيرًا، وخاصة في مرحلة التأسيس، حيث كانت تحيط بالتجربة أخطار هائلة، وكان عود الإسلام غضًا طريًا، بعد لم تتمكن قيمه ومفاهيمه

(١) محمد عزة دروزة، سيرة الرسول ﷺ، ج٢، ص٧٩.
(٢) السيرة النبوية، ج٤، ص١٧٣.

من القلوب والنفوس.

من مواقف التآمر والعداء

إن كثرة الآيات القرآنية التي تتحدث عن النفاق والمنافقين، وتسلط الأضواء على مواقفهم وصفاتهم، حتى لا تكاد تخلو منها سورة مدنية، لتكشف عن مستوى الخطورة التي كانوا يمثلونها.

١. فقد لعبوا دور الطابور الخامس داخل المجتمع لصالح مخططات الأعداء الخارجيين، كاليهود والمشركين، حيث كانوا يتواصلون معهم، ويشجعونهم على محاربة الإسلام، وينسقون معهم الجهود والمواقف.

إنهم جزء من المجتمع ظاهرًا، لكن ولاءهم ليس للمجتمع، إنما هو لأعدائه، يقول تعالى: ﴿بَشِّرْ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[سورة النساء: آية ١٣٨-١٣٩]، فهم يخادعون المجتمع بإظهار انتمائهم إليه، بينما هم حلفاء للقوى المعادية، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[سورة البقرة: آية ١١٤]، وشياطينهم هنا هم اليهود كما يقول المفسرون.

وحينما حاصر المسلمون يهود بني النضير بعد خياناتهم المتكررة، كان عبدالله بن أبي وأتباعه من المنافقين، يتواصلون مع بني النضير لتشجيعهم على المقاومة والصمود، ولرفع معنوياتهم، مؤكدين تحالفهم وتضامنهم معهم. يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾[سورة الحشر: آية ١١].

وواضح خطورة مثل هذا الدور في مجتمع يعيش حالة حرب ودفاع،

ويحيط به الأعداء من كل جهة.

٢. وهناك دور أخطر يتمثل في سعيهم المحموم لإضعاف الجبهة الداخلية، ببث الشكوك تجاه الدين وقيادة الرسول ﷺ، وقد سجل القرآن الكريم بعض صور إشاعاتهم وأراجيفهم كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾[سورة التوبة: آية ١٢٤].

وصورة أخرى تنقلها الآية الكريمة: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾[سورة الأنفال: آية ٤٩]. ويسجل القرآن الكريم عنهم قولهم في غزوة الأحزاب: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾[سورة الأحزاب: آية ١٢].

٣. كانوا يسخرون من شخصية رسول الله ﷺ بصورة مؤذية، ويصفونه بالسذاجة والبساطة، وأنه يسمع ويقبل كل ما يقال له دون وعي وتمييز، كما نقل ذلك عنهم القرآن الكريم: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾[سورة التوبة: آية ٦١].

وكانوا يشككون في سياساته الاقتصادية، يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾[سورة التوبة: آية ٥٨]، واللمز القدح والاعابة.

٤. ووصل بهم الأمر إلى الطعن في عرض رسول الله ﷺ واتهام عفة زوجاته، وذلك في حادثة (الإفك) التي ذكرها القرآن الكريم، وجاء في كتب السيرة النبوية أن النبي ﷺ لما قفل راجعًا من غزوة بني المصطلق، وفي آخر مرحلة من الطريق تأخرت زوجته عائشة لطلب عقد افتقدته، فظنوها في هودجها وسارت القافلة عنها، فلما وصلوا المدينة لم يجدوها في الهودج، فمر بها صفوان بن المعطل وأركبها على ناقته، وجاء يقودها إلى المدينة، فوجد عبدالله بنُ أبي الفرصة سانحة للطعن في عرض رسول الله ﷺ فقال: «والله ما نجت منه ولا نجا منها» وتلقف قوله أصحابه فأشاعوه، وتأثر رسول الله لذلك حتى نزل

الوحي ببراءة زوج رسول الله ﷺ وإدانة موقف المنافقين.

٥. كانت لهم لقاءات واجتماعات للتآمر ووضع الخطط الكيدية، واكتشفهم الرسول ﷺ ونهاهم وحذرهم، لكنهم لم يتوقفوا عن ذلك الدور التآمري يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنْ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾[سورة المجادلة: آية ٨]. والمناجاة هي التحادث الخفي.

٦. كانوا يقومون بدور الإرباك وتثبيط العزائم، وعرقلة أوامر القيادة، وإفشال البرامج والسياسات، فتارة يشيعون بين المتأثرين بهم الامتناع عن الإنفاق وتقديم المال، لإضعاف الوضع الاقتصادي، من أجل الضغط على أتباع الإسلام: ﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ [سورة المنافقون: آية ٧].

وعند كل معركة كانوا يبثون روح التخاذل، ويسعون لتعويق حركة الجهاد: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلًا﴾[سورة الأحزاب: آية ١٨].

٧. وقد تجرؤوا على التخطيط لتصفية رسول الله ﷺ واغتياله، عند رجوعه من غزوة تبوك، إذ نصبوا له كمينًا على عقبة في الطريق ليلًا، لتنفر ناقته وتقع به وسط الوادي، وكانوا أكثر من عشرة أشخاص ملثمين، فعرف رسول الله ﷺ خطتهم، وكشف لبعض أصحابه عن أسمائهم، وأنجاه الله تعالى من مؤامرتهم.

سياسة الاستيعاب

يصعب استقصاء كل الأدوار والممارسات التي قام بها المنافقون في مناوأة حركة الإسلام، ومواجهة قيادة رسول الله ﷺ، وكان يكفي أي واحد من تلك الأدوار والمواقف، لتوجيه الضربات القاضية لرموزهم وأتباعهم من قبل رسول الله ﷺ، وقد أشار كبار الصحابة على النبي ﷺ باستخدام القوة لردع المنافقين في مواقف كثيرة.

كما أن آيات القرآن الكريم في فضح خطط المنافقين والتنديد بمؤامراتهم والتحذير منهم والأمر بمجاهدتهم، كانت توفّر للنبي ﷺ فرصة مواجهتهم وقمعهم لو أراد ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[سورة التوبة: آية ٧٣]، وتكررت الآية بنفس النص في سورة التحريم آية ٩.

لكن ما يثير الدهشة هو سعة صدر رسول الله ﷺ، وعظيم

احتماله لكل إساءاتهم الخطيرة، وممارساتهم العدائية.

لقد تعامل معهم بنفس طويل، وصبر عميق، ومارس معهم سياسة الاحتواء والاستيعاب، التي يمكن قراءتها ضمن البنود التالية:

أولًا: عدم اللجوء إلى القوة والقمع، رغم استفزازاتهم وجرائمهم، فلم يتعامل معهم كأعداء محاربين، ولم يقتل منهم أحدًا، ولم يسجن أحدًا، ولم يجلد أحدًا، ولم يطرد أحدًا. ويؤكد الباحث الأستاذ محمد عزة دروزة على «عدم ورود روايات موثقة تتضمن أن النبي ﷺ قد اعتبر المنافقين أعداء محاربين أو عاملهم كذلك، أو أمر بقتلهم، أو قتل بارزيهم، بسبب صفة النفاق، أو بسبب موقف منبعث عنه من تلك المواقف الكثيرة التي حكتها الآيات التي نزلت في مختلف أدوار التنزيل عنهم، والتي احتوت صورًا كثيرة من الأذى والكيد والسخرية بالله ورسوله وآياته، والتناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، والتثبيط عن الجهاد والختل فيه، ودس الدسائس وإثارة الفتن والأحقاد، وإشاعة الفاحشة والإرجاف بين المسلمين بما يثير قلقهم وفزعهم، والتعرض لنساء المسلمين، بل لنساء النبي بالأذى والكيد، والتضامن مع أعداء الإسلام وموالاتهم.

إن النبي ﷺ قد اعتبر ما جاء في الآيات القرآنية بمثابة توجيهات متروك إليه أمر تقدير ظروف تنفيذها، والسير فيها بما يوافق مصلحة الإسلام والمسلمين؛ لا سيما أن بعض الآيات الواردة في هذا الصدد قد تخللتها جمل تلهم معنى التعليق على شرط مثل جمل ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ و﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾. و﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ﴾ و﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾. إلخ»[1].

ثانيًا: لم يصادر أيّ حق من حقوقهم المدنية، فكانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة كسائر المسلمين، يحضرون المسجد، ويدلون بآرائهم في قضايا المجتمع، ويأخذون نصيبهم من الغنائم وعطاء بيت المال.

---

(١) سيرة الرسول ﷺ، ج٢، ص٧٨.

ثالثًا: وأكثر من ذلك كان رسول الله ﷺ يبذل لهم الإحسان، ويحوطهم بمداراته، ويشملهم بكريم أخلاقه.

ومن أجل توثيق بنود هذه السياسة النبوية، وتوضيح معالمها، نلتقط بعض الصور من السجلات النبوية الشريفة:

يقودون تمردًا عسكريًا

في غزوة أحد وعندما تحرك جيش مكة لمهاجمة المدينة انتقامًا من هزيمتهم ببدر، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ جمع المسلمين ليستشيرهم في الموقف، فكان رأي الأغلبية الخروج لمواجهة جيش المشركين، واستجاب الرسول ﷺ لرأيهم، وقاد الجيش، لكن عبدالله بن أبي وهو رأس المنافقين، كان معترضًا على قرار الخروج، مطالبًا بالتحصن في المدينة، لكنه مع ذلك خرج مع الجيش الذي بلغ تعداده ألف مقاتل، وفي منتصف الطريق قرر عبدالله بن أبي التراجع والانسحاب من الجيش، وانسحب معه ثلاثمائة مقاتل، أي ثلث الجيش، وذلك يعني تمردًا عسكريًا على القيادة في حال الحرب، وضربة لمعنويات معسكر المسلمين وقوتهم، وقد تصدى بعض الأصحاب لنصيحتهم ليعدلوا عن قرار الانسحاب، كعبدالله بن عمرو بن حرام الذي خاطبهم بقوله: يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم. لكنهم لم يستجيبوا للنصح.

وكاد أن يخلق انسحابهم اضطرابًا في الجيش الإسلامي، حيث همّ بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج، أن ينسحبوا تأثرًا بموقف ابن أُبي وجماعته.

وبينما رأى فريق من المسلمين ضرورة اتخاذ إجراء تأديبي تجاه هذا التمرد الخطير، فإن رسول الله ﷺ تجاهل تمردهم، وتركهم وشأنهم، واستمر في طريقه لمواجهة العدو.

ومرة أخرى مارسوا نفس الدور في غزوة تبوك، حيث حشد رسول الله ﷺ جيشه

لمواجهة الأخطار التي كانت تتهدد المسلمين من النصارى على حدود الجزيرة العربية طرف الشام، ليكون ذلك رسالة للروم الذين كانت تدور في أوساطهم فكرة اجتياح الجزيرة العربية للقضاء على الإسلام.

فكان أضخم جيش لرسول الله ﷺ يبلغ ثلاثين ألف مقاتل، وكان ذلك في فصل الصيف ذي الحرارة اللاهبة، وفي سنة مجدبة، لذلك أطلق على تلك الغزوة اسم غزوة (العسرة).

وقد قام رسول الله ﷺ بتعبئة كبيرة في صفوف المسلمين لإنجاح هذا المسير، في المقابل كان المنافقون يقومون بدور مضاد، لتثبيط العزائم، ونجحوا في دفع بعض وحدات الجيش الإسلامي إلى التمرد والانسلاخ، وكان للجد بن قيس ـ من زعماء المنافقين ـ دور بارز في هذا السياق، وللتغطية على دوره الخياني استأذن رسول الله ﷺ في التخلف عن الجيش، فأجابه ﷺ: قد أذنت لك. وكان الجد بن قيس يقول لولده عبدالله وهو مؤمن صادق، عاتب أباه على تخلفه فأجاب أبوه: ما لي وللخروج في الريح والحر والعسرة إلى بني الأصفر؟ والله ما آمن من بني الأصفر وأنا في منزلي!!

ووجه نداءً إلى قومه بني سلمة يحثهم على التخلف عن رسول الله ﷺ.

أما عبدالله بن أبي فانخرط في الجيش، ثم انسحب مع جماعة كثيرة بغرض الإرباك، وعاد إلى المدينة متمنيًا الهزيمة للمسلمين بقوله: يحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب؟ والله لكأني أنظر إلى أصحابه غدًا مقرنين بالحبال.

ولم يتخذ رسول الله أي إجراء ضدهم، بل لم تسمع منه كلمة لوم أو عتاب تجاههم.

إثارة الفتنة والنيل من القيادة

عند رجوع الجيش الإسلامي من غزوة بني المصطلق في شهر شعبان سنة أربع

من الهجرة، حصل سوء تفاهم لتزاحم على الماء بين رجلين من المسلمين، أحدهما من المهاجرين، والآخر من الأنصار، فصاح كل منهما باسم جماعته لتنتصر له، كما هي أعرافهم في الجاهلية، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك، بادر للحضور مستنكرًا ما حدث قائلًا: ما بال دعوى الجاهلية، دعوها فإنها منتنة.. وانتهت الحادثة بتنازل الأنصاري المضروب عن حقه.

لكن عبدالله بن أُبي أراد اغتنام الفرصة لتأليب الأنصار على المهاجرين، وإثارة الفتنة، فكان يقول: ما رأيت كاليوم مذلة قط، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدّنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول: (سمّن كلبك يأكلك) أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

مهددًا بإخراج رسول الله ﷺ والمهاجرين من المدينة. كما نقل ذلك الوحي: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾[سورة المنافقون: آية ٨].

وصار يذكي في قومه روح العداء للمهاجرين قائلًا: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم دياركم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضًا للمنايا فقتلتم دونه ـ أي النبي ﷺ ـ فأيتمتم أولادكم، وقللتم وكثروا، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عند محمد!!

وقد نقل القرآن الكريم هذه المقولة يقول تعالى: ﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾[سورة المنافقون: آية ٧].

أثارت هذه المقولات التحريضية والمسيئة للقيادة حفائظ المسلمين، وطلب عمر بن الخطاب من رسول الله ﷺ أن يسمح له بضرب عنق رأس النفاق عبدالله بن أبي، قائلًا: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فرفض النبي ﷺ قائلًا: «دعه لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»[1].

(١) صحيح مسلم، حديث رقم ٢٥٨٤-٦٣.

فقال عمر: إن كرهت أن يقتله مهاجري فأمر أنصاريًا يقتله، فلم يوافق النبي ﷺ على ذلك قائلًا: إذن ترعد له أُنُفٌ كثيرة بيثرب. أي إنه سيغضب لقتله كثيرون من قومه[١].

فجاء عبدالله بن عبدالله بن أُبي، وكان مؤمنًا صادقًا إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أُبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بُدّ فاعلًا فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أَبَر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أُبي يمشي بين الناس، فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافر، فأدخل النار. فقال ﷺ: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا[٢].

الشفاعة في الخائنين

يهود بني قينقاع تقع منازلهم داخل المدينة، وقد عقد معهم النبي ﷺ معاهدة سلام، على أن لا يمسوا المسلمين بسوء، ولا يمدوا يدَ عونٍ لأعدائهم، لكنهم لم يلتزموا بالعهد، وصاروا يستفزّون المسلمين ويؤذونهم، ونصحهم رسول الله ﷺ وحذرهم، فلم يرتدعوا، وظهرت معالم استعدادهم لمواجهة المسلمين، فبادر النبي ﷺ لحصارهم منتصف شهر شوال من السنة الثانية للهجرة، فاعتصموا بحصونهم خمس عشرة ليلة، ثم فاوضوا على الاستسلام دون قيد أو شرط.

وكان عبدالله بن أُبي يراهن على صمود بني قينقاع ومواجهتهم للنبي ﷺ، فلما رأى استسلامهم خابت آماله، لكنه طلب من النبي ﷺ العفو العام عنهم، باعتبارهم حلفاء الخزرج قبل الإسلام، قائلًا: يا محمد أحسن في مواليّ. فأعرض عنه ﷺ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: أرسلني ـ أي اتركني ـ وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظُلَلًا. ثم قال: ويحك! أرسلني! قال ابن

(١) محمد أحمد باشميل، موسوعة الغزوات الكبرى، غزوة الأحزاب، ج٣، ص٩١.
(٢) السيرة النبوية، ج٣، ص٣٢٠.

أُبي: لا والله لا أرسلك ـ لا أدعك ـ حتى تحسن في مواليّ، أربع مئة حاسر ـ أي لا درع له ـ وثلاث مئة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة، وإني والله امرؤ أخشى الدوائر! فقال رسول الله ﷺ: هم لك[1]. فاستجاب لطلبه الملحّ وعفا عنهم ليخرجوا جميعهم من يثرب سالمين.

تشجيع اليهود والتجسس لهم

بعد أن اكتشف المسلمون مؤامرة يهود بني النضير لاغتيال رسول الله ﷺ، أنذرهم النبي ﷺ بالجلاء عن المدينة، وبدأ الاستعداد لمحاصرتهم، فبادر بعض المنافقين من بني عوف وفيهم عبدالله بن أُبي، بالكتابة إلى بني النضير ضمن رسالة مستعجلة جاء فيها: «إن محمدًا سائر إليكم فخذوا حذركم، وأدخلوا أموالكم حصونكم، واخرجوا لقتاله، ولا تخافوا منه، إن عددكم كثير، وقوم محمد شرذمة قليلون عزّل لا سلاح معهم إلا القليل».

واستمر تواصلهم لتحريض بني النضير على المواجهة والصمود، مبدين تعاطفهم وتضامنهم معهم، وقد فضح الوحي موقفهم حيث نزل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [سورة الحشر: آية ١١].

ولم يتخذ رسول الله ﷺ أيّ إجراء ضد هؤلاء المنافقين، مع اطلاعه على موقفهم الخياني.

مؤامرة لاغتيال الرسول ﷺ

بعد أن حقق الجيش الإسلامي انتصاره الكبير في غزوة تبوك، تآمر بعض المنافقين لتصفية رسول الله ﷺ في طريق عودته إلى المدينة، وكانت خطتهم أن يعملوا على

(١) السيرة النبوية، ج٣، ص٥٤.

تنفير ناقة رسول الله ﷺ التي يركبها، حين يكون على موقع مرتفع، لتسقط به في بطن الوادي، واختاروا عقبة تشرف على وادٍ سحيق، كموضع للتنفيذ، في ظلام الليل، ليبدو الأمر كأنه حادث طبيعي.

وعلم رسول الله ﷺ بمؤامرتهم، فأمر الجيش بتغيير اتجاه سيره ليسلك الوادي، وانفرد الرسول ﷺ مع ثلاثة من أصحابه ليعبروا تلك العقبة.

فغيّر المنافقون خطتهم منتدبين ثلاثة عشر منهم، كانوا ملثمين لتنفيذ المؤامرة، لكن رسول الله ﷺ اكتشفهم أيضًا، وأمر من معه وهو حذيفة بن اليمان بمهاجمتهم، فهربوا واختلطوا بالجيش حتى لا يعرفهم أحد.

وأخبر رسول الله ﷺ حذيفة بما كانوا تمالؤوا عليه وسماهم له، وأمره بالكتمان، فقال: يا رسول الله، أفلا تآمر بقتلهم؟ فقال ﷺ: أكره أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه.

وحينما علم زعيم الأوس أسيد بن حضير بما حصل، قال لرسول الله ﷺ: مر كل بطن ـ أي كل فرع من قبيلة ـ أن يقتل الرجل الذي همّ بهذا، فيكون الرجل من عشيرته هو الذي يقتله، وإن أحببت والذي بعثك بالحق، فنبئني بهم، فلا تبرح حتى آتيك برؤوسهم، فإن مثل هؤلاء يُتركون يا رسول الله؟! حتى متى نداهنهم وقد صاروا اليوم في القلّة والذلة، وضرب الإسلام بجرانه، فما يستبق من هؤلاء؟

فقال رسول الله ﷺ لأسيد: إني أكره أن يقول الناس: إن محمدًا لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه!

فقال أسيد: يا رسول الله فهؤلاء ليسوا بأصحاب!

قال ﷺ: أليس يُظهرون شهادة أن لا إله إلا الله؟

قال: بلى، ولا شهادة لهم!

قال ﷺ: أليس يُظهرون أني رسول الله؟

قال: بلى، ولا شهادة لهم!

قال ﷺ: فقد نهيت عن قتل أؤلئك[١].

وفاة ابن أُبي

بعد غزوة تبوك توطدت قوة الإسلام، وتضاءل تأثير المنافقين، لكن رسول الله ﷺ استمر في سياسته الحكيمة بالتعامل بأعلى درجات المرونة والتسامح معهم، فقد مرض رأس النفاق عبدالله بن أُبي، فجاء ولده عبدالله إلى النبي ﷺ وأبوه يجود بنفسه، فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي إنك إن لم تأت أبي عائدًا كان ذلك عارًا علينا.

فاستجاب رسول الله ﷺ وقام إلى عيادته فدخل عليه وعنده جمع من المنافقين، فقال ابنه عبدالله: يا رسول الله، استغفر له، فاستغفر له.

فقال عمر: ألم ينهك الله يا رسول الله؟

فأعرض ﷺ، فأعاد عليه عمر.

فقال ﷺ: إني خيّرت فاخترت إن الله عز وجل يقول: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[سورة التوبة: آية ٨٠].

قال الواقدي: ومرض عبدالله بن أُبي في ليال بقين من شوال، ومات في ذي القعدة، وكان مرضه عشرين ليلة، فكان رسول الله ﷺ يعوده فيها، فلما كان اليوم الذي مات فيه، دخل عليه رسول الله ﷺ، وهو يجود بنفسه.

فقال ﷺ: قد نهيتك عن حب اليهود.

فقال ابن أُبي: أبغضهم سعد بن زرارة فما نفعه؟

ثم قال: يا رسول الله، ليس بحين عتاب! هو الموت، فإن مِت فاحضر غسلي

(١) محمد بن عمر بن واقد الواقدي، كتاب المغازي، ج٣، ص١٠٤٣.

وأعطني قميصك أكفّن فيه. فأعطاه قميصه الأعلى، وكان عليه قميصان، فقال ابن أُبي: الذي يلي جلدك. فنزع رسول الله ﷺ قميصه الذي يلي جلده فأعطاه. ثم قال: صل علي واستغفر لي. فحضر رسول الله ﷺ غسله، وحضر كفنه، ثم حمل إلى موضع الجنائز فتقدم رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام وثب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، أتصلي على ابن أُبي وقد قال يوم كذا كذا، ويوم كذا كذا؟ فعدّ عليه قوله.

فتبسم النبي ﷺ وقال: أخِّر عني يا عمر! فلما أكثر عليه عمر قال ﷺ: إني قد خيّرت فاخترت، ولو أعلم إني إذا زدت على السبعين غفر له زدت عليها، وهو قوله عز وجل: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾»[1].

وروي عنه ﷺ أنه قال: ما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله، والله إن كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه، وروي أنه أسلم بعد موته ألف من قومه لما رأوا تبّركه بقميص النبي ﷺ. وفي هذا ـ كما يقول النووي ـ بيان عظيم مكارم أخلاق النبي ﷺ، فقد علم ما كان من هذا المنافق من الإيذاء، وقابله بالحسنى، فألبسه قميصه وصلى عليه واستغفر له[2].

(١) كتاب المغازي، ج٣، ص١٠٥٧.

(٢) موسوعة الغزوات الكبرى، غزوة تبوك، ج١٠، ص١٥٨.

احتواء المواقف السيئة

واجه رسول الله ﷺ لونًا آخر من الإساءات لشخصيته وموقعه القيادي، ومن المخالفات لقراراته وأوامره الدينية والسياسية، كانت تصدر من أفراد غير منتمين لتيار مناوئ كالمنافقين، وإنما هي نابعة من الجهل، أو الانفعال، أو الأغراض الشخصية، وبعض تلك الإساءات كانت شديدة تنال من مقام رسول الله ﷺ، وتشكك في نزاهته، كما أن بعض المخالفات كانت ترقى إلى مستوى الخيانة العظمى، لكن رسول الله ﷺ استقبل كل تلك الإساءات والمخالفات بسعة صدر مذهلة، واستوعب أصحابها بحلم وأناة لا مثيل لها من قائد في التاريخ.

ولم يستخدم القمع والعنف في أية حالة من تلك الحالات، رغم توفر الأسباب والمبررات، ورغم إلحاح بعض من حوله من الأصحاب على ذلك، إلا أنه ﷺ التزم نهج السلم، ورجّح سياسة العفو.

وفيما يلي ننقل بعض النماذج والشواهد:

خيانة عظمى

حينما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة، أحاط قراره بالكتمان الشديد، حتى لا تكون لقريش فرصة للاستعداد والتعبئة، وحشد ﷺ المسلمين دون أن يخبرهم بجهة قصده، بل بعث سرية عسكرية إلى ناحية نجد للتعمية والتمويه. ووضع حراسة على الطرق المؤدية إلى مكة حتى لا يتسرب أشخاص مشبوهون ينقلون الأخبار.

مع هذا الحرص الشديد على الكتمان لإنجاح الخطة، فإن أحد الأصحاب من المهاجرين من أهالي مكة، وهو حاطب بنُ أبي بلتعة، علم بطريقة خاصة عن قصد رسول الله ﷺ، فبادر بالكتابة إلى زعماء مكة بما نصه: «إن رسول الله قد أذن في الناس بالغزو، ولا أراه يريد غيركم، وقد أحببت أن تكون لي عندكم يد بكتابي إليكم» واستأجر لإيصاله امرأة دفع لها مبلغًا من المال، وأخفت الكتاب بين شعر رأسها، واتجهت سريعًا نحو مكة.

وهبط الوحي على رسول الله ﷺ يخبره بذلك، فبعث ﷺ عليًا والزبير، وقال لهما: أدركا امرأة قد بعث معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش، يحذرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم. فأسرعا حتى أدركاها في الطريق، وأنكرت الأمر في البداية، ثم هدداها فاعترفت وسلمت لهما الرسالة، فتركاها ولم يتخذا أي إجراء ضدها، كما أمر رسول الله ﷺ، وجاءا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ. فاستدعى حاطب، وقال له: أتعرف هذا الكتاب؟ فلم ينكر، بل قال: نعم. فقال ﷺ: ما حملك على هذا؟ فقال: والله إنني لمؤمن بالله ورسوله ما غيّرت ولا بدلت، ولكني كنت أمرأً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل. وكان من معك من المهاجرين لهم قرابة يحمون أموالهم وأهليهم بمكة، ولم يكن لي قرابة، فأحببت أن أتخذ فيهم يدًا أحمي بها أهلي.

فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق. إلا أن النبي لم يوافق على اقتراح عمر، بل اتبع سبيل الصفح والعفو عن حاطب لمواقفه السابقة، وقال لأصحابه: إنه قد صدقكم ولا تقولوا له إلا خيرًا[١].

هنا لم تكن حسابات سياسية تمنع معاقبة حاطب، فهو لا ينتمي إلى تيار يُخشى، وليس له في المدينة قبيلة تراعى، وقد ارتكب خيانة عظمى، لكن نهج رسول الله ﷺ هو الصفح والعفو. بل أعاد له الاعتبار حين أمر الأصحاب أن لا يقولوا له إلا خيرًا.

التشكيك في نزاهة القيادة

لم يكن النبي ﷺ مجرد قائد يتمتع بالنزاهة والصدق، بل هو رسول من قبل الله تعالى، يؤمن به أتباعه كصلة بينهم وبين الله تعالى، يخبرهم عنه، وينقل لهم شرائعه.

من هنا فإن أيّ تشكيك في نزاهة رسول الله ﷺ يناقض أساس العقيدة والدين، ويصطدم مع الثقة المطلقة التي يجب الإيمان بها في رسول الله ﷺ.

وقد تجرأ بعض الأفراد على إعلان التشكيك في نزاهة رسول الله ﷺ عند بعض المواقف، لكنه ﷺ لم يتخذ تجاههم أي إجراء قمعي، ولم يستخدم العنف أبدًا، بل اكتفى بالتأكيد على موقعيته الرسالية الثابتة.

١. جاء في صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله قال: أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة، منصرفه من حنين. وفي ثوب بلال فضة. ورسول الله ﷺ يقبض منها، يعطي الناس. فقال: يا محمد، اعدل!! قال ﷺ: «ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خِبتُ وخسرتُ إن لم أكن اعدلُ».

فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق.

فقال ﷺ: «معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي..»[٢].

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى، فتح مكة، ج٨، ص٩١.
(٢) صحيح مسلم، حديث رقم ١٠٦٣.

٢. وعن أبي سعيد الخدري قال: بعث علي بن أبي طالب إلى رسول الله ﷺ، من اليمن، بذهبة في أديم مقروظ. فقسمها بين أربعة نفر، فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء. قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ألا تأمنوني؟ وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً» قال: فقام رجل غائر العينين. مشرف الوجنتين. ناشز الجبهة. كث اللحية. محلوق الرأس. مشمر الإزار. فقال: يا رسول الله، اتق الله. فقال: «ويلك أو لست أحق أهل الأرض أن يتقي الله» قال: ثم ولى الرجل. فقال خالد بن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ فقال ﷺ: «لا. لعله أن يكون يصلي». قال خالد: وكم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه. فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس. ولا أشق بطونهم»[1].

٣. وجاء في السيرة النبوية أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه قبل غزوة بدر: إني قد عرفت أن رجالًا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا ـ مع المشركين ـ كرهًا، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبدالمطلب، عم رسول الله ﷺ فلا يقتله، فإنه إنما أُخرج مستكرهًا.

فقال أبو حذيفة بن عتبة وهو من المسلمين المهاجرين، لما بلغه قول رسول الله ﷺ ذلك: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا، ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنَّه السيف!!

قال: فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص أيُضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟

فقال عمر: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه ـ أي أبا حذيفة ـ بالسيف،

(١) صحيح مسلم، حديث رقم ١٠٦٣-١٤٤.

فوالله لقد نافق[١]. فرفض رسول الله ﷺ ذلك، ولم يسمح بأن يمسّ أبو حذيفة بأيٍّ أذى.

٤. وجاء في سنن الترمذي عن عبدالله بن مسعود قال: أُتي رسول الله ﷺ بمال فقسمه فانتهيت إلى رجلين جالسين وهما يقولان: والله ما أراد محمد بقسمته التي قسمها وجه الله ولا الدار الآخرة، فتثبت حين سمعتهما فأتيت رسول الله ﷺ وأخبرته، فاحمر وجهه وقال: دعني عنك فقد أُوذي موسى بأكثر من هذا فصبر[٢].

(١) السيرة النبوية، ج٢، ص٢٤٠.
(٢) سنن الترمذي، حديث رقم٣٨٩٦.

من أجل السلم والاستقرار

هذه السيرة النبوية العطرة كيف يجب أن يقرأها المسلمون؟

إنها ليست مجرد فضائل باهرة تزيدنا فخرًا وإعجابًا برسول الله ﷺ، ولا مجرد مواقف وصفات أخلاقية تتميز بها شخصيته الكريمة، بل يجب أن نقرأها كنهج لحياتنا الاجتماعية، وبرنامج لنظامنا السياسي.

فمن خلال هذه السيرة أراد رسول الله ﷺ أن يحدد معالم النظام السياسي لإدارة المجتمع الإسلامي، تلك الإدارة التي ترفض العنف لغة في التعامل مع الشعب، وتبني دولة اللاعنف، بحيث يجد الناس أمامهم فرصة التعبير عن آرائهم وأفكارهم، مهما كانت مخالفة لتوجه القيادة، دون أن يتعرضوا للتصفية أو التنكيل.

وما نراه الآن في واقع المجتمعات والأمم المتقدمة، التي تضمن حرية الرأي لمواطنيها، وتوفر لهم فرص التعبير عن

أفكارهم وتوجهاتهم السياسية، عبر الإعلام والمؤسسات والتجمعات السلمية، مهما كانت مخالفة لإدارة السلطة، إنما هو تطبيق معاصر لنهج سلكه رسول الله ﷺ قبل خمسة عشر قرنًا بشكل أوفى وأكمل، وفي بيئة متأخرة متخلفة، قد ألفت الحروب والعنف، وانسجمت مع منطق القوة والسيف، باعتباره أفضل الوسائل والسبل للتعامل مع الرأي المضاد والموقف المخالف.

لذلك نقرأ إلحاح الأصحاب المحيطين برسول الله ﷺ على قمع أيّ معارض وضرب عنقه، دعني أضرب عنقه، دعني أقتله. لكنه ﷺ رفض عنف الدولة، وأسس لدولة اللاعنف. مع أن الدولة الدينية أو الأيديولوجية بشكل عام عادة ما تكون أكثر شدة وعنفًا حسبما يسجل التاريخ.

بالطبع نحن نعتقد أن تلك السياسة النبوية لا تنطلق من حالة ذاتية، وليست نابعة من قناعة فكرية شخصية عند رسول الله ﷺ، أو ناتجة عن خلق نفسي خاص لديه ﷺ، بل هي فوق ذلك شريعة إلهية، ووحي ربّاني، فإن خالق الناس هو الذي منحهم الحياة، وأنعم عليهم بنعمة العقل ليفكروا من خلاله، وأعطاهم القدرة على التعبير عن مكنونات أنفسهم وحركة عقولهم، كما يقول تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[سورة الرحمن: آية ٣-٤]، وبذلك فإنه تعالى لا يسمح لأحد أن يصادر من خلقه مِنَحه لهم، ونِعمه عليهم، إلا بمبرر قاطع واضح يقبله الخالق نفسه جلّ وعلا.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن الرسول محمدًا ﷺ، كان يدرك أنه يقوم بدور التأسيس والبناء لأمة يريد لها الله تعالى أن تكون خير أمة أخرجت للناس، وهو يعلم أن سيرته الشريفة بما تشتمل عليه من أقوال وأفعال ستكون حجة ملزمة، وسنة شرعية، لذلك كان ﷺ حريصًا ومهتمًا بحماية حقوق الناس، وحفظ كرامتهم، ورعاية مصالحهم، لتنتهج أمته نهج السلم الاجتماعي، ولتبتعد عن طريق القمع والعنف الداخلي، كما يقول تعالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، وكما حذر ﷺ أمته من الانحدار إلى هوة الاحتراب والعنف الداخلي، في أكثر من مورد.

ورد في صحيح البخاري عن أبي بكرة، عن النبي ﷺ قال: «أي شهر هذا؟ أليس ذا الحجة؟». قلنا: بلى، قال: «أي بلد هذا؟ أليس البلدة؟». قلنا: بلى، قال: «فأي يوم هذا؟ أليس يوم النحر؟». قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم وأموالكم ـ قال محمد: وأحسبه قال: وأعراضكم ـ عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم، وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلاَّلًا، يضرب بعضكم رقاب بعض، أَلا ليبلغ الشاهد الغائب»، ثم قال: «ألا هل بلغت، ألا هل بلغت»[1].

وعلى مستوى النتائج والآثار فإن ذلك النهج السلمي الذي سلكه رسول الله ﷺ هو الذي مكنّه من تحقيق انتصاره العظيم، وإنجازه الحضاري الكبير، الفريد من نوعه في التاريخ، في مدة قياسية من الزمن، وبأقل قدر من الخسائر.

فلو استخدم رسول الله ﷺ العنف داخليًا، ومارس القمع تجاه المخالفين لقاد ذلك إلى ردود فعل سلبية، على المستويات التالية:

١. قد يزيد من تحدي المخالفين، ويدفعهم إلى تصعيد مناوءتهم، وبعضهم قد تكون مخالفته بسبب جهل أو انفعال وقتي، فإذا ما قوبل بالقوة والشدة فقد يدفعه ذلك إلى الإصرار والعناد، بينما كان حلم رسول الله ﷺ غالبًا ما يدفع إلى التراجع والاعتذار، كما تنص على ذلك الشواهد الكثيرة. والقائد الحكيم كالأب الرحيم يريد صلاح ابنه وليس الانتقام منه.

إن بعض الدول حينما تسرعت في استخدام القمع تجاه معارضيها دفعتهم لسلوك طريق العنف المضاد، مما يسلب أمن المجتمع، ويدخله في دوامة العنف والاضطراب.

٢. استخدام العنف يخلق حالة من التعاطف مع من يقع عليه، وخاصة في ذلك المجتمع الخاضع للعصبيات القبلية. بينما العفو والصفح، يعطي أثرًا معاكسًا،

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٥٥٥٠.

حيث يتوجه الآخرون باللوم والعتاب للمخالف، ويحمدون عفو المقتدر وصفحه. وهذا ما حصل في كثير من المواقف المذكورة في السيرة النبوية.

٣. سياسة العفو والتسامح وفرّت للدعوة الإسلامية، وللقيادة النبوية سمعة حسنة، ووجهًا مشرقًا أمام الرأي العام، مما ساعد على انتشار الإسلام، وإقبال الناس عليه، ودخولهم فيه أفواجًا، بينما لو تعامل رسول الله ﷺ بالشدة والعنف، لسبب ذلك تشويهًا لصورة الإسلام وشخصية النبي ﷺ، وهذا ما كان يشير إليه ﷺ بقوله: كيف إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه...

الانقلاب على النهج النبوي

لكن هذا النهج الحضاري الذي أرساه رسول الله ﷺ في إدارة المجتمع وممارسة الحكم والسلطة، تعرض لنكسات مؤسفة في وقت مبكر من تاريخ الأمة، بعد عهد الخلافة الراشدة، حيث شرع الحكام الذين جاؤوا بعد الخلافة الراشدة من أمويين وعباسيين وغيرهم، سياسة القمع والعنف، وخالفوا نهج رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين في استيعاب الرأي الآخر، والرفق بالمعارضين والمخالفين.

ودخلت الأمة العربية والإسلامية نفق الاستبداد السياسي، وأخذتها دوامة العنف والعنف المضاد، إلى الوقت الحاضر مع تفاوت نسبي في الحالات بين الأزمنة والبلدان، فلا تكاد تجد عهدًا يخلوا من الثورات والانتفاضات وحالات التمرد.

وبينما طورت الأمم الأخرى تجاربها السياسية الاجتماعية، وأصبحت تعيش حالة الاستقرار السياسي، والأنظمة الديمقراطية، والتداول السلمي للسلطة، بقيت أغلب بلاد المسلمين تعاني الاضطرابات والأزمات، وخاصة البلدان التي ابتليت بالانقلابات العسكرية، والحكومات الحزبية، والتي مارست بحق شعوبها أسوأ ألوان القمع والاستبداد، تحت مختلف الشعارات البراقة.

إن الرأي العام العالمي ينظر الآن إلى بلاد المسلمين باعتبارها خارج إطار عالم

الحريات وحقوق الإنسان، وباعتبارها مسرحًا للعنف، ومصدرًا للإرهاب، واندفعت مختلف الجهات الدولية لتقديم مشاريعها ووصفاتها لعلاج الواقع السقيم للعرب والمسلمين، كمشروع أمريكا للشرق الأوسط الكبير، والمشروع الأوربي للإصلاح السياسي في الشرق الأوسط.

إن البديل الصحيح لرفض هذه المشاريع الأجنبية، التي لا تخلو من المطامع والأغراض المشبوهة، هو العودة إلى النهج النبوي، والتأسي بسيرته الكريمة في نبذ العنف، وإرساء السلم الاجتماعي، وحماية الحقوق والحريات.

وكما أمرنا رسول الله ﷺ بأن نصلي كما كان يصلي لقوله ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[1]. فإنه بالتأكيد يأمرنا أن نمارس الحكم والسلطة كما كان هو ﷺ يحكم ويدير، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[سورة الأحزاب: آية ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [سورة الحشر: آية ٧].

إن التحديات الكبيرة التي تواجهها الأمة لا تسمح لنا بالاسترسال في دوامة الصراعات الداخلية، فلا بد من التوافق والتراضي، ونبذ العنف وسيلة لحل الخلافات، واعتماد الحوار والنهج الديمقراطي السليم.

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٦٣١.

بناء الوحدة والشراكة الاجتماعية

كيف يمكن تحقيق الوحدة السياسية والاجتماعية في مجتمع يعيش انقسامات حادة على أساس قومي أو ديني ـ مذهبي، أو مناطقي أو قبلي؟

هل يكون ذلك بالمراهنة على تذويب الهوّيات وإلغاء مشاعر الانتماء الخاص؟

أو بغلبة طرف وإخضاعه لسائر الأطراف؟

أم أن هناك أساليب وخيارات أصوب؟

بإمكاننا أن نقرأ في الإنجاز التاريخي الذي تحقق على يد رسول الله ﷺ، بقيام الدولة والمجتمع الإسلامي الأول، تجربة ناجحة رائدة على هذا الصعيد.

حيث يجمع المؤرخون أن مجتمع الجزيرة العربية قبل الإسلام كان ممزقًا لا يجمعه كيان، ولا يلم شمله نظام، كانوا

قبائل متناثرة، في أجواء علاقات مضطربة، غالبًا ما تفضي إلى العداء والاحتراب، ومن يقرأ أيام العرب، وهو ما يطلق على معاركها وحروبها، تدهشه تلك المعارك الضارية، التي تنشب لأتفه الأسباب، ففي كتاب (أيام العرب في الجاهلية) الذي اشترك في إعداده ثلاثة من الباحثين، عرض لعشرات الحروب الداخلية بين القبائل العربية، فمعارك القبائل القحطانية فيما بينهم بلغت عشر معارك، وبين القحطانيين والعدنانيين عشر معارك، وفيما بين قبائل ربيعة ست معارك، وما بين ربيعة وتميم خمسة عشر معركة، وبين قبائل قيس إحدى عشرة معركة، وبين قيس وكنانة عشر معارك، وبين قيس وتميم سبع معارك، وبين قبائل ضبّة وغيرهم خمس معارك، وهناك معارك أخرى متفرقة[١].

ويبدو أن هذه الحروب التي عرضها المؤلفون، هي ما تناقلت كتب التاريخ والأدب أخبارها، أما سائر المعارك وهي كثيرة فقد تجاوزوا ذكرها، جاء في مقدمة الكتاب: «وقد اقتصرنا على الأيام المشهورة التي وصل إلينا تفصيل حوادثها، وذكر أسبابها، ورواية أشعارها وقصائدها، أما الأيام التي لم يقع في الكتب إلا ذكر عنواناتها مجردة من الحوادث وذكر الأسباب، فقد جاوزها اختيارنا... روى صاحب كشف الظنون وغيره: أن أباعبيدة قد ألف كتابًا صغيرًا حوى خمسة وسبعين يومًا (معركة)، وآخر كبيرًا جمع فيه ألفًا ومائتي يوم، وأن أبا الفرج الأصفهاني ألف كتابًا جمع فيه ألفًا وسبعمائة يوم...»[٢].

كان ولاء العربي أولًا وأخيرًا لقبيلته، مما يعني انصهاره فيها، وتغنّيه بقوتها وأمجادها، وشدته تجاه ما يخالفها. وقد لاحظ الأستاذ أحمد أمين أنه «حين تقرأ الشعر الجاهلي تشعر ـ غالبًا ـ أن شخصية الشاعر اندمجت في قبيلته حتى كأنه لم يشعر لنفسه بوجود خاص، وأنك لتتبين هذا بجلاء في معلقة عمرو بن كلثوم، وقل أن تعثر على شعر ظهرت فيه شخصية الشاعر، ووصف ما يشعر به وجدانه، وأظهر

(١) محمد أحمد جاد المولى وآخرون، أيام العرب في الجاهلية.
(٢) المصدر نفسه: ص: ك، ل.

فيه أنه يحسّ لنفسه بوجود مستقل عن قبيلته»[١].

في هذا المجتمع المتنوع قبليًا، الذي تسوده نزعة التطرف في الولاء للقبيلة، ويعيش حالة الصراع والاحتراب بين قبائله، بعث الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ، فاستطاع خلال أقل من ربع قرن من الزمن، أن يبني من تلك القبائل مجتمعًا متماسكًا، وكيانًا موحدًا، يحمل للعالم مشروعًا حضاريًا متقدمًا.

حقًّا إنه إنجاز عظيم لا نظير له في تاريخ البشرية.

وهو ما لفت نظر الدكتور (مايكل هارت) من أمريكا، عند تأليفه لكتاب عن المئة الأوائل في تاريخ البشرية، فوضع شخصية النبي محمد على رأس القائمة كأهم شخصية في تاريخ البشر، وكتب عن هذا الاختيار قائلًا: «إن اختيار المؤلف لمحمد ليكون على رأس القائمة التي تضم الأشخاص الذين كان لهم أعظم تأثير عالمي في مختلف المجالات، إن هذا الاختيار ربما أدهش كثيرًا من القراء، إلى حد أنه قد يثير بعض التساؤلات، ولكن في اعتقاد المؤلف: أن محمدًا كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي»[٢].

فكيف استطاع رسول الله ﷺ تحقيق هذا الإنجاز العظيم؟

وما هي الخطة التي اعتمدها لتوحيد ذلك المجتمع المتناثر الأشلاء؟

الهويّة المشتركة

في حالة الانقسام الاجتماعي تتضخم الهويّة الخاصة عند كل طرف من الأطراف، فهي حدود الدفاع عن ذاته، وخندق مقاومته، وعنوان وجوده، ومن أجل أن يتوحد المجتمع، لا بُدّ أن تنخفض درجة الغليان في الهويّات الخاصة، لصالح هويّة مشتركة يتمثل فيها وجود كل الأطراف، وترى من خلالها ذاتها بدرجة متماثلة.

---

(١) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص٥٩.

(٢) مايكل هارت، دراسة في المائة الأوائل.

وهنا لا يمكن أن تقوم هويّة أحد الأطراف بهذا الدور، لأن بروزها يستثير تحدي بقية الهويّات، وإعلانها يعني غلبتها واعتراف الآخرين بالهزيمة أمامها.

فإذا كان المجتمع منقسمًا على أساس قومي، فلا يمكن أن تشكل إحدى قومياته إطارًا لوحدته، وتصبح هوية جامعة له، وكذا الحال لو كان متعدد الأديان أو المذاهب، فإن أحدها لن يقوم بدور الجامع المشترك.

فلا بد من عنصر مشترك بين أجزاء المجتمع، يتم إبرازه والتركيز عليه كهويّة جامعة، أو تنمو حالة فكرية سياسية جديدة تتمحور حولها فئات المجتمع، وتصبح هدفًا مشتركًا وإطارًا جامعًا.

وهذا ما تحقق على يد رسول الله ﷺ، ومن خلال دعوته الإسلامية المباركة، التي أصبحت حالة سريعة النمو تخترق أوساط مختلف القبائل، وتبشر بتوجه جديد يحفّز نحو أهداف سامية، ويتبنى قيمًا إنسانية حضارية، تتجاوز أنانية الأفراد، وعصبية القبائل، وعبثية الحياة.

لقد أخذ الإيمان موقعه في نفوس أبناء تلك القبائل المتصارعة، وتمحور حوله ولاؤهم، وتوثق له انتماؤهم، على حساب الولاء القبلي، والانتماء العشائري، فأصبح إطارًا جامعًا وهويّة مشتركة، يفخر به الجميع بدرجة متساوية على اختلاف قبائلهم وتفاوت مكانتها وقوتها.

ثقافة الوحدة

حالة الانقسام والفرز الاجتماعي، تحفر آثارها في النفوس والمشاعر، بتضخيم الذات الفئوية، والحط من شأن المنافسين، والتعبئة تجاههم، كما تنتج ثقافة تبرر التمايز، وتكرّس المفاصلة، وقد تدفع إلى سلوكيات عدائية، وممارسات استفزازية.

وحين يحصل تطلع للوحدة في المجتمع، لا بد من ثقافة جديدة تعالج آثار ثقافة الانقسام، وتواجه مفاعيلها النفسية والسلوكية.

لقد كان الصراع والتنافس القبلي في الجزيرة العربية، دافعًا لتربية الأبناء على الفخر والاعتزاز بانتمائهم للقبيلة، وتنمية مشاعر التميّز وأحاسيس الأفضلية على الآخرين، وهذا ما تنضح به قصائد شعرائهم، وخطب زعمائهم.

إن الحماسة والفخر هو من الأغراض الأساسية في الشعر العربي الجاهلي، حيث يتفنن الشعراء في تمجيد قبائلهم وإظهار مكانتها، وفي شعر عمرو بن كلثوم نموذج صارخ لمثل هذا التوجه، حيث يقول في إحدى قصائده:

ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وماء البحر نملؤه سفينا
ونشرب إن وردنا الماء صفوًا ... ويشرب غيرنا كدرًا وطينا
إذا بلغ الفطام لنا وليد ... تخر له الجبابر ساجدينا
لنا الدنيا ومن أضحى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا

والوجه الآخر لهذا اللون من الأدب الجاهلي هو أدب الهجاء، حيث يبالغ الشعراء في الحط من شأن القبائل المنافسة لقبيلتهم، ووصفها بأسوأ النعوت، وأقبح الصفات.

وجاء الإسلام ليوحد تلك القبائل، فاهتم بمواجهة تلك الثقافة التمييزية السائدة، باجتثاث جذورها النفسية والفكرية، ومقاومة آثارها السلوكية، حيث أكدت آيات القرآن الكريم، على الأصل الواحد لبني البشر: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [سورة النساء: آية ١]، ونسفت كل مبررات التفاضل الزائفة بين الناس، إلا على أساس كسبهم الاختياري للصفات الفاضلة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[سورة الحجرات: آية ١٣].

وشدد رسول الله ﷺ في خطاباته وأحاديثه على مبادئ الوحدة بين أبناء المجتمع الإسلامي، وشّن حربًا ضارية على الأفكار والتصورات الجاهلية، بالتفاخر بالأنساب والأحساب، أو التفاضل بالانتماء القبلي أو العرقي.

كقوله ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس

منا من مات على عصبية»[١].

وروي عنه ﷺ: أنه خطب يوم فتح مكة فقال: «أيها الناس ليبلغ الشاهد الغائب: إن الله قد أذهب عنكم بالإسلام نخوة الجاهلية، والتفاخر بآبائها وعشائرها، أيها الناس إنكم من آدم وآدم من طين، ألا وإن خيركم عند الله وأكرمكم عليه اليوم أتقاكم وأطوعكم له»[٢].

وعن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: خطبنا رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: «يا أيها الناس، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[٣].

وفي إحدى الغزوات حصل سوء تفاهم بين مهاجري وأنصاري فصاح أحدهما: يا للمهاجرين، ونادى الآخر: يا للأنصار، فلما سمع رسول الله ﷺ أدان هذا المنطق قائلًا: «ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة»[٤].

بالطبع فإن المرفوض هو تفعيل الانتماء القبلي سلبيًا، وتضخيمه على حساب الولاء للمبدأ، دون أن يعني ذلك رفض الاعتراف بالانتماءات، والإقرار بالكيانات القبلية في مضمونها الإيجابي.

الشراكة الفعلية

لا شيء يحقق وحدة المجتمع كالشراكة الفعلية بين أطرافه في البناء واتخاذ القرار وإدارة الأمور، فذلك هو ما يشعر الجميع بمصلحتهم المشتركة في الحفاظ على كيان الوحدة، ورفض ما يمسّ بها، كما يجسد واقع المساواة في الحقوق والواجبات،

(١) سنن أبي داود، حديث رقم ٥١٢١.
(٢) بحار الأنوار، ج٧٠، ص٢٩٣.
(٣) كنز العمال، حديث رقم ٨٥٠٢.
(٤) صحيح مسلم، حديث رقم ٢٥٨٤.

أما إذا استأثرت بعض الأطراف بذلك، فإن الآخرين سيتملكهم الإحساس بالغبن والظلامة، وسيدفعهم شعورهم بالإقصاء والتهميش إلى القيام بردود فعل ليست في صالح الوحدة واستقرار المجتمع.

إن إقصاء أيّ طرف يحرم المجتمع من فاعليته وعطائه، ويفتح ثغرة في جدار وحدة المجتمع وأمنه.

ومن مفاخر الإسلام العظيمة سبقه إلى إقرار مبدأ المشاركة الشعبية، والشراكة الاجتماعية، وفي وقت كانت ترزح فيه المجتمعات البشرية في ظل أنظمة الاستبداد والعنصرية والطبقية البغيضة.

كان رسول الله ﷺ يمارس الشورى على الصعيد الاجتماعي العام، ليدلي كل مسلم برأيه، كبيرًا كان أو صغيرًا، من الأحرار أو الموالي، من المهاجرين أو الأنصار، ومن أية قبيلة كان، وحتى العناصر غير العربية أخذت موقعها دون أيّ تفاوت، بل احتل بعضها موقعًا متميزًا بجدارته كصهيب الرومي وسلمان الفارسي.

وفي مجال الوظائف والمهام القيادية، كان رسول الله ﷺ يسندها إلى الأكفاء المؤهلين من مختلف القبائل، ولو أُعطي هذا الجانب من السيرة النبوية حقه من الدراسة، لتجلت لنا وللبشرية روعة تعاليم الإسلام، وعظمة القيادة النبوية.

إن قائمة أمراء الجيوش والسرايا، وكذلك السفراء المبتعثين للملوك والزعماء، والشخصيات التي عينها الرسول ﷺ في مواقع القضاء والمسؤوليات الدينية، هذه القوائم حين نفحصها نرى التنوع في الانتماء القبلي والمناطقي لأشخاصها.

وبعض التعيينات كانت تشكل صدمة وإثارة للرأي العام الذي كان يعاني من رواسب الحقبة الجاهلية، لكن رسول الله ﷺ كان حازمًا في تحقيق مبدأ الشراكة واحترام الكفاءة.

ففي يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالًا الحبشي الأسود، الذي كان عبدًا يباع

ويشترى في مكة، وأوقع به أسياده القرشيون صنوف الإهانة والتنكيل، حتى أغروا صبيانهم وسفهاءهم أن يقتادوه بحبل ليسخروا منه ويؤذوه، هذا الرجل اختاره رسول الله ﷺ ليكون أول مؤذن على ظهر الكعبة، مما أثار حفيظة الكثير من القرشيين، حتى قال أحدهم لصاحبه: لقد أكرم الله أبي أن مات وألا يكون سمع هذا!! وكان الحارث بن هشام وصفوان بن أمية قاعدين فقال أحدهما للآخر: انظر إلى هذا الحبشي!! فقال الآخر: إن يكرهه الله يغيّره[١].

وحينما عين رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وهو عبد اشتراه حكيم بن حزام ثم وهبه لعمته خديجة بنت خويلد، فوهبته لرسول الله ﷺ، عينه رسول الله ﷺ على رأس جيش المسلمين إلى الروم في غزوة مؤته إلى جانب جعفر الطيار وعبدالله بن رواحة، اعترض البعض على هذا التعيين، فردّ عليهم رسول الله ﷺ، ثم عين ولده الشاب أسامة بن زيد على رأس آخر بعث عسكري له ﷺ، وجعل تحت إمرته كبار المهاجرين والأنصار.

قال ابن سعد في الطبقات: لما كان يوم الإثنين لأربع ليال من صفر سنة إحدى عشرة للهجرة، أمر رسول الله ﷺ الناس بالتهيؤ لغزو الروم، فلما كان من الغد دعا أسامة بن زيد فقال: سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش... فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدب في تلك الغزوة، فيهم أبوبكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص... فتكلم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين؟ فغضب رسول الله ﷺ غضبًا شديدًا، فخرج وقد عصب على رأسه عصابة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، ولئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله! وأيم الله إن كان للإمارة لخليقًا وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة...[٢].

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٣، ص٢٣٥.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص١٩٠.

نهج الوحدة والحضارة

هذا النهج الوحدوي الذي اعتمده رسول الله في بناء الأمة، بتركيز الهويّة المشتركة، وهي الإسلام، لتكون فوق سائر الهويّات والانتماءات، التي لم يتنكر الإسلام لوجودها، كالقبيلة والوطن والقوم، وإنما حارب التوجهات السلبية فيها، وضخّ في المجتمع الجديد ثقافة وحدوية، تعالج آثار المفاصلة القبلية السائدة، وكذلك الحرص على تحقيق الشراكة الاجتماعية بين مختلف الأطراف في البناء واتخاذ القرار وإدارة الأمور.. هذا النهج هو ما يؤدي إلى الوحدة الحقيقية، وهو ما يؤهل المجتمع للرقي الحضاري.

وما تنتهجه الآن المجتمعات الغربية المتقدمة، من اعتماد الوطن كهويّة مشتركة، ومن احترام التنوع في مجتمعاتها، وتجريم الطروحات العنصرية، والممارسات التمييزية بين المواطنين، وتحقيق الشراكة والمشاركة عبر النظام الديمقراطي، إنما يمثل إدراكًا لأفضل سبل التقدم والحضارة التي سبق إليها الإسلام بقرون، ومع تلافي الكثير من الثغرات والسلبيات التي تعاني منها الحضارة الغربية.

والمسلمون اليوم هم الأولى بمثل هذا النهج السليم، النابع من تعاليم دينهم، والمنسجم مع تاريخهم وثقافتهم الأصيلة.

المصادر

١. ابن أبي شيبة: عبد الله بن محمد الكوفي، المصنّف، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ، (مكتبة الرشد - الرياض).

٢. ابن شهرآشوب: محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب، المطبعة العلمية، قم.

٣. ابن عاشور: محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، مؤسسة التاريخ، بيروت.

٤. ابن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر ـ دار بيروت، بيروت ١٩٥٧م.

٥. ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، دار الجيل، بيروت ١٩٨٨م.

٦. ابن هشام: السيرة النبوية، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٧. ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي بن محمد، فتح الباري شرح صحيح البخاري، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، الرياض: دار السلام ـ دار الفيحاء، دمشق.

٨. ابن أبي الدنيا: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي، كتاب العيال، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، دار ابن القيم، الدمام.

٩. ابن أبي الدنيا: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي، مكارم الأخلاق، مكتبة القرآن، القاهرة.

١٠. ابن أبي الدنيا: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي، مداراة الناس، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، دار ابن حزم، بيروت.

١١. ابن كثير: إسماعيل بن عمر القرشي، البداية والنهاية، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٢. ابن هشام: عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.

١٣. ابن ماجة القزويني: محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة، طبعة ١٤٣٠هـ، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت.

١٤. ابن الأثير: علي بن أبي الكرم محمد، أسد الغابة في معرفة الصحابة، الطبعة الأولى١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥. ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله بن محمد النمري، كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، دار الجيل، بيروت،

١٦. أمين: أحمد، فجر الإسلام، الطبعة الحادية عشرة ١٩٧٩م، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٧. الأصبهاني: أبو الفرج، مقاتل الطالبيّين، طبعة ١٣٨٥هـ، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، قم.

١٨. الأصفهاني: أحمد بن عبدالله الشافعي، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دراسة وتحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩. الأصفهاني: أحمد بن عبدالله الشافعي، معرفة الصحابة، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، دار الوطن للنشر، الرياض.

٢٠. آل مبارك: الشيخ محسن، من سيرة العلماء على لسان السيد موسى الزنجاني، الطبعة الأولى ١٤٤١هـ، منشورات شرق، بيروت.

٢١. الألباني: محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة، طبعة ١٤٢٢هـ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.

٢٢. الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ، دار الصديق للنشر والتوزيع، الجبيل.

٢٣. الألباني: محمد ناصر الدين، صَحِيحُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، مكتَبَة المَعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، الرياض.

٢٤. الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح الجامع الصغير، المكتب الإسلامي، بيروت.

٢٥. الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح سنن ابن ماجة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، مكتب التربية العربي لدول الخليج.

٢٦. الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح سنن أبي داود، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت.

٢٧. الآمدي: عبد الواحد بن محمد التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، طبعة ١٤١٠هـ، دار الكتاب الإسلامي، قم.

٢٨. باشميل: محمد أحمد، موسوعة الغزوات الكبرى، الطبعة الثامنة ١٩٨٥م، المكتبة السلفية، القاهرة.

٢٩. البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، الطبعة: الخامسة، ١٤١٤ هـ، دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق.

٣٠. البروجردي: حسين آقا، جامع أحاديث الشيعة، طبعة ١٤١٥هـ، قم.

٣١. برنامج الأمم المتحدة: الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، المكتب الإقليمي للدول العربية ببرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣، المملكة الأردنية الهاشمية.

٣٢. برنامج الأمم المتحدة: الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، المكتب الإقليمي للدول العربية ببرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٢، المملكة الأردنية الهاشمية.

٣٣. بزاينيّة: حسن. كتابة السيرة النبوية لدى العرب المحدثين، الطبعة الأولى ٢٠١٤م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

٣٤. البغدادي: أحمد بن علي (الخطيب البغدادي)، تاريخ بغداد، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

٣٥. البغوي: الحسين بن مسعود، تفسير البغوي، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٦. البوطي: محمد سعيد، فقه السيرة، الطبعة الثامنة ١٩٩٠م، دار المعارف المصرية، القاهرة.

٣٧. البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، السنن الكبرى، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٨. البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي، دلائل النبوة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٩. البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي، شعب الإيمان، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ، مكتبة الرشد، الرياض.

٤٠. الترمذي: محمد بن عيسى، سنن الترمذي، طبعة ١٤٣٠هـ، الرسالة العالمية، بيروت،

٤١. التميمي: أبو يعلى أحمد بن علي بن هلال، مسند أبي يعلى، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، دار القبلة، جدة.

٤٢. التميمي: محمد بن حبان بن أحمد، صحيح ابن حبان، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ، دار ابن حزم، بيروت.

٤٣. جاد المولى: محمد أحمد وآخرون، أيام العرب في الجاهلية، دار الجيل، بيروت ١٩٨٨م.

٤٤. الجصاص: أبو بكر أحمد بن علي الرازي، أحكام القرآن، طبعة ١٤٠٥هـ.، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٥. الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد، صيد الخاطر، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ، دار القلم، دمشق.

٤٦. الحاكم النيسابوري: محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٧. الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ،

مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، بيروت.

٤٨. الحرّاني: الحسن بن علي بن شعبة، تحف العقول، الطبعة السادسة ١٤١٧هـ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٤٩. الحنبلي: محمد بن مفلح (المتوفى: ٧٦٣هـ) المحقق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، كتاب الفروع، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥٠. الحنفي: إسماعيل حقي بن مصطفى، روح البيان في تفسير القرآن، دار الفكر ـ بيروت.

٥١. الخوئي: السيد أبو القاسم. مستند العروة الوثقى، منشورات مدرسة دار العلم، قم.

٥٢. دروزة: محمد عزة، سيرة الرسول ﷺ، تحقيق عبدالله ابن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، بيروت.

٥٣. الدمشقي: علي بن الحسن (ابن عساكر)، تاريخ مدينة دمشق، طبعة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٥٤. ديكارت: رينيه، مبادئ الفلسفة، ترجمة الدكتور عثمان أمين، طبعة ١٩٧٥م، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة.

٥٥. الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ.، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥٦. الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تاريخ الإسلام، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

٥٧. الزهري: محمد بن سعد بن منيع [ابن سعد]، الطبقات الكبرى، الطبعة:

الأولى، ١٤١٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٨. زين العابدين: علي بن الحسين، الصحيفة السجّادية طبعة ١٤٢٨هـ، دار المرتضى، بيروت.

٥٩. السجستاني: أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ، دار الرسالة العالمية، بيروت.

٦٠. السيستاني: السيد علي الحسيني، منهاج الصالحين، الطبعة التاسعة عشرة ١٤٣٩هـ، دار المؤرخ العربي، بيروت.

٦١. السيوطي: عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، طبعة ١٤٣٢هـ، دار الفكر، بيروت.

٦٢. الشريف الرضي: محمد بن الحسين الموسوي، المجازات النبوية، منشورات مكتبة بصيرتي، قم.

٦٣. الشريف الرضي: محمد بن الحسين الموسوي، نهج البلاغة، طبعة ١٣٨٧هـ، مركز البحوث الإسلامية، قم.

٦٤. الشريف المرتضى: علي بن الحسين بن موسى الموسوي، رسائل الشريف المرتضى، دار القرآن الكريم، قم.

٦٥. الشامي: محمد بن يوسف الصالحي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٦. الشطي: إسماعيل، جذور الثقافة في المنطقة العربية، الجزء الثالث (الإسلام وثقافات مسلمي الأقطار المفتوحة)، الطبعة الأولى ٢٠٢٠م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

٦٧. الشوكاني: محمد بن علي، فتح القدير، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ دار ابن

كثير، دار الكلم الطيب ـ دمشق، بيروت.

٦٨. الشيرازي: السيد محمد الحسيني، الفقه، كتاب الصلاة، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ، دار العلوم للتحقيق والنشر، بيروت.

٦٩. الشيرازي: ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، مؤسسة البعثة، بيروت.

٧٠. الصدوق: محمد بن على ابن بابويه القمي، الأمالي، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، مؤسسة البعثة – قم.

٧١. الصدوق: محمد بن على بن الحسين بن بابويه القمي، الخصال. منشورات جماعة المدرسين، قم.

٧٢. الصدوق: محمد بن على بن الحسين بن بابويه القمي، عيون أخبار الرضا، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت.

٧٣. الصدوق: محمد بن على بن الحسين بن بابويه القمي، من لا يحضره الفقيه، طبعة ١٤١٣هـ، منشورات جماعة المدرسين بالحوزة العلمية، قم.

٧٤. الصدوق: محمد بن على بن الحسين بن بابويه القمي، معاني الأخبار، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

٧٥. الطباطبائي: السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، الطبعة الأولى ١٩٩١م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٧٦. الطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب، المعجم الكبير، الطبعة الثانية١٤٠٤هـ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

٧٧. الطبرسي: الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبعة

الأولى ١٤١٥هـ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٧٨. الطبرسي: الميرزا حسين بن محمد تقي النوري، مستدرك الوسائل، الطبعة الثالثة١٤١١هـ، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم.

٧٩. الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الطبري، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٠. الطوسي: محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، طبعة ١٤٠٦هـ، دار الكتب الإسلامية، طهران.

٨١. الطوسي: محمد بن الحسن، رجال الكشي، طبعة ١٤٠٩هـ، مؤسسه نشر دانشگاه، مشهد.

٨٢. العاملي: السيد جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، الطبعة الخامسة ١٤٢٧هـ، المركز الإسلامي للدراسات، بيروت.

٨٣. عدة محدثين: الأصول الستّة عشر، منشورات دار الشبستري للمطبوعات، قم المقدسة.

٨٤. القرطبي: محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، طبعة ١٤٢٣هـ، دار الحديث، القاهرة.

٨٥. الكليني: محمد بن يعقوب، الكافي، طبعة ١٤٠٥هـ، دار الأضواء، بيروت.

٨٦. الكيالي: عبدالوهاب، موسوعة السياسة، الطبعة الثانية ١٩٨٥م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

٨٧. لوبون: غوستاف، سيكولوجية الجماهير، ترجمة هاشم صالح، الطبعة الأولى ١٩٩١م، دار الساقي، بيروت.

٨٨. المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٨٩. مهران: د. محمد بيومي، السيرة النبوية الشريفة، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٠م.

٩٠. المفيد: محمد بن محمد بن النعمان، المسائل العكبرية، المؤتمر العالمي بمناسبة الذكرى الألفية لوفاة الشيخ المفيد.

٩١. الموسوعة العربية العالمية، الطبعة الثانية ١٩٩٩م، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض.

٩٢. النيسابوري: مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، (الرياض: دار المغني).

٩٣. هارت: مايكل، المائة الأوائل، ترجمة أسعد عيسى ـ أحمد غسان سبانو، الطبعة الثانية عشرة، ٢٠٠٤م، دار قتيبة، دمشق.

٩٤. الهندي: علاء الدين علي المتقى، كنز العمال، الطبعة الخامسة١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٩٥. الهيثمي: علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، طبعة ١٤١٤هـ، القاهرة: مكتبة القدسي.

٩٦. الواسطي: علي بن محمد الليثي، عيون الحكم والمواعظ، دار الحديث، قم.

٩٧. الواقدي: محمد بن عمر بن واقد، كتاب المغازي، الطبعة الثالثة ١٩٨٩م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٩٨. اليزدي: السيد محمد كاظم، العروة الوثقى مع تعليقة السيد علي السيستاني

الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، (قم: مكتب آية الله السيد علي السيستاني).

٩٩. يماني: الدكتور محمد عبده، بدر الكبرى المدينة والغزوة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة.

١٠٠. **الصحف:**

- جريدة البلاد السعودية.
- جريدة البيان الإماراتية.
- جريدة الحياة السعودية.
- جريدة الخليج الإماراتية.
- جريدة الرياض السعودية.
- جريدة المدينة السعودية.
- جريدة الوطن السعودية.
- جريدة الوفد المصرية.
- جريدة عكاظ السعودية.

١٠١. **المجلات:**

- مجلة البيان، لندن.

١٠٢. مواقع إلكترونية:

- إندبندنت عربيةhttps://www.independentarabia.com
- هيئة حقوق الإنسانhttps://www.hrc.gov.sa/ar-sa